الأعمال الإبداعية

مكتبة
٢٠٠٠
الأسرة

مهرجان القراءة للجميع
2000
عشر سنوات

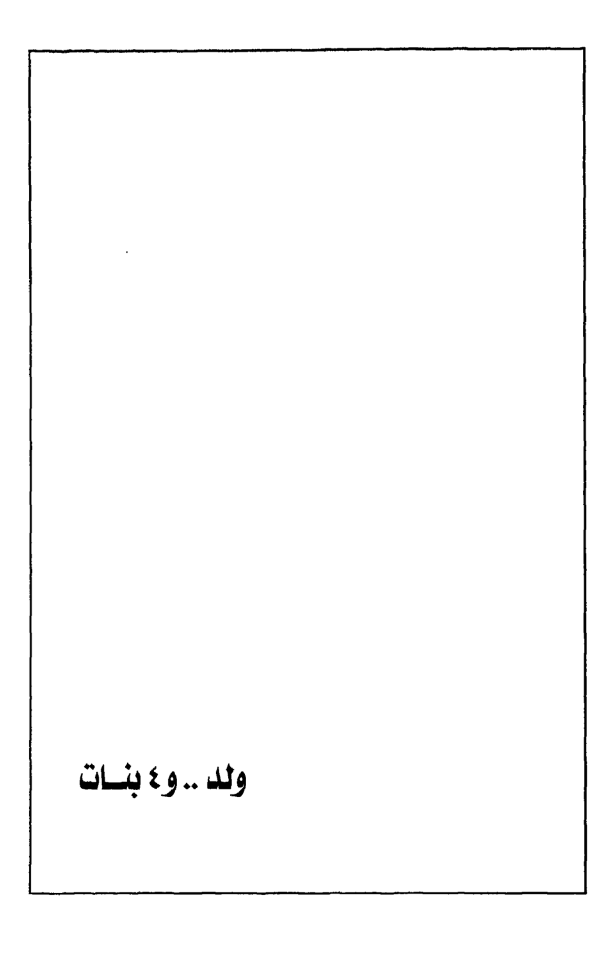


مجدى نجيب

رواية

ولد و ٤ بنات

الهيئة المصرية
العامة للكتاب



ولد .. و٤ بنــات

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى : البنات.

التقنيـــة : ألوان مائية على ورق.

المقـاس : ٢١ × ٣١ سم.

مقتنيـات : روز اليوسف.

عبد العال حسن (١٩٤٤).

مـصـور صـحـفى، تخرج فى كليـة الفنون الجـمـيلة عـام ١٩٦٦، تخصص فى فن البورتريه وتصدرت رسومه أغلفة المجلات المصرية والعربية، كما قدم مجموعة ضخمة من الكتب لأشهر دور النشر.

تنقل الفنان بين البلدان العربية والأوروبية، فكانت مشاهد الحياة اليومية موضوعه الرئيسى فى عديد من معارضه كما قدم معرض «بنات مصر» وهو حصيلة رحلته فى مدن وشوارع مصر.

وله مـقـتنيـات بمـتـحف مـجلس الشـعب بالإضـافـة إلى مقتنياته لدى الدول العربية والأجنبية.

محمـود الهنـدى

ولـد .. و ٤ بنـات

مجدى نجيـب



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

ولد .. و ٤ بنات

رواية

مجدى نجيب

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :

د . سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشـــــباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

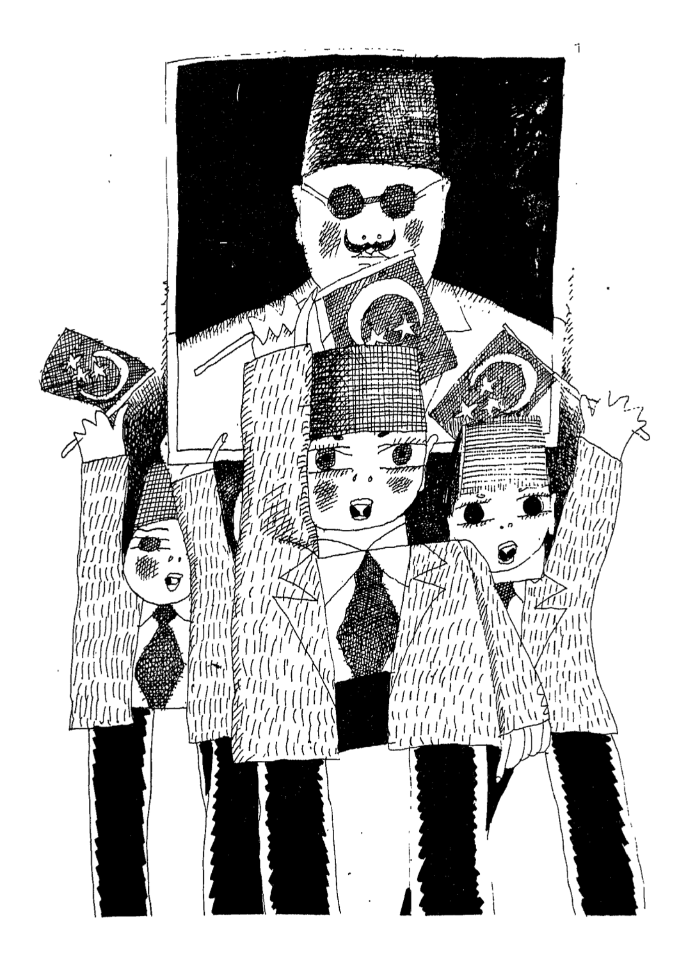
وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان

يقولون
ما هو الحب؟!
قُل
هو ترك الإرادة!

جلال الدين الرومى



ملك.. وكتابة!

اللّه يرحمك يا ملك يا «فاروق»
يابوُ طربوش أحمر نبيتى
كنت متعلق فى أودتى.. في بيتى
ونا ببحلق فى شنبك المبروم وفى ابتسامتك
وانت بسلامتك
مرسوم ع الفلوس زى الفانوس
زى لون شجن عاشق ورايق ع العلم،..
على المناديل،،
وجوّه أحضان النفوس
غنّالك «محمد أفندى» صديق «شوقى باشا»
خلّى القلوب ناحيتك بتميل
والحمد لله
عشت شويه من عمرى
وانت مليكى على الملاليم،..
على الصور والورق
عظّمت لك تعظيم سلام لعظيم
من غير قلق
ولما انضربت ع القفا يا ملك «يافاروق»
وقع القرش صاغ على كتاف الخازوق
كنت انت جوّه النعش
قرينا واتعلمنا
وقلعنا طرابيشنا.. واتعممنا، واتحجبنا
تُهنا فى بعض الأغانى اللّى قدرت.. تبهدلنا

★★★

بعد الرحيل
قرينا فى الجرايد وجع مطرز المناديل
مسح بعض الكآبه
ثُم ماذا.. يا هذا.. يا.. مولاى
غرقنا من تانى فى الكآبه
وانكتب لينا نعيشها
من تانى فى زمانّا الجاى

«م.ن»



أنا اللى فى الهوى صياد
وجيت أصطاد.. صادونى
لا شبكه ولا سنار
برمش العين صابونى

محمد أفندى عثمان

التشريفة!

يتذكر الملك فاروق.. مولاه الذى يحبه.. يقلّب المليم المرسومة صورته عليه بطربوشه الأحمر النبيتى وشاربه الرفيع الأنيق، فيشعر بالسعادة، فهو حلمه الجميل.. لايعرف لماذا ينحاز إليه!.. ربما لأنه رجل طيب، هكذا يحكم عليه من خلال صوره الأنيقة، حيث تؤكد ملامحه بساطة تترجمها ابتسامته الهادئة.

كان الزمن يسترخى على وسادة من الدفء والطمأنينة.. والحركة البطيئة المتأنية..، فلا هرولة وراء مال.. ولا كراهية جار لجاره.. وطن كالنخلة التى تظلل الجميع، والأيام تمر وهى تحمل معها دفئاً خاصاً فى الشتاء.. ونسمة حانية، رطبة وهى تتنفس فى الصيف عندما تثمر الأشجار والعيدان بالثمار.. والورود..، وكان للاحتفالات خصوصية التميز.. ومع ذلك، وأحياناً، كان يشعر أنه يمشى فوق تاريخ لا يفهمه.. وكان حلمه الذى ولد به، وبعد

حصوله على أول مليم عليه صورة مليكه « **فاروق**»، أن يدخل قصر مولاه فى عابدين.. **وأن يتفرج على حجراته الكثيرة التى تخيلها مليئة بأسرار مثيرة، تلك الأسرار التى كانت تشعلل رأسه وتشغله دائماً لكى يكتشفها ذات يوم!**

تعود به مشاهد متشابكة لذلك العصر الهادىء فى إيقاعه الذى لم يعرف لغة اللهاث والعدو، فيتذكر وهو تلميذ صغير مع زملاء مدرسته وهم يقفون فى طابور التشريفة فى انتظار المسيرة الملكية.. والتصفيق.. وإطلاق الأناشيد التى تمجد مولاه المعظم.. وكانت المكافأة عبارة عن وجبة لذيذة، لها رائحة الأغنياء.. وطعم ابتسامة مولاه المرسومة على المليم وعلى النصف فرنك الفضى.. والذى غنى له «**محمد أفندى أنور**»:

بقدوم فاروق.. وفوزيه نلتى يامصر الحريه

يؤكد أنه هو وزملاؤه الصغار.. لم يدركوا معنى هذه الكلمات أو فكّ رموزها، فهو لايعرف ما هى « **الحرية**» التى نالتها مصر.. هل هى نوع من الطعام الذى يأكله كبار القوم «**الأغنياء**».. أم هى نوع من البسكويت الذى نادراً ما كان يحصل عليه مثل أحلام طفولته الشحيحة التى يتذكرها بلون غامق يميل إلى الرمادى.. وكثيراً إلى اللون الأسود، وخصوصاً عندما كان يهتف هو وزملاؤه خلف مدرسهم أثناء التشريفة: «**عاش مولانا.. نعمتنا ورحمتنا.. وحامى أمتنا**».

كان دائماً يحلم بدخول قصر عابدين.. **وكان كابوسه المستمر، البحث فى تلك الحجرات عن سر لا يعرفه**، وخصوصاً عند هتافه مع زملائه: «**عاش الملك**».. وكذلك عندما يرقص قلبه الصغير مع المزازيك والأغانى التى تمجده:

السعد جانا على أيامُه شجاع ونادر أمثالهُ

راعى الديار المصريه

كان الغناء يأتيه من الصندوق السحرى، الذى كان يثير خياله دائماً.. ولم يستطع فى البداية فك رموزه.. وكان مندهشاً.. متخيلاً.. متسائلاً عن كل هذه الأصوات المتنوعة التى تتسلل من داخله، وقد حاول سؤال من يكبرونه، فسخروا منه.. كانت الرموز والكلمات تتراقص أمامه مثل العفاريت فى الحكايات التى كانت تحكيها له جدته وتكررها مراراً دون الشعور بالملل.

انتفض مثل فرخ اليمام، فزعاً على قـرع الطبول الحماسية فى أغنية تخرج من الصندوق السحرى تغنى لمولاه الذى يحبه:

يارب أهـــلك أعدانـا   وانصــــر لنا مولانـا
ويكفــينا شر الســــنه   ويدوم الفــرح والهـنا

يتذكر أن هذه الأغنيـة، كانت هى النشيد اليومى كل صبـاح فى طابور مدرسته من أجل مولاه..، **إذن. لابد من دخول قصره والبـحث فى حجراته عن الأسرار.. إنه حلم يتكرر ويصاحبه كل يوم.**

★★★

كان وقتها يسمع عن «**الحب**».. ولكنه لايعرفه.. ولم يقابله.. ولم يجربه.. وكان يسمع من زمـلائه الكبار عن **لوعتـه.. وعذابه.. وحـلاوته، وكان مندهشـاً لهذا الحب الذى يرطب الفؤاد..** وأحيـاناً يجرح القلب.. وكـثيراً مـا يقهر البـعض، فلا ينالهم سـوى الإحباط، ولـذلك أصابته الدهـشة وهو يستـمع إلى «مذهب: سـيكا» للشيخ «**محمد أفندى المسلوب**»:

الحب مين يقدر يخفيـه   والدمـع هتّاك الأســـرار
والصبر مُرّ وإيه يحلّيه   تاهت ياناس منّى الأفكار

وبالصدفة. كان الصندوق السحرى يتـأوّه بواحدة من الآهات الملتهبة ـ مذهب: سيكا ـ يغنيها «**محمد أفندى عثمان**»:

أنا اللى فى الهوى صياد   وجيت أصطاد .. صادونى
لا شـبكه ولا ســـنّار   برمــش العـين صـابونى

معـان أحبـها.. وكأنهـا هى التى تغزل للـشمس خيـوطها لكى تتـسلل إلينا فى شروقها.. وتركب غروبها، فتحملنا على جمر الوجع والنار.

★★★

يؤكـد لنفسـه ـ بعـد مرور سـنوات ـ أنه فى زمنه. كان يمـلك حاسـة الشم.. وحاسة الانتماء للحب والطيبة.. وحـاسة الصدق أو الكذب فى كل من كان يعرفهم من أقاربه ومعارفه وزملائه فى المدرسة، فقد **كان يملك تمييزرائحة الأرض بعد رشـهـا فى الصيـف بعربات الرش الـتى كان يجـرها حـصـان هزيل..** وكان

مستمتعاً وهو يتنفس عطرها القادم من الجذور، والصاعد مثل نبتة من أحشائها.. كما كان قادراً على استنشاق الفلفل الأخضر الصغير وهو يكبر كل يوم عند مروره عليه أثناء سيره بين بعض المنازل التى لم تكن طويلة ولا مخيفة مثل منازل هذه الأيام التى بدأ يضيق بها وتضيق بحلمه.. وتحاول خنقه.

و.. دائماً كان إذا ابتعد شبراً واحداً عن محيط عائلته ومنزله، يصاب برعب.. وتوهة لا نهاية لها، ولذلك، **كان دائماً يحب الاحتماء فى ذ اكرة حياته: منزله.. والشوارع القديمة، مستطعماً زمنه الذى يشبه فى لونه البلح «الرُطب» على شجره**، وكان فى زمنه مسموحاً فيه.. قطف «بلحة» أو أكثر من خلال اصطيادها بالحجارة من خلال المجهود الشخصى، وكان يجلس فى سعادة.. منتشياً.. محتضناً «بلحة» أو ثلاثاً لمزمزتها فى بطء شديد.. والانتعاش برائحة وحلاوة طعم السكر، وكان يظن أن الله قد أوعز إليه بهذه الفكرة، لكى يوفر من سكر منزلهم، لأن الاقتراب من سكر المنزل، يعرضه لعقاب شديد.

فى أثناء تلذذه بطعم «البلح الرُطب»، كان يغوص فى حلمه للفرجة على حجرات مولاه «**فاروق**» فى قصر عابدين، تلك الرؤيا، والشاهد اليومى على حلمه الغامض.. وكان لا يزال يبحث عن «**الحب**»، ذلك الذى يتحدثون عنه وكأنه وجبة شهية!! وأحياناً كأنه سفينة سيدنا «**نوح**».. وكثيراً كأنه الألغاز المستعصية على القدرة والدماغ البشرى.

كان يجلس فى حجرته حزيناً.. تلفه سحابة من الغموض.. **لايعرف.. لايفهم.. لا تجربة.، ولكنه اشتاق أن يحب**، وبالصدفة، كان الصندوق السحرى يطلق شكواه التى استعارها منه فى مذهب «رصد» للشيخ «**سلامة حجازى**»:

مجروح ياقلبى والله سلامتك
ألفين سلامتك منْ دى الجراح
حرام ياعينى ماشُفَت راحتك
شـــفت فكرى والعقل راح

كان أى حدث.. أو أى حلم يجذبه، يضمه إليه.. ويقع به فى شباكه.. ويغازله ويطيّب جراحه ويعذبه أحياناً.. ويثير مواجعه، وهو لا يحب العذاب.. **إنه يحب الأشياء الجميلة من حوله.. فيختار أفضلها ويضمها إلى حلمه**. يجلس فى الليل

يتأمل حائط حجرته وأعمدة سريره النحاسى، ويحس بالغربة والتشرد وكأنه يهيم فى الشوارع. ، فيطارده صوت «**فريد الأطرش**» فى غنائه الحزين فى تلك الأغنية التى أذيعت لأول مرة باسم «الشريد» فى **سبتمبر ١٩٣٦**.

ماعادش فى الكون جمال　　من يوم ما فارقه جمالك
ولا بقـت لى آمـال　　مـن يوم فراقى لخـيالك
الدنيا ضاقت فى عـينى　　وبان عليهـا أسـايا
وكـنت نورها فى عـينى　　وكـنت سـعدى وهنايا

يرجع إليه صدى الصوت المغموس فى مشاعره مثل الوردة الخائفة من رياح قادمه، خائفة من التشريد على الأبواب والأماكن:

أمضّى يومـى شـريد　　وأسهر فى ليلى وحيد
وكـنت منّى قـريب　　صـبحت عـنّى بـعيد
أروح فى كل مكان زرناه　　سـوى وفرحـنا
وأبكى وأقول للزمـان　　ياهـلترى تجـمعنا!!

لاينكر أنه يتمنى الوقوع فى الحب، لكى يعيش حلماً مختلفاً مثل البشر، فيذوب مع «**ليلى مراد**» الصوت المبتسم الذى يدارى حزناً بعدما ضاع منها مفتاح حجرة أفراحها:

ياما انت واحشـنى وروحى فـيك　　ياماًنس قـلبى لمـين أشـكيك
للىّ قـادر يهديك ويبلغ الصابر أمـله　　دنا حالى فى بُعدك لمْ يرضيك
كيد العوازل كايدنى بس اسمع شوف　　إنت مالكنى من قلبى بالمعروف

يناجى نفسه فى وحدته وهو يحتضن سقف حجرته برسوم وأطياف يتخيلها.. وكأنه يناجى حبيباً يعرفه:

ياقلبى بزياده كل يـوم أنين / صفـا الحبـيب / سـمع وجـالى بعد هجـر سنين.. ياقلبى

إفرح وطيب / ليـه البعاد، خلّـى الوداد / ولحظي فارقه طول السـهاد / ياعينى طيبى وانسِى الحبيب!!

أى حبـيب هذا الذى يحبه.. إنه حـالياً لا يحب سـوى مليكه ومولاه «**فاروق**».. ولايزال يجد المتعة فى «فـرك» عُملة «المليم» التى عليهـا صورته وشـاربه الرفيع،

ويحلم باقتحام قصره والبحث فى حجراته عن سر لا يعرفه!

★★★

يستسلم فى غفوة.. ثم يفيق على صوت صندوقه السحرى الذى تنطلق منه عفاريت الغناء:

مهمـــا وصـــفت وقلت وعدت
ماشـــوفتش أحسن من دى البنت!

أى «**بنت**» هذه التى يحكى عنها الصندوق!!..

فتش فى ذاكرته، فوجد أن كل أصدقائه من الصبيان.. ولكن الصوت الصادر من الصندوق، يؤكد أنها:

زى القمـــر ليـــلة أربعتاشر مـين شـافها راح ولهان
ياللعـجب.. رقـــه.. وأدب سحرتنى بلحظ نعسان

شغلته هذه «**البنت**»، التى انضمت إلى «**الحلم**» الذى ينتظره!!.. أما حلمه الأساسى، فهو من الأحلام اليومية التى تنعش ذاكرة معدته، حيث كان يجد لذة فى طوابير التشريفة والهتاف لمولاه **الملك**، ثم الحصول بعد ذلك على الرغيف المحشو باللحم بعد سعادته برؤية شارب مولاه وطربوشه الأنيق.. وابتسامته الطيبة.

★★★

يتذكر أنه كان يقطن على مقربة ثلاث كيلو مترات من «**كوبرى عباس**» **بالجيزة**، ويؤكد أن فرحته الوحيدة فى ذلك الوقت، كانت فى تواجده وهو يسكن «نفسه» بعيداً عن طابور التشريفة، متصفحاً دفتر أحلامه التى لم يكن بها سوى ورقة واحدة يسكنها مليكه الذى يحبه أكثر من والديه ولا يعرف لماذا؟!

كان يسمع **عن الوطن** و«**الانتماء**» لشىء ما يحبه، ويقتنع به!!، فيؤكد لنفسه أن **الوطن، هو مولاه**، وكلمة «**الانتماء**» لم يعرف معناها منذ كان صغيراً.. حتى بعد أن صار شعره بلون الطباشير الأبيض.

أما المدرسة، فلم يتعلم منها فى سنواته الأولى سوى **حُب الملك**.. والدعاء له بطول البقاء.. والغناء له تمجيداً، وكأنه هو الذى كان يطعمنا خبزنا.. ويسمح للهواء أن نستنشقه.. وللقمح كى يكبر ويصير فى لون الذهب فى الحقول!

تعلم أن يعاقب نفسه، فكان يقف خلسة بعيداً عن العيون.. رافعاً ذراعيه لأعلى ووجهه للحائط، وكأنما ركبه أحد عفاريت الصوفية.. كان يقف بالساعات، منتظراً أمراً لايجىء أبداً.. ينتظر نصيحة من والده، أيضاً لا تجىء، فقد كان الأب مشغولاً بهموم لايعرفها غيره، ومع ذلك. كان بشوش الوجه، طيباً.. صوته الهامس دائماً حتى فى لحظات غضبه النادرة، وتأكد أن والده يخفى أسراراً مغلقة لم يفهمها ولم يكن قادراً على فك رموزها عقله الصغير!!

وفى عصره.. قبل معرفة لغة « **البرمجة**».، برمجوا الشباب فى المدارس على الإخلاص والتضحية وعمل الخير.. والحب.. وكل هذا من خلال مولاه «**فاروق**»، الذى كانت تزداد محبته فى قلبه كل يوم، وكأنه كان يذيب له «**سكر**» الإخلاص، فيشربه شهداً، وصموداً.. وحباً، ولكنه كان يعانى من «**لسعات**» مؤلمة من **صندوقه السحرى** الذى كان ـ عن دون قصد ـ يحرضه على الانفتاح على الحياة بوجعها وحلاوتها..

كان دائم الإحساس بقهر موجه إليه، وبشىء «**يكويه**»، وهذا ما أكده الصندوق السحرى فى لحن «**رياض السنباطى**».. وغناء «**صالح عبدالحى**»:

لما انكويت بالنار فرح العزول فيّا
والقلب بات محتار ياروحى وعنيا

★★★

من طول غيابك ياهاجر رضيت بكُتر الأسيّه
وصبرت والدمع حاير والنوم مخاصم عنياً

و..تعود على مناجاة وجعه فى طمأنينة وهو يتخيل نفسه عاشقاً لم يحدث فى كل المصنفات.. وما كتبوه عن الكثيرين، فهو.. لا ينكر أبداً أنه «**فرْخ**» صغير، ثم هو يتساءل فى دهشة مثل كل الروايات:

«فالعمر ضاع والقلب شريد / والدمع لوعنى يا قاسى / وإيه ياعينى الدمع يفيد / مدام حبيب القلب ناسيه.

تخيّل **الحبيب المجهول**، الذى لم يعثر عليه بعد، وهو يناجيه من خلال «تانجو اشتياق» الذى كتبه «**يوسف بدروس**»، ولحنه وغناه المغنى الباكى والشاكى دائماً «**فريد الأطرش**»:

فين الحبيب الجميل   يسعد عيني وفؤادى
سهرت وحدى عليل   فينه يآنس سـهادى
نورت يابدر وحدك   إمتى ينـوّر معاك
حبيبى يابدر زيّك   جميل ويشبه صفاك

كان دائماً يعشق ركوب الصعب، والمستحيل، منفتحاً على أى صوت يناديه، فيصدقه ويعشقه، ويجعله شاطئه الذى يحلم بالاسترخاء فوقه.

تخيل نفسه غارقاً وانتشلوه، فهو على شاطىء حلمه، مغمى عليه، يتذكر فينادى على المجهول:

تعالى جنبى يا حبيبى / ترد رُوحى وآمالى / الذلْ كان من نصيبى / فى الوحده بين الليالى / متعت عينى بنورك / يانور عينىّ وفؤادى / ما عندى فى الدنيا غيرك / حبّيت أصون ودادى

كان دائماً يتساءل فى عفوية بريئة:

مين ح يرحم شكوايا   غيرك يانور قلبى وعينى

دائما كان على يقين أنه لن يجد من ينقذه، فالمجانين والعشاق من الصعب إنقاذهم من أنفسهم، ولذلك كان مستسلما لقدره دون أن يجرب الاستغاثة!



سـألت ع البخـت / قالوا تلاقيـه موجـود
قلت يروحـوله منين / إحـكى يامـوعـود

غناء :
أحمد عبدالقادر

ليلى

كان لا يحب الشـتاء لأنه يسقط عنه سخـونة انفعالاته ويعريه، ويـتركه للسعاته، ولكنه أحبه فقط عندما. ذهب فى شـهر نوفمبر إلى واحدة من التشريفات والرغيف الملىء بقطع اللحم الطرى، فـقد كان **مولاه،** يفتـتح مستـشفى **جمعـية المواساة الخـيرية الإسـلامية بالإسكندرية،** وكان ذهابهم بالقطار، **ولأول مرة يعتـرف ويعرف أن «النهر» غيـر «البحر» عـالم آخر.. وحكايات بلا بداية ولا نهاية،** وقد سافر.. وعاد، محملاً برائحة الموج وصوته وطعم الملح فى شفتيه.

واكتشف يومـها أن البحر مثـل حياتنا على الأرض.. **حيث للأقوياء قدرة فى التهام الضـعفاء.** استلقى فى حـجرته وحيـداً مثل **«نملة»**.. فهو لم يتـمدد على سريره النحاسى، فقد فضّل الاسترخـاء أسفله، سانداً رأسه على العمود النحاسى، وكانت حفلة غنائية على الهواء من خلال الصندوق السحرى.. وكان الملحن **«داوود**

حسنى».. وكان الغناء الذى سمعه من صوت «**خيرية يوسف**»:

بديع الحسن.. قلبى مال إليــه
جرحنى لحظه آه ياوعدى عليه
طلبت وصله عمـل دلال وتيــه   ومن الهوى قلبى انكوى
ومالوش دوا
أما العزول ربى يحكّمنى فيه

★★★

تجرأ يوماً وسأل والده:

ـ لماذا نحب الملك؟

أجابه باقتضاب:

ـ لأنه ملك!

وسأل أحد الأولاد الذين يكبرونه، فجاءت إجابته وهى تعزف كالسكين المسنون على مشاعر حلمه الموجوع:

ـ الملك.. ملك.. صاحب كرامات.. وطيب!!..

أما والده، فقد قال فى لامبالاة:

ـ بعض البلهاء منا يتخيلونه الشخص المقدس، الخارق لقوانين الطبيعة!!

ضحك أحد أقاربه وقال:

ـ إنه مـثل البرمـيل المنتفخ فى أناقـة وذوق!! ثم لوّح الرجل بذراعـه ضارباً الهواء فى انفعال مفاجىء:

ـ إنه يأكل أكلات غذائية «مضغوطة»!!

اندهش من حديث الرجل: ـ ماذا تقصد!

رد عليه فى بلاهة:

ـ ربما هى إشاعة ضد الملك، فهم يؤكدون أنه يتناول عـشر حمامات وعشر دجاجات كعصير فى كوب واحد.. بالإضافة إلى دواء مقوٍ جنسياً!!

بعد دقائق ذهب إلى الجامع لصـلاة الجمعة، وأعلن **خطيب المسجد الكثير من الشعارات والفتاوى التى تبارك مولاه الملك حامى الديار المصرية!!**

اطمأن قلبــه، فمليكه رجل طيب، فأخرج من جـيبه المليم المرسوم علـيه صورته،

وقلبَه **وتذكر حلمه فى اقتحام قصره والبحث عن أسرار فى حجراته الكثيرة.**

★★★

عـاد إلى منزله.. وأدار مفـتـاح صندوقه السـحرى، وتـذكر الكلمـات عن الحب والمعاناة.. والوجع:

كنت أفتـــكر.. إنـــك وَفي
أتاريك تكـايدنى وتخـتـفى
وِفْ قـلبى نار.. لـم تنطـفى
أسرتنى بحلو اللســــان
فى مـحبةْ الشـكل الظـريف
قصدى حَسن.. حُبى شريف
عليًا أصدق قـولك ياخفيف
بعد اللى صار.. عايز ضمان

تساءل:

ـ أهذا هو الحب!!.. ولماذا يطلب المحب «ضمان» من محبوبه!!.

إنه يرى العصافـير تتعانق فى حرية مـع الفضاء من حولها.. ومع بعـضـها فى وداعة غير مشـروطة.. وتلقائية وبساطة، أما الكلمات التى يخرجـها من جوفه ذلك الصندوق السحرى، فأغلبها لا يفهم معانيها ويتوه فى غموضـها .. ولا يعرف كيف يفك رمـوزها، فلربما لأنه لم يعرف الحب!!، فـيعـود إلى « **حلمه**» لاقتـحام قـصر مولاه، ولكن صندوقه السحرى يفاجئه بغناء «**محمد أفندى أنور**»:

صبحت ذليل　　ودموعى تسيل
وليلى طـويل　　يا ام ابراهــيم
جنب النرجس　　تعالى نجلس　　أنا بدّى أستأنس　　يا أم ابراهيم

كان الصنـدوق السحرى هو أقـرب الأصدقـاء إليه.. ولكنه يخـرج ما بداخله للكبـار.. والصغـار.. وهو يحبـه.. لأنه يحب لغة الإيقـاع فى الطقاطيق والأغـانى.. وحتى **فى وجع المواويل**، فبدأ يبحث عن وسيلة للعبـور إلى شىء يفهمه ويتفاعل معه من خلال لغة من هُم فى مثل عمره، **فاجتهد فى بناء «عشة» خشبية لتربية حـمام الغـيـة وتدريبـه على المراسلة،** وقـد تحقق لـه ذلك، وكان يومـياً يكتب

الرسائل الموجهة إلى المجهول، فيحملها الحمام، ويحط بها إلى أى عنوان يجده فى طريق طيرانه دون أن يُعلن عنه.. **وداثماً يختم رسائله المبهمة بتوقيع: شخص ما يبحث عن «الحلم».. ويطلب المساعدة!!..**

وظل لأيام كثيرة ينتظر من يساعده، **ولكن.. لا أحد**.. وتخيل أن الجميع قد فقدوا لغة «**الحلم**».. ويتعاملون مع الواقع من خلال منظور آخر غير الذى ينظر منه لحياته وما حوله.. ولم يدرك ـ وقتها ـ **أن كل الكبار ومن يكبرونه، يملكون القدرة على الخداع**، واكتشف أن زملاء عمره كانوا يطيّرون «حمامهم» لكى يعود ـ بعد الإغراء ـ بعدد من الحمام والحمامات العبيطة، فيزيدون، رصيدهم. ثم بعد ذلك يبيعون الفائض منه الذى لايحتاجونه.

الحمام.. مثله، يقع فى المصيدة، فقد كان أيضاً يملك حلماً، ولكنه « **محاصر**» بفهلوة تجارب غيره، ولا يملك الحرية فى حماية أى حمامة صغيرة ضعيفة!!

وبينما هو فوق سطح منزله، متعجباً من طيران «حمامه» المحمل برسائله التى تبحث عن «عنوان»، كان هذا الحمام لا يعود إليه مرة ثانية، فتصيبه **الدهشة** التى يلملمها صندوقه السحرى وهو يعبر عن حالته:

نـــاح الحمـــام ويا اليمام زاد الهـــيام والعقل سقيم
والنبى ما افتح خليك تنح ما انت فاضح ياواد يالئيـم

فشل فى استرداد «**حمامه**» الذى هاجر برسائله المحملة بحلمه إلى الفضاء الذى حوله، فقد **كان يتمنى أن تصل واحدة من رسائله إلى أى شخص يفهمه!!** ولذلك استسلم للاختيارات المطروحة أمامه دون أن يكون قادراً على الاستيعاب.. أو.. فك الرموز للتوصل للمعرفة، **فسقط فى زنازين الدهشة الملونة**، وربما يكون قد اكتشف عدم إمكانياتنا كبشر فى «برودة» أحلامنا، وكان لا يملك أى أدوات.. أو أفكار لعبوره من المأزق الذى وقع فيه، واختاره له كل من يكبرونه فى العمر!

فى سجنه الذى اختاره مرسوماً على خارطة « **خيبته**» فى أرض موعودة بالأحلام التى يتمناها ولا يراها.. ولا يطمئن لشاطىء يرسو عليه، اللهم إلا بمباركة مليكه ومولاه «**فاروق**»، فأخرج «**المليم**» المرسومة عليه صورته.. وأخذ « **يفركه**»، فلا صوت «**مليكه**» قد جاء.. ولا « **حلمه**» قد وجد مخرجاً من الكابوس الذى يعيشه، فارتمى فى حضن موشح «**محمد عثمان**» :

أتانى زمانى بما أرتضى فبالله يادهر لا تنقضى

يشعـر بالعجز والحـيرة وهو يحاول تصــوير حارته، **حيث كانـت الحيوانات متـحمســة ـ غصب عنها ـ فى الذهاب إلـى الحقل فى نفس حمـاسة التلامـيذ،** ولكن ما كـان يضايقه أن هذه الحيـوانات بعد عودتها لاتعـمل.. ولا تذاكر الدروس ولاتفتح أى كتاب، فتســترخى فى الدور الأرضى فى منازل الفلاحين، أما هو فلابد من مراجعة ما أخذه فى المدرســة، وحل الواجب.. وأيضاً المساعدة فى المنزل بشراء ما تطلبه منه أمه.

كان أطيب ما فى حارته، حصولهم على «**اللبن**» الساخن الذى كان يبيعونه لهم فى الصباح المبـكر مجموعة الفـلاحين. وكان الألذ، المشاهدة الحيـة وهم يداعبون البقرة، مرة بحنية وتدليعها ببـعض الهمهمات.. ومرة بسرعة فينزل **اللبن** فائراً من «**البزّ**»، الذى تخيله دائماً مثل الحنفيــة المنفوخة. أحياناً.. راودته فكرة لا يعرف إن كانت فكرة غبية أم فكرة سليمة، **وهى أن تلك البقرات كانت «تتبول» مثله.. هو «يتبول» ماء، وهى أن تبول «لبناً».**

منذ ذلك الوقت.. كره **اللبن** وطعمه ولونه، وخصوصاً عندما يبدأ «**فورانه**» على النار.

كان يشاهد من شرفـته الخشبية أحد البيوت الثـلاثة، من بيوت الفلاحين، كانت واحدة قـد تزوجت ابن أحدهـم منذ شهـور، كانت فى الثـالثة عـشرة من عمـرها، وكانت طيـبة مثل عنقود العنب الراقـد على فرع زاهى اللون، وكان اسمـها «ليلى» وكان بعض النسوة يطلقن علـيها: «ليلى البجحة».. أمـا الصبيان فقد أجـمعوا على تسميتها بـ«**ليلى الحلوة**».. أم عيون «**قتّالة**».

كـانت بينه وبينها لغـة حـوارية صامـتة، وعلى الأخص من جـانبه، فـقد كـان يشاهدها من خلـف شيش شبـاكه خلسة وهى تخلع عنهـا ملابســها التى فى لون قشـر الرمان، **وطالما تمنى أن يلمس صـدرها، فالرمـانتان دائمـاً تحاولان أن «تفطّا» للخروج من حبسها،** وأحياناً كان يتخـيل إحدى «الرمانتين» وقد تدألجت على الأرض فتصطدم به، فيمسكها محاولاً تقشيرها والتلذذ بذوبانها اللاسع تحت لسانه.. وتحت حركة أسنانه المهيأة «**للهرس**»..، ولكن سرعان ما يفيق على صوت أمه تناديه، فيذهب إليها.. ثم يعود إلى موقعه خلف شيش الشباك للمراقبة اللاهثة.

«**ليلى**».. تتحرك فى سريرها النحاسى العالى، ثم تهرول فى اتجاه **الصندوق السحرى**، فتديره، فيعلو صوته، وها هو «**زكريا أحمد**» فى لحنه الباكى، الذى يغنيه «**صالح عبدالحى**»:

ما هو انت اللى جايبُه لروحك بإيديك
ياقلبى.. وتشكى الغرام بسّ ليه
هويت من هواك.. ما حدش غواك
رجعت انكويت.. وادى انت انتهيت
وبرضك بتهوى وإيه راح يفيدك
بتتعب فى رُوحك.. عليك من دا بإيه

لا ينكر انفجار قلبه وهو يتفرج على «**ليلى**»، ولكنه كان دائماً يخاف أن تؤثر على حلمه الغامض بدخول قصر عابدين، **والبحث فى حجراته عن سر لا يعرفه؟!**

★★★

هرب النوم من عينيه وطرده خارج فراشه، فتسلل فى هدوء إلى سطوح منزله.. فانزعجت «**الفراخ**» من وجوده، فهرول داخل عشتها الخشبية، فرأى من الفتحات الخشبية هلالاً مثل نصف رغيف الخبز المغموس برائحة عرق الجوعى وتعب المرهقين والسهرانين، فوضع يده تحت ذقنه واختلس الرؤية، فحدد اتجاه عينيه ناحية شباك «**ليلى**». كانت حجرتها مظلمة، ولكن **صندوقها السحرى**، كان متحشرجاً بصوت يحلم - من خلال صاحبه - بأى يد تجذبه ناحية أى حضن فى اتجاه الحنان:

«من بعد ما جافانى النوم.. أروح لمين قولولى»؟!

إنها تتساءل..

وهو أيضاً يتساءل..

والصندوق السحرى يتساءل فى حيرة فى غناء المطرب «**محمد عبدالمطلب**».

يا عاشقه الليل وسهرانه وهايمه فى الخيال ياعين
أهاتى فى قلبى حيرانه.. مش عارف أقولها لمين!

أحس أن «**ليلى**» تسأل عن «**بختها**»، فجاوبها **الصندوق السحرى** بكلمات

«محمد على أحمد» ولحن «أحمد صدقى» وغناء «شهر زاد»:

سألت ع البخت فين   قالوا تلاقيه موجود
قلت يروحوله منين   إحكى يامــــوعود

لا يعرف إن كانت «ليلى» تقصده فى تشويقه أو الحصول على محبته وقلبه من خلال **صندوقها السحرى**.. أم هى تحب الغناء الذى تحاول به الهروب من حجرتها ومن وحدتها مثل « **بقراتها**» الكبيرة التى تملكها أسرة زوجها أسفل منزلهم، **أم هى تقصد مداعبته مثل خروف صغير تستمتع به وهو غارق فى دهشة لاتنتهى.**

عندما لم يتوصل إلى أى إجابة **أغلق على تساؤلاته باب عجزه!!**

فى اليوم التالى، تأكد أنها تحاول إغاظته.. أو إثارته، فرآها تزيح ستارة شباكها، وفى نفس الوقت، انطلق **صندوقها السحرى** بالغناء بكلمات كانت «**توجعه**» وكان يشعر بها مثل سكينة تقطيع البصل التى تستخدمها أمه:

يامحلا رمان صدرُه
فتّشت الجناين
صغيّر وحلو ومتدلع
وبحبُه.. شاغلنا

كان الذى يغنى هذه «الطقطوقة»، شخص اسمه «**محمد أفندى عوض العربى**»، هكذا أعلن **الصندوق السحرى** عن هويته:

ما حدش فى حُبه انشبك باختياره

★★★

يعترف بأنه فى عصر يوم شديد الحرارة، لم يعجبه مزاجه، فصنع كوباً من الشاى على وابور الجاز الذى أشعله بصعوبة، وصعد إلى سطوح منزله بجوار عشة الفراخ والأرانب، والحمام وشعر بصوت يداعب أذنيه قادماً من الصندوق السحرى مثل المطر.. صوت مبلل بالماء.. الكلمات مثل الوجع المرعوش..، إنه صوت «**خيرية يوسف**»، التى تحاول إطفاء نارها:

عود يازمان الصفا واسعد ليالينا

شوف مين بوعده وفا.. ومين غدر بينا
من بعد طيب المنى ضاعت أمانينا
ليه الحبيب يازمان لايف على غيرى
قلب الحبيب ياترى بيحب مين فينا

جلس يتأمل فى حارته.. إنها مثل الدائرة الصغيرة، أمام منزله.. تتوسط ثلاثة بيوت فسيحة تملكها أسرة من الفلاحين، فى أسفلها كانوا يحتفظون بعدد لا بأس به من الجاموس والبقر ومجموعة كبيرة من الحمير، **وعدد من الكلاب عديمة الذوق**، والتى لم تتعود على الألفة مع البنى آدمين الكبار أو الصغار الذين يسكنون الحارة، ففى الليل، كانت تلك الكلاب تنطلق وقد ركبتها كل عفاريت النباح، فويل للذين يعودون إلى منازلهم بعد الغروب!

فى الصباح، كان يتلذذ فى دهشة عبيطة من المشاهد المتكررة.يومياً وهو يشاهد الجاموس والبقر وسرب الكلاب وهى فى طابور متحرك للذهاب إلى الحقل، وسأل نفسه متعجباً:

ـ يذهب التلاميذ إلى المدرسة.. والحيوانات إلى الحقول.

لاينكر أنه كان يكبر فى الرؤية مع قليل من « **غلوشه**» تعرقل أفكاره حيث لم يكن قادراً على فهم أغلب ما يدور من حوله وما يحيط به، ومعانى **الصندوق السحرى** تهاجمه، فتزيد من أشجانه، فهو يدرك أن الأشياء من حوله تتغير.. وبعضها ينمو ويتطور.. المشاعر والسلوك، ولكنه يتعجب لحالة الإنسان الذى يعشق السكن فى حلم بلا شطآن.. ومرارة تُبروز القلوب.. فيصيبها العطب وتظل تنتظر يداً حنونة قد يكون لها مفعول السحر فى المداواة.. والتطبيب!

لايزال **الصندوق السحرى** يحاصره بتعبيراته:

أسمر كوانى بحبّه وانشبك قلبى بقلبه!

معان لايفهمها لأنه لم يجربها، ولكنه يستشعرها، **فيهرب منها إلى حلمه فى اقتحام قصر عابدين** والبحث فى حجراته عن سر لايعرفه!!

انفجرت ماسورة حيرته، فغرق في بحار حلمه الذى يؤرقه؛ فحاول أن يجرب فكرة «الاقتحام» لأى مكان آخر غير قصر مولاه، فتسلل ليلاً إلى بيت«**ليلى**»، وهو يحاول تجنب الكلاب ونباحها.. وحمل فى يده «حلة» نحاسية صغيرة.. وفى يده

الأخرى عـصا طويلة.. «الحلة» للتـمويه ـ إذا ضُـبط متلبسـاً ـ بأنه يريد رطلاً من اللبن لأمه.

عبـر فى خفة النحلة الدور الأرض بحـيواناته وسكانه وعتـمته الشـديدة، حيث وصل إلى الدور الثانى الذى كـان يسكنه الشيخ « **متولى**» أحد كبـار الفلاحين من التجار، كان منفوخ البطن كامرأة حامل فى شـهرها السابع.. وكان كثيف الحاجبين اللذين يشبهان «**لوفة**» الحمام الخشنة، بشاربه المتفرع من نفس نوع حاجبيه. وهو يقترب مـن باب شقة «**ليلى**».. كان الصنـدوق السحرى يخـرج من جوفـه صوت المغنى الناعم فى أدائه، «**محمد أفندى أنور**»:

كونى قريبه من قرايبك وحاسبى من الضحك شويّه!

كان باب حـجرتها «مواربا».. وصـوتها يتقـافز مثل الفـراشة مرحبـاً بالقادم.. **وكأنها كانت تنتظر من لا يأتى، فأتى!!**

صدمـه صوتها وترحـيبها بقـدومه، **فضاعت منـه المفاجأة** وفكرة الاقتـحام، فانزلقت قدمه.. **ووقع متكوراً داخل جلباب خوفه**، بينما انفجرت «ليلى» بضحكة ساخنة.. ووجد نفسه وجها لوجه أمامها وهى ترتدى قميصاً شفافاً «**بمبى**» اللون فى مـثل لون ورائحة قـشر الرمـان الناضـج.. **وفجـأة، انكمش قمـيصـها لأعلى ولايعرف إن كـان هذا بفعل هجـمة هوائيـة قادمة من الشـباك.. أم من فـعلها هى..**

سجلت عدسة عينيه الموقف بسرعة. **كان ما بعد ركبتيها لأعلى يشبه الفاكهة ذات اللون الوردى الذى يتناغم مع حركة ضوء الحجرة.**

تعلقت عيناه برقبتها التى تشبه «كوز» الفضة الذى يعكس مشاعر مدفونة على مـرايا الموقف، ثم رسم لهـا صورة بمخـيلته، فـهى امـرأة مثل «المرتبـة» الصغيـرة الطريّـة، ولها رائحة الاشتياق، وحـاول فى جرأة وليدة اللحظة أن يلمس «كوز» الفضة، ويضع رأسه وجـسده كله على «المرتبة» الطرية، فصدر من داخلها ما يشبـه التوسل بطلب التريث وعدم الانفعال السريع للاسـتمتاع بصدفـة ما قد يحدث.. فكل مـا هو «انفعال سريع»، ينتـهى إلى لحظة ندم قد تكون طويلة وقد تستمر إلى الأبد.

غرق فى حلم ملون مـثل ألوان قوس قزح ورائحة جمـيع نباتات الأرض، وعلى

الأخص طعم ورائحة الـفلفل الحار.. وكان للحلم ذراعـان دافئـاتان.. ورائحة لذة رطبة تتـوالد من جذور الأرض.. وكان النسـيم المتحرك فى بطء فراشـة تائهة، يبارك لذة الاحتكاك، ويحاول تبديد رهبة الموقف الذى لم يستمر طويلاً، حيث أفاق على صـوتها الملون بكل ألوان الحرمان الرمـادية وبكل مشتقـاتها.. وكل الألوان الساخـنة المشتعلة فـى «بلتّة» فنان تشكيلى مـثل لوحات «جـوجان» الذى هرب من المدنية ذات يوم.. واختـار الغابات والعودة إلى الطبيـعة، حيث الحب المكشوف.. والجنس الذى لا يعرف القوانين ويرفضها.

انتبـه إلى صوتهـا الذى كان قد اسـتقـر فى يديها اللتـين أمسكتـا برأسه وهى تحاول إيقاف لحظات خوفه وهى تقول:

ـ ياصغيرّ يا أد «البلحة» الأبريمى الجافة.. أنا.. باموت فيك!!

عرف باليقين أنها كـانت تعلم بتلصصه عليها من خلف شباكـه.. وعاتبته والدم يغلى فى عـروقها.. ويفـور، تماماً مثلمـا كان أهل زوجـها « يحلبون» حيـواناتهم للحصول على أكبر كمّ من «اللبن»!!.. ولذلك كانت معـاناته شديدة الألم.. وكثيرة المفاجأة فى ملمسها وفى طعمها!

بين كنوز فضتـها التى تبرق.. وعطرها الوردى..وقميـصها «البنبى»، أحب الاسترخاء على حركـة نسيم شفتيها.. ولهاث نبض نهـديها.. وغرور جسدها الطرى الذى لم يتعرض للجفاف وعوامل «الكرمشة»!

كان خـائفـاً مثل فـأر وقع فى المصيـدة، وهذا ما جـعله لا يستطعـم مذاق وحلاوة السكر والملح؟!

رجـــــــــعت تشكى
لما الهـــــــوى ذلّك
يا مــا نصحــتك كـتيـر
،غلبت أقــــــولك

غناء

أحمد عبدالقادر

براءة بكرية!

يحاول «استطعام» السكر والملح فى رائحتها وأنفاسها وحركاتها.. **ولكنه خائف مثل ذكر البط عندما يشم رائحة جنسية مجهولة المصدر.**

كان لايزال ممطياً الجسد «**المرتبة**»، يدغدغ حواسه بلذة لم يعرفها من قبل.. ولكنها لا تصل إلى ذروتها، فرفسته «**ليلى**» لإسقاطه من فوقها وهى تتوجه إلى **الصندوق السحرى** الذى انطلق بآهات شديدة فى «حرقتها» وجميلة فى معانيها لغنية اسمها «**سنية على**»: كانت من الممكن أن تزاحم «**أم كلثوم**»:

تنهى وتؤمر على كيفـــك   ومـين يخـــالف أحكامك
ياريتنى بس أشـوف طيفك   وأشـــكى نارك ودلالك
وجـــرح قـــلبى بلحظك   ما أســلاش غـــرامك
على أدّ شوقى وتعذيبى

عادت إلى حضنه الصغير.. وهى تكرر حوارها معه من خلال عفاريت الصندوق السحرى:

«عاهدنى.. إفتكر وخلاص سلمت..عاهدنى.. أنا أدّك.. عاهدتنى من غير داعى.. توعد وتخلف آه فى وعدك.. والهجر عندك وتراعى.. علشانك إنت بكمالك.. ما اسلاش غرامك.. على أدّ شوقى وتعذيبى.. جرحتنى بسهم عيونك.. والجرح يشفع لوصالك.. إيه اللى كان بينى وبينك.. جاوب.. ياللى شاغلنى!»

لايعرف كيف يجاوب «ليلى» التى **اعتمدت فى حوارها على الصوت القادم من الصندوق، وكأنه القاضى الذى اختارته ليقف معها** فى مشوارها الصادق، فهى لاتعرف معنى «**الكذبة**» أبداً.. مثل نباتات الصحراء العطشانة التى ترفض «**امتصاص**» مياه غيرها أو من سبقوها فى الوصول إلى أرض الحلم!!

استمر صندوقها السحرى متوجعاً فى موّال حارق للمغنى «**أحمد عبدالقادر**»:

رجعت تشكى ياقلبى لما الهوى ذلّك
ياما نصحتك كتير.. وغلبت.. أنا أقولك

هو يحب الإيقاع وركوب أجنحة فراشات الموسيقى.. و«**ليلى**» قد تخلت عن صبرها وهدوئها ودعوتها للتريث ومحاولة الانسجام لحظة بلحظة مع الموقف، ولذلك. فوجىء بها تجذبه من طرف جلبابه القريب من مسطح قفاه وهى فى حالة غضب وهياج تحاول إخفاءه للحظات:

ـ «فزّ» ياصغيّر.. مالك!!.. زى ما يكون عندك «دوخة»!!.. إنت جعان ولاّ إيه.. ياكبدى عليك!!.

وفى شهامة قامت واختفت لدقائق، حيث كان **الصندوق السحرى** يطلق الأصوات من جوفه من كلمات «**عبدالعزيز سلام**» للسيدة «**نجاة على**»، صاحبة شجن له خصوصيته.. وعلاماته المميزة فى مشوار الغناء العربى:

ياللى جمالك سحرنى.. وسحره أشجانى
خايف أبوح لك بحبى.. تزيد فى أشجانى
وتسوق عليّا الدلال.. وأبقى أنا الجانى
على الفؤاد اللى حبك من بهاك ياجميل

من يوم ما شفتك.. وطيفك فى المنام جانى

عادت «**ليلى**» مهرولة .. ووضعت «**الطبلية**» الخشبية، التى لم يتعرف عليها فى الواقع أبداً.. ولا حتى فى تشريفته لمولاه بما عليها من الحمام المحشو.. و«**البط**» الذى يرفع قدميه لأعلى بعدما تم إدخاله فى «**مراحل الشواء**».. و«**حلة ملوخية**» لها رائحة جذابة.. ومذاقا، فتوجس.. خائفاً من مجىء زوجها فيفسد هذه الوليمة، وقد قرأت «**ليلى**» ما يدور فى عقله، فحاولت تبديد خوفه قائلة:

ـ لا تخف.. لن يعود قبل سبعة أيام، فقد ذهب لبيع وشراء المواشى فى صعيد مصر، فى أسيوط!!..، ثم أطلقت ضحكة لها طعم نشوة الجنون وعدم اللامبالاة.. والانتماء إلى حضن اللحظة، حضنه الصغير الذى كان حلمها، **بينما كان حلمه قد اتجه ـ هرباً ـ من فكرة اقتحام قصر مولاه!**

كان مدركاً أن تواجده فى شقة «**ليلى**»، هو نوع من المغامرة العفوية التى كان يجرب من خلالها عملية «**الاقتحام**» كتجربة قد تساعده فى اقتحام **قصر مولاه.. والبحث فى حجراته عن سر لايعرفه!!**

★★★

هو.. لايزال مستلقياً على «**المرتبة**» الطرية، على جسد «**ليلى**» الذى كان يحاول ملاعبته بالكلمات:

بستان جمالك من حُسنه　　أبهى وأجمل بستان
وإن ماس قوامك على غصنه　　يعلّم البلبل ألحان

إنه «**صالح عبدالحى**» بدلعه« **النسوانى**».. وشجنه الذى لا تحسه أبداً، وأنت واقع تحت أى تأثيرات أخرى!

أفاق على صوت «**ليلى**» وهى «تزغده» فى حريق مشتعل فى حديثها المضغوط مثل قنبلة موقوتة:

ـ أنا الذى لم أذهب لأى مدرسة.. أفهم أكثر منك..، فلتستمع يا «عيل».. يا «تافه».. ياغبى..، اسمع:

ضمّة العود
على النهود　　حضاينهم

قـلبى مـال
لعشـق الجمـال
قصدى الوصال   خصايلهم

كانت تحاول **استفزاز مشاعره**، ولم يجد مفراً من الاستسلام للبنت «**ليلى**»، وأيضاً لصوت «**محمد أفندى أنور**»، فأحس بالتوهة والغربة.. **وأنه مثل «سمكة ميتة» تكره ملوحة التجمد والتحنيط!!**

كانت كل أنواع الدلع والتدليل والاستجداء، تملأ حجرتها.. ولكنه كان دائماً يغرق فى مساحات شاسعة من الشك والتوجس.. والحيطة، وكان بالفعل محبوساً فى مساحة ضيقة من خوفه الذى يحاصره!!.. فماذا لو جاء زوجها الشيخ وشاهده!!

إن «**ليلى**» منفعلة جداً..
لا تريد إعطاءه أى مساحة للاطمئنان أبداً.

أيضا هو الجائع.. وأمامه ما لذ وطاب. وهى لا تحاول منحه الوقت للتلذذ مما صنعته من طعام خصوصى له، فقد **كانت يداها مثل المنقبين عن الآثار فى بحر من الرمال**، وأيضاً كانت تتحرك فى حركة « **مسموعة**».. لها حفيف الوجع.. ولها «**نباح**» كلب مسعور، **وقد كان كل ما تحاول ممارسته، هو نفس ما يفعله أهل زوجها لاستحلاب الحيوانات التى يملكونها، لاستدرار اللبن فى سخونته وفورانه.**

كانت تتلوى كالموجوعة التى تبحث عن طبيّب يطيب وجعها، فسألها:
ـ مالك؟!..

كانت إجابتها حركة عنيفة.. رفست بقدميها جسده النحيل، وقلبت «الطبلية» وما عليها من طعام وهى تلهث بصوت ملسوع بالصهد، فلم تخرج الكلمات وكأنها أصيبت بالخرس **ثم استرخت وكأنها لوح من الخشب المبلل بمطر شتوى مفاجىء.**

انزلق هابطاً حاملاً «عصاه» وفى يده الأخرى «الحلة» النحاسية الفارغة، أدواته فى «الاقتحام» الذى كان قد خطط له.. وعاد إلى منزله مثل نملة ولم يشعر به أحد.. ومن وراء شيش شباكه الخشبى رأى «**ليلى**» عارية وقد **تبدل لوح الخشب الذى**

كان قد تركه.. إلى غصن عار من الأوراق وكان لونها فى لون قشر الرمان وهى تداعب جسدها على طريقة القطط فى تنظيف نفسها، بينما كان صندوقها السحرى قد عاد إلى حيويته وكأن شيئاً لم يحدث:

شرّف حبيبى وآنس.

استند على سريره النحاسى، ثم انزلق فى فراشه الخشن فى ملمسه، متذكراً «ليلى» والنعومة.. وبريق الفضة.. ولون قشر الرمان الناضج بلونه المتميز المثير.. مستحضراً لقطات من استسلامه لها، لقد عاملته كما تعامل حيواناتها الأليفة من البقر والجاموس، ومع ذلك كان متلذذاً بما تفعله به فى ليلة من ليالى البهجة والأنس:

أتانى زمانى بما أرتضى   فبالله يادهر لاتنقضى
وياليلة الأنس دومى لنا   فإن الحبيب علينا رضى

تكرر تلصصه من خلف شباكه يومياً بعد غروب الشمس، وكان يراها فى حجرتها غزالة شاردة.. تتقافز فى المساحة الضيقة فى تمرد وعنف ثم تتنقل بعينيها على جسدها المسكون بشمس صيف دائمة، فيلسعها الاشتعال، وعندها تشعر بسخونة الجو، فيلسعها الاشتعال، فتحاول تخفيف الحريق الذى داخلها، فتسرع بخلع ملابسها الرقيقة وكأنها تقشر رمانة فى صحراء وحدتها، وتبدأ فى الدوران حول الأشياء المبعثرة فى حجرتها وهى تغنى بصوت عال وكأنها تقصده بغنائها:

أنا عاشقه وبيك مفتون
وصلك يا حلو.. إمتى يكون

وكاد ينسى حلمه فى اقتحام قصر مولاه.. والبحث فى حجراته عن سر لا يعرفه!

★★★

مستلقياً على ظهره، يرسم بعينيه علامات استفهام كثيرة على سقف الحجرة، فيتذكر تسريحة شعرها التى تشبه تسريحة شعر المغنية «ليلى مراد» ولها أحياناً نفس رقتها فى تقاطيع وجهها وعينيها عندما تكون فى حالة طبيعية بعيداً عن عفاريت العنف التى تتقمصها كثيراً، فيحاول الشكوى لها.. ومنها.. فلا يجد سوى

قلبه الحيران مثله، فيفيق على لحن للشيخ «**زكريا أحمد**» تغنيه «**ليلى مراد**» قادماً من جوف صندوقه السحرى:

حبيت ياقلبى وإيه رأيت   غير الأسيه والهوان
وبتشتكى ليه لما انكويت   ياما نهيتك من زمان

يلفه ضباب الوجع ويتوه فى دهاليز الحيرة.. ويحاول التحليق مع حكايات السندباد، فيجد نفسه قد سقط على أرض الواقع، فيتذكر ذلك الزمن.. كان لكل شىء فيه رائحة التميز.. الفرحة كان لها لونها وطعمها، تزورنا مثل نسائم الحرية.. **وكان للحزن تواجده العفوى بعيداً عن ظلال اللون الأسود المفضوح بالمجاملات.. أما الحب فلم يكن قد عرفه جيداً.. وكان يتخيله نوعاً من العطر الذى يذكره برائحة ثمار المانجو فور سقوطها من أغصانها**. أيضاً يتذكر أنه فى سبيل الحصول على ثمارالمانجو، كان يحتاج إلى مغامرة تحتم عليه السباحة فى مياه النيل فى اتجاه قصور البشوات التى كانت على الضفة الأخرى المسماة: «**منيل الروضة**» بالقرب من مقياس النيل القديم.

فجأة يفيق على أذان العشاء، فيهرول للصلاة فى المسجد الصغير، فيحس بالانتعاش، فيعود إلى كتبه لاستذكار دروسه فى همة ونشاط، ولكن فجأة.. كلما قلب صفحة، يجد صورة «**ليلى**» مطبوعة بألوان فاكهة الصيف ورائحة رطوبة تراب الأرض فى ساعة المغارب، فيقرر تكرار فكرة «الاقتحام» مرة أخرى لكى يُبطل مفعول لغم الحيرة الذى ينفجر فيه دون صوت!

تكررت المشاهد السابقة فى حجرتها.. ولهاثها مثل إناث القطط وخربشتها وموائها الذى كان يخيفه، ولكنه مع مرور الأيام، شعر بشىء فى جسده مثل الشمعة التى تملك قدرة الاشتعال بفعل احتكاك وسخونة لهب عود الكبريت دون اشتعال حقيقى.

كان يشتاق أن يجرب الحب.. فهو يبحث عنه.. ويتخيله من خلال صبيانية تفكيره، وفى حدود ما يسمع عنه دون أن يتذوقه، ومع ذلك كان يعتقد أنه يحب «**ليلى**» من خلال **الصندوق السحرى** الذى يطارده بالأغانى.. وها هو يذوب لحظات مع ألحان وغناء: «**الشيخ أحمد بن خليل القبانى الدمشقى**»:

ياللى خليت من الحب   حقك تلامسنى   أحسن أنا هوّه

تصبح جريح القلب وتحب صدقنى بالغصب والقوه
ما ارنساش أنا بالذل ولو تروح رُوحى حتى اسألوا عنّى
وسمعت لوم الكل والهجر زاد نُوحى وحبك مجنّنى
فى العشق قلبى داب والنوم شرد منى والصبر منى بان
هيّا كده الأحباب إسمح وواصلنى وارحم ياغصن البان

وكان دائم السؤال لنفسه:

- أين الرجل زوج «ليلى»..., أين ذهب وتركها مشتعلة بنيران لا تنطفىء أبداً!..

كان السؤال يطارده يومياً دون التوصل إلى إجابة!!

★★★

ذات يوم.. دعاه أحد زملائه الذين يكبرونه إلى أحد صناديق المتعة الضيقة فى شارع **«محمد على»**.. ولم يفهم أول ولا آخر لهذا الشارع الصاخب المختلف عن كل الشوارع التى يعرفها، فهى المرة الأولى التى يتواجد فى شارع مثله، وكان صديقه يمسك يده متحمساً فى اختراق حارات خلفية إلى أن وصلا إلى **«حارة اليهود»**، حيث كانت الرائحة مختلفة.. والوجوه.. وتعبيرات العيون، فلم يجد ما ينسيه ما هو فيه غير صوت **الصندوق السحرى** وهو يقدم المغنية **«نزهة»** فى لحن « **كامل الخلعى**»:

كان مالى فى حبك كان مالى أنا مالى خلينى فى حالى
وكمان تصاحب عزالى ياسيدى دنا حبى عزيز
يوم شفتك حبيتك خالص وسعيت لك بالوداد خالص
من تيهك قلبى مش خالص ياسيدى دنا حبى عزيز

عاد إلى التأمل فى الوجوه، بينما كان فى نفس الوقت قد دلف مع صديقه مكاناً رخيصاً طلباً للبهجة والانسجام.. كانت امرأة يهودية مليحة التقاطيع ذات شعر فاحم تغنى فى دلع زائد وهى تتقصع.. وتلاطف المتواجدين من الزبائن، كانت المرأة تغنى لحناً **لإبراهيم أفندى القبانى**:

ما كنت قلت ما تعشقشى أمّال جرالك إيه وعشقت
على هواك أنا ماقدرشى للى تحبه روح إن شئت

إياك بقى تبكى ولا كمان تشكى.. ياقلبه ليه ما بتوبشى .

تركه صديقه وذهب بإحدى الفتيات إلى ركن مظلم، بينما وجد نفسه بين أربع فتيات يتقاذفنه وكأنه لعبة صغيرة استهوتهن للعب بها، فانحبس تنفسه داخل صدره.. ولم يستنشق الهواء إلاَّ بعد عودة صديقه، فتعلق فى ذراعه وغادرا المكان، بينما كان يسمع صوتاً قادماً من **صندوق سحرى** عن بُعد فى لحن وغناء «**الشيخ محمد المسلوب**»:

ياللــــى بليـت بالهـوى   وصرت مغرم أســـير
خـــلى اصطـبارك دوا   حتى يهـون العســـير

حبيت أشــوف لــك ســبب   أبنــى عــليه الكلام
لكــن لقــيت الطــــلب   بعـيد وصـعب المـرام

★★★

كان كل ما حوله غريباً.. مثيراً لخياله.. ويتحرك داخل رؤياه الغريبة التى مثل القيد المفتوح الذى يُترك له حرية التصرف ولكنه فى نفس الوقت لايستطيع التحكم فى تصرفاته الجنونية، فهو يرى النخلة الطويلة بجوار مدرسته تلقى له بتحية الصباح كلما مرَّ من أسفلها.. فيرفع رأسه لها مبتسماً، محتفظاً بسرها فى قلبه الصغير.. وجدران مدرسته من الخارج، كان يخيل إليه أنه يراها مرسومة بنماذج من وجوه زملائه بألوان باهتة وهم يتثاءبون فى كسل.. **أما مدرس الحساب، فقد كان هو الوحيد المرسوم بخطوط هندسية مستقيمة، واضحة مثل عصاه الغليظة التى لا تفارقه فى كل حصصه.. أما ناظر المدرسة السمين، فكان يراه مرسوماً بألوان فوضوية ساخنة مثل لسعة شمس الظهيرة.**

لم يكن له أصدقاء فى المدرسة.. فكلهم نسخة واحدة من تصرفات واحدة.. وتعبيرات منسوخة مكررة فوق الوشوش، باستثناء «**إسماعيل**»، الذى كان يكبره فى السن.. ولا يحب المدرسين ولا المدرسة.. ودائم الشجار.. ويطلق على كل مدرس اسماً مضحكاً.

ذات يوم. حرّضه « **إسماعيل**» أثناء الفُسحة على القفز من فوق سور المدرسة، فلم يعارضه، ووجد نفسه يتشعلق فى «الترامواياتِ» ويراوغ الكمسارى.. **يهبط من**

ترمـواى الى آخر، حـتى وصل إلى حـديقة الأزبكيـة بعد رحلة «تنـطيط» كانت الأولى فى حياته.

اخترقا الحديقة إلى شارع محمد على.. وشاهد ما لم يشاهده مع زميله عندما أحضره إلى نفس الشارع، فـالمبانى مختلفة.. لها بوابات وأقواس متـداخلة كثيرة.. ونوعية عجيـبة من البشر.. أما رائحة المكان، فكانت تخترق أنفـه مثل لسعة الفلفل الحار.

بعد عبور بوابات وأقواس كـثيرة، رأى مشهداً عجيباً.. ذكّـره بطوابير التشريفة التى كان يقف فيها مع زمـلائه لتحية مولاه الملك «فاروق»، داعين له بطول البقاء.. ولكن ما يراه هنا تشريفـة من نوع آخر.. بلا تلاميذ، أو طرابيش، فالجـميع نساء وفتيات يقـفن أمام أبواب ملونة وبجوارهن عناوين وأسماء بالإنجليـزية و العربية بخط بدائى ردىء.. ويرتدين الملابس الشفـافة بألوانها المختلفـة.. ويتشدقن بمضغ اللبان..

فجأة.. أمسكه «إسماعيل» من قفاه، فتوقف مستـفهماً منه، فشاهده يتأمل فى شبق امرأة ذات صدر كبير تبـتسم له كأنها تناديه، فزجره آمراً أن يذهب لانتظاره على المقهى الذى أشار إليه بيده.. هامساً:

ـ اذهب بسرعة إلى هناك.. لن أتأخر!

كان أمراً لا يسـتطيع عصيـانه، فأعطاه ظهره، وعندما نظر خلفـه لم يجده ولم يجـد المرأة.. فاسـتند إلى الحـائط تحت إحدى البـوابات بجـوار المقهى وغـرق فى كوابيس من وجع الحيرة التى لازمته منذ لحظة القفز من فوق سور المدرسة، حتى وصوله إلى هذا المكان.. وظل للحظات محنطاً فى حيرته.. ولم يفق إلاّ على الصوت الخارج من الصندوق السحرى محملاً برائحة الجوافة.

يااللـى دُقت الحب واتلوع فـــؤادك من شـــجـــاه
والحبـيب خلاك تقاسى بعـد وصله وطول رضاه
والهــوى خـلاك خـــيـال.. والهــوى والذل طال
الحـبــيب بِدَه يشـوفك.. تـعـمل إيه لما يهــجـر
تنسى حُبه وحلو شهـده.. ونور عينيه ولاّ تصبر

كانت الكلمـات لمؤلف كبـير سمع اسـمه كثـيراً من خلال الصندوق السـحرى:

«حسين **المانسترلى**» أما اللحن والغناء فكان لـ : «**محمد أفندى صادق**».

تنهد.. وهمس لنفسه : « **اصبر**». ثم اعتدل فى وقفته مسنوداً على الحائط فى انتظار عودة صديقه « **إسماعيل**» الذى سرعان ما شاهده خارجاً من الباب الملون وهو يشد بنطلونه الشورت لأعلى، ويصلح شعره المنكوش، وفى نفس الوقت، كانت المرأة قد خرجت من نفس الباب وقد رسمت على وجهها ابتسامة لها نفس المعنى الذى قرأه مرات عديدة فى عيون «**ليلى**».

أفاق على مداعبة «**إسماعيل**» له بخبطة ثانية على قفاه قائلاً له بصوت متعب:

ـ لسه بدرى عليك يا«قصير التيلة» لكى تفهم!!

لم يرد عليه ولم يستطع توجيه أى سؤال أو استفسار، وعادا بنفس الطريقة المجانية من خلال الشعبطة فى الترامووايات..

فى طريق العودة إلى منزله، كان يحاول استرجاع حلمه فى اقتحام قصر عابدين.. للبحث عن سر داخل حجراته الكثيرة!

★★★

عندما كان ممدداً فى فراشه وهو يفكر فى كل شىء، أفاق على «بلحة» حمراء من النوع الزغلولى وقد اصطدمت بوجهه، فأصابته بالتوتر المفاجىء والغضب، وعرف أن الفاعل «**ليلى**»، فشباكه لا يبعد عن شباكها أكثر من ثلاثة أمتار ونصف، حيث يسهل التصويب بدقة.

انتفض واقفاً، شاهد النور «البنبى» منتحراً فى غرفتها، فغطس فى فراشه بسرعة حيث كان خائفاً ومتعباً، وفى تلك اللحظة فضّل نسيانها.. وقهر نفسه كمداً تحت الغطاء، فهذا أفضل الطرق للحصول على راحة قلبه المتعب!

فى مساء اليوم التالى، حاول استذكار دروسه على صوت **صندوقه السحرى**، حيث كانت تترنم الرقيقة «**ليلى مراد**» فى شكوى حزينة من ألحان «**عبده أفندى الحامولى**»:

فى البعد يا ما كنت أنوح والقلب ياما اتكلم على الحبيب
ومهجتى كادت تروح لكن لطف ربى وسلم أفرح واطيب
آنستنا يا نور العيون

بعد الغياب كان قلبى عليك!

قلب الصفحات فى مراجعة للتاريخ والجغرافيا.. ولكنه فشل فى رسم خارطة لوادى النيل.. كما فشل فى تحديد موقع مصر على خارطة أفريقيا.. وطارت من عقله كل الأسماء المشهورة التى كان لأصحابها بصمات واضحة و تواجد فى الزمن والحوادث والتاريخ.. وظل قلمه الحبر راقداً على ظهره وقد فقد الحركة والارتعاش فى مداعبة ملمس الورق.. أيضاً، استرخت الأقلام الملونة على جنبها فوق الخارطة التى لم تكتمل.

كان مزاجه مثل الترعة المليئة بالمياه الراكدة.. وقلبه صامتاً مثل ورقة بيضاء لم يكتشفها قلم.. وعقله مثل وابور الجاز الفارغ الذى لا يشعله عود الكبريت.. أما أصابعه، فقد أحس بها متضخمة من كثرة تحسس جسده فى أماكن كثيرة مثل شخص مريض بالجرب.. أو الحساسية.. فصرخ صرخة مكتومة منادياً على من ينقذه مما يعانيه، وهو فى إغماءة وجعه، أفاق على صوت «**خيرية يوسف**» فى لحن «**داوود حسنى**»، وأحس بها تعانى مثله:

أناجى طيفك بروحى ودموعى تترجّى فيكى
بزياده يكفينى افتضاحى لوكنت أصعب عليكى

يؤكد أن «**ليلى**» التى تكبره فى العمر، تحاول تجريده من حلمه الذى لاتعرفه، فهى لا تعرف فى حياتها غير حلمها الوحيد فى «التلامس» للوصول إلى المحطة التى تريدها.

كان يفكر فى إنهاء الواجب فى موضوع الإنشاء الاختيارى لمعرفة قدرة التلميذ على التخيل واختيار الألفاظ والصور فى تعبير ملائم.. فهل يكتب عن حلمه فى اقتحام قصر عابدين.. قصر **فاروق**!!.. لا.. لا.. ربما ظنه البعض جاسوساً، علاوة على أنه يعرف أن مولاه الملك سوف يغضب لو عرف بحلمه!!، ولذلك فكر أن يكون موضوع التعبير عن «**ليلى**» وعلاقته بها بعد تجربة «الاقتحام» المتكررة، ولكنه تراجع خوفاً من الفضيحة.. وفى نفس الوقت يراها قد منحته بعض عطور اللذة فى لحظات الاشتياق والتوهان. إذن.. فليكتب عن لوعته.. ولكن ما هى لوعته؟.. ومن أى شىء يعانى!!.. أيضاً كانت هذه الفكرة غير منطقية، فلم يتحمس لها.. وتوصل فى النهاية إلى الكتابة عن موضوع تشريفة التلاميذ فى استقبال مولاهم..

ولكنه وجـدها فكرة غبيــة، نهايتــها رغـيف خبز ملئ بــبعض قطع اللحم لإشــباع جوعه.. وملء معدة الفقراء من أمثاله.. وبعدها يتكرر الدعاء لمولاه بالخير والصحة وطول البقاء!! ، لذلك لم يتـحمس لكل أفكاره التى رآها غير منطقية وســخيفة، ولم ينقذه من تـقلباته فى حيـرته سوى صـوت المغنية «**سعاد زكى**» وهى تتلوع على وجع المعانى:

فـؤادى حُرّ.. مـا يرضاش خـضوعُـه
لغـيـر اللـه.. ولا يـنسـى الأسـيًـه
وحـين يُـشـفى.،، بيكـتم ضـلوعــه
نيــران حُـبــه لو كــانت قـــويه
عــزيز النفــس مايهـابشى دمـوعـه
ولا ترضى الهــوان نفـسـه الأبـيــه

لم يجـد أمامــه سوى تحمـل النار التى تحاول سلخــه مثل الأرانب التى كـانت تسلخهـا أمه بحرفـية مدهشــة، فأشعل وابور الجاز.. ووضـع المـاء فوقه استـعداد للاســتحـمام مع اســتـخدام صــابونة «**نابلسى فاروق**» التى كـانت أكثـر أنواع الصابون تميزاً فى وقتها.

ولأن اسم «**فاروق**» هو اسم مليكه المعظم، فقـد تذكر حلمه فى اقتحـام قصره فى محاولة للبحث فى حجراته عن سر لا يعرفه!

أحس أن «ليلى» مثل القطار البـدائى الذى يفرم كل من يقف على قضــبانه، فابتلع صدمة الخوف فى غيظ؟!

عـــيـــونك اللى الكحل ديلـهم
آه وخدودك اللى الورد حاديهم
وشـفايفـك اللى الشهـد لابسـهم
ونهـودك اللى السحـر طار منهم

غناء :
محمد العاشق

فاطمة

فى رحلة وجعه مع الصندوق السحرى، كان يعـيش الاستماع إلى مـغنية اسمها «نادرة».. صوتها عرفـه الناس وأحبوه.. وكان يشعر بأن صـوتها مثل «الحصيرة» القش التى تسمح لأى حلم فقير بالاسترخاء دون خوف:

راضى بصدودك.. ودلالك
مادمت باخطـــر على بالك

إيــه يعنى لما تعاندينى
وتبعـــدى.. وتفتكرينى
ياروحى بُعدك يرضينى
مادمت باخطر على بالك

إنه يخلق لنفسه لحظات درامية فيها الهـواجس كالموج يتقاذفه، فيعود لإلقاء مشاعره فى برمـيل عطشه الذى لا يعرف له علاجاً، متـمنياً الارتماء فى حضن دافىء.. والتقرب إلى من يسـند وجعه على كتفـيه.. أو مكان يحبه، ويشعـر فيه بالرضاء والرغبة فى دوام الاستمرار.. **ولكن ما يحبه لا يستجيب له.. والذى يحب معرفتـه يخاصمه ولا يأتيه.. والذى يتوصل إلى معـرفته، يفشل فى فك رموزه!!..** وهو فى نفس الوقت لا يزال يمـلك القدرة على كـتـمان أسـراره وهواجسه دون الكشف عنها لأى شخص.

★★★

أحس برائحة الهواء الطازج وهو يقرر نسيان «**ليلى**» وقد فكر فى هذا القرار فى محـاولة للخروج من أشـياء تبعـده عن الطمأنينة ولا تطفىء لهـيب عطشه، ويكفيه **صندوقه السحرى** والوقوع فى سيطرته، مع صوت يؤكد ما يدور فى رأسه من معانى بصوت «**صالح عبدالحى**»:

على روحـى أنا الجـانى
وقلبى فى الـهـوى الجـانى
وخِلى بالجفـا مغرم
ولـــو يـــرحـــم
لـكان.. جـــــانـى

كان دائمـاً يشعر بضـعفه أمـام الصندوق السحـرى وما يخرج من جـوفه. فيـشعر بأنه يـحمى نفسـه بالكلمات المغنّاة التى تخـرج منه ويحس أنه الشىء الوحيد القـادر على اختضانه بما يحـمله من أحلام كثيرة يـصعب على الآخرين التعاطف معها لأنهم لا يفهمونها!!، فقد قابل العديد من زملائه وأقاربه ولم يقرأ فى وجه أحدهم أى ملامح لتفسير حيرته.

ورغم قـراره بمحاولـة نسيـان «**ليلى**»، إلا أنه دون أن يدرى عـاد للتلصص عليها، حيث كانت حجرة نومـها لا تهدأ أبداً، فهى صاخبة بالمزيكا والغناء.. وها هو **صندوقها السحرى** يوجه رسالة خاصة له:

القلب مـا صـعبـشى عليـه أسـرُه
صــعب علـيـــا لوم العـــوازل

واللى عـشق ياناس طول عـمـره
يبـات يقـاسـى ودمـعـه.. همـايل
والحب مـــهـــمـــا طال هـجـرُه
يجـرى عليـه قلـبى ويتـحـــايل

يخيل إليه أن «**ليلى**» قادرة على أشيـاء فشل هو فى اكتشافهـا، فهى امرأة قادرة علـى تغليف نفسـها بسلوفـان غامض داخل علب ملونة بألوان سـاخنة، وتبـحث عن رسـام لكى يزيد من تلوينهـا بمشـاعـر لهـا خـصوصـيـة لحظة الاشتياق!!.. وليست بمشاعر تحلّق فى أجواء الأحلام الرقيقة الطيبة التى يعرف كـيف يتذوقـها عندمـا يكون بمفـرده وفى حالة تأمـل فيـما حـوله، وفى نفس الوقت.. كان يشعر أنه ـ أحياناً ـ مثلهـا فى مواجهة خط نار الأحلام المستحيلة التى يجد نفسه غيـر خاسر.. وغير منتصر، فتعتـصره تلك اللحظة كعود قصب هزيل، فلا يعـرف كيف يهرب.. أو من يقـتلعه من أرض الحيـرة، ثم يعود إلى تساؤلاته عن الحب:

ـ **هل هو سـبب ما يعانى مـن لوعة!!**.. ولماذا يكون فى الإحـساس بالحب نوع من الجوع والمذلة كمـا يؤكد هذا المعنى **الصندوق السحرى** فى الكلمات التى يخرجـها من جوفـه على صوت الآلات الموسيـقية، والذى أصـبح المساهم الأول فى تكوين مـشـاعـره يومـيـاً، وفى نفس الوقت كـان يصطدم بمعـان لا يعرفها.. ولكن الأكيد الذى يعرفه أنه غارق فى الحب.. وتساءل:

ـ أى حب!!.. هل هو بالوصف الذى يـتغنى به فى مـوال حـزين المغنى «حسن الحلوانى»:

الحب مين يـقـــدر يمانعُـــه
مـدام يكون طاهر.. مصـون
واللى مـا يملكشى عواطفـه
تكتـــر حـــواليـــه الـظنون

لذلك .. فهو واقع تحت سيطرة **الصندوق السحرى** ولا يستطيع الفكاك إلاّ ـ فقط ـ إلى حلمه فى اقتحام مولاه **الملك فاروق**، والبحث فى حجراته عن سر لا يعرفه!!

أفاق على صوت قادم من الصندوق وهو يمتدح الأمير «**عمر طوسون**» الذى

لم يكن قد سمع به من قبل.. كانت الأغنية نوع من المديح، كلماتها سطحية وغبية لمؤلف اسمه «عيد أفندى عبدالرحمن» وللحن اسمه «الحاج سرور»!

لو أشكر جمالك .. لا شكر على واجب

إنت اللى مجن.. وانت اللى عاجب

أبلج.. أفلج.. أدعج.. أزج..

مقرون حواجب!

أصابه الانزعاج .. وكره المؤلف والملحن وكذلك الأمير الذى عرف أنه أحد أفراد الأسرة المالكة فيما بعد، فعاتب مليكه بينه وبين نفسه على تذوق المداحين الذين يمدحون أفراد أسرته.

★★★

فى الجانب الآخر من حارته، كانت تسكن أسرة «خليل أفندى عبدالرحمن» فى منزل من دورين وسطوح. وكان البيت أسفله «قبو» يعيش فيه رجل عجوز، ربما كان قريباً لأهل البيت، كان اسمه «مدبولى» وكان «أحمد» هو الابن الذكر الأوحد فى أسرة «خليل أفندى عبدالرحمن».

كان أطفال الحارة - بما فيهم هو - يحبون الرجل العجوز، ويتادونه بالشيخ «مدبولى»، فهو يقدم هداياه القيّمة التى كانت عبارة عن «ملبسه».. أو «بلحة أبريمى».. أو نصف بسكويتة مدهونة بالشيكولاتة.. أو قطعة «عجوة» ورغم هداياه كان يحصل على الثمن بملاطفته وشكواه، فيعطيه الجميع أنصاف «ملاليمهم».

كان «قبو» الشيخ «مدبولى» قليل الإضاءة.. وحيطانه مدهونة بلون يشبه لون القطة الجربانة ورائحتها العفنة، وكان عندما يمشى، كأنه يزحف على يديه من شدة ضخامته وانتفاخ جسده، ودائماً كان «يفرقط» حنانه ويوزعه لمساعدة فقراء الحارة وعلى الأخص النسوة الأرامل.

كان «لأحمد خليل عبدالرحمن» أخت اسمها «فاطمة».. لها ضفائر متموجة على كتفيها.. أحياناً تنام فوق بروز صدرها الصغير، فيظهر وجهها المدور كأنه القمر فى اكتماله، وعيناها العسليتان صامتتان.. تخفيان رغبة ما.. أما فمها عندما تضحك، فإنه يحفر نغازتين متحركتين مثل مركب صغير يتألق على لون

خديها.

كان كلما رآها تتذكر عروسة المولد. ولكنه لم يتعرف جيداً عليها، فهى تفتقد جاذبية ولهاث «ليلى».. ورعونتها وهياجها الحيوانى، وهدوءها الصامت وهو يراها فى زيها المدرسى كل صباح، هذا المشهد كان يزيل عنه توتره.

كانت صورة «فاطمة» تقتحم لحظات من حياته دون أن يدرى، وكان يخيل إليه أنه يذوب مثل قالب السكر، فيعالج وجعه بالكلمات، فتذكر مرة أخرى موال المغنى «حسن اللوانى»:

الحب مين يقدر يمانعه
مادام يكون طاهر مصون

فى العصارى والمغربية، كان يشعر بأن «فاطمة» مثل عربة الرش التى يجرها حصان متعب لكى تطفىء النار المشتعلة بفعل «ليلى»، فيشعر بأحاسيس تكهرب قلبه:

فى قلبى من جوّه رسمك
وعيونى مافيهاش غير شكلك
ولسانى بيكرر اسمك
اسمحيلى مرّه.. بوصلك

إنها الشكوى التى ترد على تساؤلاته، فى تأوهات غنائية للمغنى «إبراهيم عثمان».

وقف مفتشاً فى جيوبه الفارغة، حاول لو أمكنه استخراج قلبه من مكانه لكى يرد له اللوم على ما يفعله به، ولكن الصندوق السحرى، كان قد عبّر بعض الشىء عنه:

ياللى تلومنى ونا مجروح
ابعد كلامك عنى وروح
إن كنت عازل ولاّ نصوح
دا حبيبى مايهونشى عليا

ملّس على شباكه الخشبى. وكأنه يُملّس على جسد «ليلى».. فقتح الشباك،

ورأى حـجـرتهـا ترقص على الإضـاءة «البنبى» وجـاءته رسـالة خـاصـة من صندوقها السحرى:

كل سـاعـه دلـع وخـصـام
قلـبى صـــبح كلـه أوهام
وجسمى ما يتحمل دى النار
لكن دا كله ف حُـبـه شـويّه

قرر التمـرد، واشتاق لهزيمة نفسه.. والانـتقام من هوسه .. وتفجيـر دماغه لكى تصمت المشاعر قليلاً، وتتوقف تدفقات منابع الإحساس التى تؤرقه:

هوّه الـغـــرام.. ذل وهوان
يا قلبى وايش بعـد الأسيّـه
طلع الزمـان مـالوش أمـان
خلىً الحـبـيب ناره قـويّه

إلى من يلجأ لكى يشرح حاله وأحواله، وضـياعه فى نار غرامه، وقلبه الذى وقع أسيراً للسهاد والسهر، إنه يعرف أن طول البعاد.. يزيد من الآلام!

يعترف.. ولا ينكر.

يريد أن يخرج بحلمه من سجن الشجن الذى يوجعه!

يتحشـرج الصوت الخارج من **الصندوق السحرى**، وكأنه يبكى مع المغنية «**رجاء**» فى لحن للمزيكاتى «**داوود حسنى**»:

أهـون عـليـك وقـلـبى بـاكـى
خـاضـع إليك.. م الوجد شـاكى

لايتذكـر أنه سأل روحه وقلبـه وعاتبهمـا على ما قد أصـبح.. معرضاً فـيه للهوان، ولم يوجه لوماً لأحد.

إنه خائف من الإبحـار فى ندم قد يؤلمه، ويتـمنى أن يعرف قلبـه طريقه فى التوصل إلى أى شكل للخلاص من كل هذه المعاناة!

يدرك تمامـاً أنه وقلبـه.. ولا أى شـىء من حـوله له مـقـدرة الوصـول إلى شاطىء بلا مـعاناة، فسخونـته واشتياقـه دائماً يدفعانه للانـحياز إلى «**ليلى**»،

فيتناسى ـ مضطراً ـ «**فاطمة**» بضفائرها السوداء مثل الليل الذى يجىء يومياً فيغلف الشاعر بهواجس.. وبحلم غير مذبوح.. وحصيرة من الوجع.

تملك «**ليلى**» مراسلات «حسية» وكأنها إحدى الظواهر الطبيعية التى تحتاج إلى تفسير لا يجىء أبداً، فعنفوان الجنس داخلها، كان أكبر من الرجوع إلى قواميس المعرفة:

روحى فى إيدك.. وهبتها لك
بس الأمان.. مش دى المذله
ياقلبى إعرف خلاصك

يحاول الهروب من «**ليلى**»، فيغطس فى نعومة وصمت «**فاطمة**»:

ياللى اشتريت قلبى بنظره
تعالى خفّف أنينى

باحثاً عن الشخص الذى قد ينصفه مرة ويترجم شجنه المتزايد، فالدموع قد تجمدت فى عينيه.. واشتياقه مغلف بالوهم!

إنه يعترف لنفسه من خوفه أن تطول «الأسية»، فتنهمر دموعه التى ربما تملك القدرة السحرية على مسح أوجاعه.

هو لا يعرف من أين تأتى الحيرة لكى تحبسه فى لحظات ميتة من المعانى التى ترفض التصالح مع المعنى الإنسانى، ومع ذلك فهو يحاول ولا يجد من ينقذه أو يخرجه بعيداً عن «ملفات» الحيرة والدهشة، فيسقط من جديد فى نفس المساحة الضيقة من تساؤلاته:

.. وبتسألينى.. يا ترى، ولا انتى ناسيانى
طولت بالك عليا... وانتى واحشانى

وفى «غلوشة» وجعه، اضطربت وانحرفت عواطفه واصطدمت بمؤخرة حلمه فى اقتحام قصر عابدين، للولوج إلى السر المختفى للتعامل معه.. وبأى طريقة!!

★★★

لايزال متقمصاً أشكال الإحساس التى تؤكد أنه سمكة ميتة، وسوف تتحول إلى كل أنواع مجمدات الأسماك!!

ولأول مرة عرف أن العيون قد ينزل منها مطر شحيح، من فرط التجارب المؤلمة التى لم تتعرف على سك الصمود، فحاول ترجمة دموعه ليقرأها، فوجدها «متجمدة».. لا ترسم أى علامات على خديه.. ولا تحاول مغازلة مخزونه القهرى والعاطفى.

وجد نفسه وحيداً فى الصحارى الشاسعة فى الأفلام الأمريكية، يتفرج على نوعيات القهر المختلفة فى شكل من التميز، حيث كانت جثث الهنود الحمر تفترش الطرقات الصحراوية، وكانت أرواحهم لاتزال تحلم حلماً مقدساً، ولكن الأجساد تنتفض، ثم تموت دون شكوى، وبعضهم كان له القدرة المستحيلة على تحقيق الحلم.

يشعر أنه مثل واحد من قتلاهم، فيوجعه «مغص» حاد، فيهرول إلى «مرحاض» منزلهم الضيق، يعانى من «الحزق» والوجع الأسفل بعد أن طارده الوجع الحياتى والنفسى، فيجد ملاذه الأخير ـ معترفاً ـ فى «ليلى» التى كانت قد أحكمت سيطرتها عليه ـ دون قصد ـ فيسأل نفسه:

ـ هل «ليلى» هى نهاية المطاف بحلمى!!.. أم هى عقبة أمامى؟!

كان قد سيطر عليه نوع معين من التمرد والغضب، متنكراً للحلم الذى ارتداه، مصبوغاً بلون قميصها «البنبى».

شعر أنه محاصر بالهواجس والكوابيس وبحلم لا يجىء برسالة اطمئنان.. وأحس أنه مثل عسكرى داورية آخر الليل، فاختصر كل تساؤلاته واتجه إلى منزلها، ووصل مع آخر الصوت الذى انطلق من الصندوق السحرى:

راضى بصدودك.. ودلالك
مادمت باخطر على بالك

كان قد قرر الصعود إليها.. وكان الصندوق السحرى لايزال يطلق لوعته:

إيه.. يعنى لما تعانديني
وتبعدى.. وتفتكريني
ياروحى بعدك يرضيني
مادمت باخطر على بالك

أثناء صعوده إليها، تذكر أنه لم يكن قد تعرف على كيفية تذوق طعم المر أبداً

إلا من خلال أحـلامه وأوجاعه.. وكـان يبحث عن شيء ينتظره، يتـرجم ما في داخله من ألغاز لم يعرف التوصل لفك رموزها، وكان دائم الشكوك، متوهماً أن أحـدهم يرصد خطواته لاغـتيـاله هو وأحلامـه، فكان يردد نفس الكلمـات من الصندوق السحرى:

خايف ياقلبى لو طال عليك كتر الهوان
تنسى ودّى.. والعهود وتعيش حزين

باحثـاً، متـوجعاً، ولمن يشكو نور عـينيه لكى يصـفو.. وتتصـافى مشـاعره لترطيب قلبه بنسمة محايدة لا تعرف سرقة أى حلم!

لمن يشكو هجوم وجع الأسية؟!

رد على تساؤلاته المغنى «**صالح عبدالحى**» بنواحه:

يكفى ذلى فى هواك.. ما تعود لودّك

وكان قـد وصل إلى حـجرتهـا، فوجد نـفسه أمـام لوحة مـرسومـة بألوان ساخنة، تحيطها الأصـوات المكتومة المغلفة بآهات تحاول اختصـار كل مسافات الطرق للوصول إلى طعم اللذة ومذاق الحلم فى سـخونته التى كانت تغلى على الكثير من التساؤلات التى لاتنتهى.

وجدها فى قـميصهـا «البنبى».. ولكن بدون قشر الرمـان! مكتئبة.. فـقدت حلاوة المرح.. والهـرولة وتدليع سخونة اللـحظة.. بينما **الصندوق السـحرى**، مطلقاً قنبـلته التى جاءت تعـبيراً عن شكل اللحـظة.. وكأنها تدعـوه فى تضرع ورجاء وهى فى حالة من الضياع والضعف وكأنها تدعوه بصوت واهن:

تعـالى جـبنى.. كـلمنى
وقـولـى ع اللى فى قـلبك
بعادك عـنى.. علمـــنى
أكـدّب عـينى فى قـربك

هو.. لا يعـرف كيف انزلق للوصـول إلى الأماكن الممنوعـة فى جسـدها مع شعوره بإحباط لا يعرف سببه، مكرراً لنفسه:

تعالى جـبنى.. كـلمنى
وقـولـى ع اللى فى قـلبك

بعادك عنى،.. علمـــــــنى
أكذّب عـــينى فى قـــــربك

شعر بحيرته.. وبما يحمله على كتفيه من تساؤلات لا تنتهى أبداً، حتى لو وجد نفسه فى دفء الأماكن الممنوعة فى جسدها، فهو على يقين بأنه لن يرضى سخونة عواطفها المتفجرة!!..

فها هى أمامه مثل القرنفلة التى أسقطت أوراقها عن عودها.

فى تلك الليلة رضع نوعاً من اللذة التى لم يتوصل إلى ترجمتها..

كان قد كبر فى العمر والتجارب، وأبداً لم ينس حلمه الذى يؤرقه فى اكتشاف السر الغامض فى حجرات قصر مولاه **الملك**!!

★★★

فى اليوم التالى.. كان يمشى مثل الديك المنفوش الذى أطلق صياحه بالأمس من أعلى منطقة لكى يعلم الجميع بتواجده، مردداً لنفسه:

«أعمل إيه ياعاشقين.. شفت العجب!

خليك صريح
وامش بحنان
شُغل الأونطه..
كان زمان

غناء :

محمد أفندى أنور

فهيمة

تدب قدماه على أرض الحارة فى اتجاه الخروج إلى الشارع الرئيسى عندما شاهد «فاطمة» بضفيرتيها الطويلتين. ابتسمت له ابتسامة نائمة ناعمة لم يعرف معناها، ولذلك قرر فى المساء أن يذهب إلى أخيها «**أحمد**» ربما يراها!

أثناء صعوده، رمقه العجوز عم «**مدبولى**» فأعطاه مليماً كاملاً لكى يتحاشى نظراته المتسائلة. دق الباب. فتحت له «**فاطمة**»، وفى نفس الوقت، كان الصندق السحرى يعبر عن الموقف:

ياللى تلومنى.. أنا مجروح
قصّر كلامك عنى وروح

ابتسمت له وهى تحرك رقبتها فى دلع الأوزة فى لحظات النشوة وقالت:

ـ أحمد غير موجود.. وأنا لوحدى قاعدة أذاكر!!

- **هل أدخل؟..** قالها فى انكسار!!... جذبته من يده فى جرأة لم يكن ينتظرها وهى تقول:

- **الجميع ذهبوا إلى عرس أقرباء لنا فى قرية «الصف» وسيعودون بعد باكر بعد الظهر!!**

استنشق هواء الاطمئنان وجلس بجوارها على الكنبة المصنوعة من بقايا أقمشة ملونة وهى تدفن رأسها فى صدرها وكأنها تنتظر مبادرة منه لتحريك الموقف، فتذكر كلمات غنائية فى وصفها فى أغنية يغنيها «**محمد العاشق**»:

عيونـــــك اللى الكحـــل دبلهم   آه وخدودك اللى الورد حاديدهم
وشفايفك اللى الشهد لابسهم   ونهودك اللى الســـحر طار منهم

أما هى فقد تذكرت كلمات كتبها الشيخ «**أحمد عاشور**» ويغنيها «**زكى أفندى مراد**»:

حبيت أنا من أول وجـــديد   وانت بتتنـكر ده علـيّا
وحياة جمالك أنســك عـــيد   إســـمح وفض الأســـيه
ما دمت عبدك وانت الســـيد   ماليـــش عـــندك ديّـــه

انجذب أكثر بقربها ورفع رأسها المدفون فى صدرها وأمسك به بين يديه، فلسعه الصهد كأنه رغيف من الخبز خرج منذ لحظة من الفرن، وكانت خدودها ساخنة وفى حمرة تفاحة سقطت لتوها من فرعها..

قال الصندوق السحرى فى مقطع من موشح قديم مذهب رصد.. « **لمحمود أفندى الخضراوى**»:

مثلك ما رأيت يا فريد عصرك   والنبى حبيت ياجميل حُســنك
كويت الفؤاد من طول البعـاد   قوللى المراد إعفى عـــن عـــبدك
والنبى ياسـيد الفـؤاد حـــبك   إنعطف لى وميل ذبت من صـــدك خـايف
ياغزال يطول المطـــــال   جُد لى بالوصال واعفى عن عبدك

كان يسمع الكلمات وكأنها خارجة من قلبها الذى ينبض بسرعة، فتذكر الموشح الذى غناه «**محمد أفندى عثمان**»:

ياناس خايف أقول أحبه   يظهر دلاله ويعزّ وصلُه
لكن أقول ما بيدّى حـيله   وكل من هُوَ يعمل بأصلُه

وجد نفسه قد سقط مثل ثمرة «النبق» فى حضنها، فأحس براحة ودفء ليلة صيفية ممطرة ونجومها ترقص فى فضاء بلا رعد.. أو برق..، فهى غير «ليلى» التى تتميز بصفة الرعونة والطيش والمدربة على قهر من أمامها..، وأحس أنه يستحلب «ملبسه»، وعند رحيله قبلها، فغمرته عطور حديقة بكرية مليئة بعصافير الفرحة.

فى فراشه.. شدّ الغطاء على وجهه لكى لا تهرب اللحظة الجميلة.. ورائحة النشوة ذات الطعم الخاص.. وتمنى أن يتعلم كتابة كلمات مثل التى تخرج من الصناديق السحرية متحدثة عن الحب.. وأحسّ بهدوء نفسى، وفى الصباح.. أفاق على صوت الصندوق السحرى لطقطوقة تغنيها الست «**توحيدة**»:

فتحت عينى أشوف حبيبى إكّمن قلبى عليه بيخاف

مديت إيدى آخد نصيبى مالقيتش شىء غير اللحاف

★★★

كان منزله يطل على منزلين مجاورين. الأول تسكنه أسرة مكونة من امرأة ضخمة بدينة لا تعرف الابتسام.. وابنة مليئة تشبه البقرة الصغيرة فى سيرها، لا تذهب إلى المدرسة.. أما المنزل الآخر، فقد كان سهلاً العبور منه من خلال حاجز خشبى صغير من خلال سطح منزله، وكانت تقطن المنزل إمراة نادراً ما يسمع صوتها.. ولها بياض كبياض الحليب وتبدو ميسورة الحال، ومع ذلك لم يكن لها زوج.. ولكن لها ابنة **اسمها «فهيمة» تتميز بقامتها الطويلة التى تشبه الزرافة الحائرة، ذات ضفيرة واحدة كبيرة تحملها مرة على صدرها.. ومرات خلف ظهره، أما صدرها. فقد كان يخفى رمانتين صغيرتين.. ولها فم ممتلىء يبروزه وجه تتصدره عينان واسعتان أكبر من حجم «المليم» المخروم، ولكنها كانت متصلبة الحركة مثل أنثى العصفور البلهاء.**

كانت قد لمحته، فانشغلت عنه وهى تغنى إحدى طقاطيق «**زكى أفندى مراد**»:

حبيبى رضي عليا من بعد هجره ليّا

قاللّى حقك عليا وبكره تعالى قابلنى

تتصنع الانشغال بإطعام دجاجاها وحمامها وهى ترد:

الجو رايق والورد فتّح
فرصحة سعيده لو كنت تسمح
نضحك ونفرفش ونطيب ونفرح

تنحنح بصوت مسموع وهو يردد قول المغنى «**محمد أفندى أنور**»:

خليك صريح وامشي بحنان
شغل الأونصه كان زمان

اقترب منها.. كانت ترتدى فستانا قصيرا فى لون المشمش، وتركت لشعرها الطويل فرصة للدلع فوق كتفيها، بينما اعتدلت لمواجهته وهى تقول:

أنا كـلامي ويـاك جـدّ وانت ليه مقـصّر فيـا
إن زُورتنى ما تقولشـى لحـدّ واقـولك كتّر لى من ده ليّا

انتبهت لاقترابه أكثر فابتسمت وهى تغنى إحدى طقاطيق المغنية « **فاطمة سرى**»:

مـهـمـا عـملت قليل وكـتـيـر
معلش النوبه دى ياجـميل
ماعـدتنش أميل لغـيرك أبداً
عـزولى قـاللى إنك بتمـيل
لواحده غيرى.. ليه ياجميل

ثم دلفت إلى عشة الفراخ، وسرعان ما قفز من على سوز سطوحه الخشبى، وأصبح معها بعد لحظات، الشيء الذى أصاب الفراخ بالفزع، ووقعت هى على الأرض متأوهة، فحاول تطبيب وجعها بالتمليس على ما ظهر من ساقيها الطويلتين، فتمادت فى دلع الأهات، واعتدل الإثنان بعد لحظات لاهثة ولم يصدقا هذه الصدفة التى جمعت بينهما.

اكتشف أن «**فهيمة**» باردة برودة ماء «القلة» فى يوم شتوى ممطر، ومع ذلك شعر بالراحة لغزوته المفاجئة.. ثم عاد إلى سطح منزله وقد قرر أن يسقطها من قاموسه غير نادم.. ولكنه تريث فى قراره، فربما يحتاج لها فى بعض لحظات الضيق.

عند هبوطه سلم منزله إلى حجرته، كان **الصندوق السحرى** يطلق وجعه

ليذكره بحالته والحيرة التى يعيش فيها:

سؤالى أسألك.. قول لى
تعلمت الهوى دا.. منين
وتاه فكرى معاه.. قال لى
أنا حاضر.. وانت فين!

و.. حسب حالته المزاجية، كان يتنقل مثل الديك «المفرعن» على ثلاث فراخ مختلفة المذاق والذوق، وكانت «**ليلى**» أكثرهن آثاره له.. ومع ذلك كان يحاول تجنبها لأنها الوحيدة التى كانت تملك القدرة للسيطرة عليه وإشعال وجعه وتكاد تبعده عن حلمه فى **اقتحام قصر عابدين، قصر مولاه الملك للبحث فى حجراته عن سر لا يعرفه!!**

★★★

فى إحدى رحلات التشريفة للتهليل لمولاه **الملك**، وقف مع بقية زملائه شارداً، كان قد كبر فى السن ولم يعد متحمساً للرغيف المحشو باللحم، ولا لفتيات جارته ولا لأى شىء، فقد أحس أنه مجرد لعبة يلعب بها الجميع، فهو لا يزال الديك التائه الذى يتنقل فى كل اتجاه معلناً عن وجوده.. وهو فى نفس الوقت لا يجد الوقت للتعرف على نفسه، وأدرك أن مليكه ومولاه لا يفيده فى شىء.. ولا يشعر بالاطمئنان لعساكره بملابسهم النظيفة، فاقترب من المدرس المسئول عن جمع الأولاد للتشريفة وسأله مباغتاً:

ـ «يا أستاذ.. يا أستاذ.. هل سبق لك زيارة مولانا الملك فى قصره!!»

اندهش الأستاذ من سؤاله المباغت ونهره بشدة قائلاً:

ـ لا أحد يجرؤ على التفكير فى زيارته أو الدخول إلى قصره غير البشوات والبكوات الكبار جداً والوزراء فقط.. لأن مولانا لا وقت عنده لاستقبال أى ناس، فهو مهموم بشئون البلاد وتوفير الطعام لنا!!

صمت ولم يستطع سؤاله عن حجرات القصر والأسرار التى تختفى فيها..

فى تلك اللحظة لمحه صديقه «**إسماعيل**» فى طابور التشريفة، فغمز له بعينه وهو يقترب منه قائلاً:

ـ نحن أقرب ما نكون إلى حديقة الأزبكية.. معى خمسة قروش،

سناخذها سيراً على الأقدام وتصل إلى هناك.. وعزومتك على حسابى، فسوف ترى أشياء لن تنساها أبداً!

كالمنوّم مغناطيسياً تبعه دون كلمة حتى وصلا إلى البوابات والنساء الواقفات أمامها بملابسهن الملونة، واستغرب أنهن بلا استثناء لهن صدور كبيرة تطل بعريها فى توجه مقصود للاصطدام بالعيون الملهوفة.

دلفا من أحد الأبواب وعبرا طريقاً ضيقاً رطباً فى آخره مجموعة من النسوة المتقصعات، يتمايلن على آلة العود وعدد من الرجال هو بالنسبة لهم كأنه ابن إحدهم، فاستقبلته النظرات الاستفهامية فى تعجب، وكانت احداهن تغنى:

سلامتك ياقلبى انكويت فى المحبه   وسلمت أمرك لحكم الغرام

شربت الضنا فى بعاد الأحبه   ولوعتى فى الوداع والسلام

شرب يومها أحد الأكواب التى قدمتها له احدى النساء بناء على اشارة من «**إسماعيل**» وهى تقول له:

ـ **اشرب.. فى صحة البلبل الصغير!!**.. ثم ابتسمت فى صهللة فرسة مستهترة.

تركه «**إسماعيل**» وقفز فى اتجاه امرأة كانت قد نادته، وفى لحظة كان يملّس عليها كأنها قطة، ثم انقض عليها مثل نمر جائع.. فوقع بها على الأرض وهو يصرخ بها:

ـ **أحبك فى الشكل ده!!..**

ثم اختفيا تحت أحد الطاولات الخشبية.. أما هو، فقد أحس برأسه يدور، وحاولت إحداهن مداعبته فلم يستجب، فقد شعر بجسده مثل المرتبة القطنية المسترخية فوق سرير نحاسى عال، فاستسلم للنعاس، ولم يعرف حتى اليوم كيف عاد إلى منزله، وبدأ يتوجس خوفاً من مغامرات « **إسماعيل**»، ولكنه فى أعماقه كان معجباً به وبحبه للحياة والمرح وكراهيته للمدرسين والمدرسة.

بدأ «**إسماعيل**» ـ أيضاً ـ يحبه لوداعته.. وكان يسكن بعد اختراق ثلاث حارات فى منزل مكون من طابقين، الأول شبه مهجور.. والثانى تطل شرفته الخشبية على النيل مباشرة.. وكان الشارع فسيحاً وعريضاً وعلى جانبيه الأشجار، وكان هو نفس المكان تقريباً الذى اختاره من قبل هو وأصدقاؤه

لعبور النيل للوصــول إلى شاطئه الآخر للحصول على ثمــار المانجو من قصور البشاوات فى منطقة «منيل الروضـة».

كان لا يعرف «**إسمــاعيل**» إلاّ من جانب واحــد.. ولكنه تعرّف عـلى جوانب أخرى فى اليوم الذى فـيه دعاه فيـه إلى منزله، حيث شاهد فى حجـرته مكتبة ضخمة مليئة بكتب كثيرة ذات جلد سميك ومرتبة فى نظام جيد، فلما سأله:

ـ هل قرأت كل هذا الكتب!!

أجابه:

ـ طبعــاً أنها الشىء الوحيـد الذى أحبه.. وقـد ورثت كل هذه الكتب عن جدى وأبى رحمهما الله.

قال فى دهشة:

ـ وماذا داخل هذه الكتب، وهل هى أشياء مفيدة.. أم أشياء للتسلية!!

أجابه «**إسماعيل**»:

ـ داخلها تجد كل الأسرار التى لا تعرف عنها أى شىء قبل قراءتها، فهى بالطبع أفضـل من كتب المدرسة ومن الرؤوس الخـربة المعلقة على أكـتاف المدرسين البلهاء!!

كلمة «**الأسرار**» ذكرته بالأســرار التى تختـفى خلف حجـرات قصــر مولاه **الملك**، حلمـه المتــحرك مــعــه مــثل خــياله، فطـلب استــعــارة أحــدها فلم يمانع «**إسماعيل**» وبدأ يتعلم أشــياء عجيـبة من تلك الكتب.. ويتعرف على عــالم آخر غير الذى يعـرفه، فالبشر فى الكتب مــختلفون عن البشــر الذين يراهـم ويستمع إليهم.. فهم فى الكتب يتكلمون مثل العصــافير التى تعشق البراح والحرية، وبدأ يقلب مـفتــاح صندوقه الســحرى بـحثــاً عن كلمات أخـرى غيـر وجع الآهات، فـاســتمــع ذات يوم إلى الكاتب «**فكرى أباظة**» وهو يتـحدث فـى حمـاس عن الرياضة، حيث أكد أن الملك **فاروق** الفتى القوى الرياضـى الهـمام، ركب الخيل، وعرف قيم الريـاضة.. «وح يكون لكم فيهــا إمام»، يرفع رايتها ويســير بها إلى الأمام ويقلده كل فتى وفتاة ويسيــر بها للأمام لكى تصبح الرياضة فى الوطن قانوناً ونظاماً، ويبقى البلد بفضله كتلة ضخمـة وقوة وعافية وشجاعة وإقداماً، فإن دعاها الفاروق الملك للحرب والصــدام، كانت جيوش الحرب والصدام، وإن

دعاها للسلام كانت ـ تحت أمره ـ جيشاً للسلام.

كان ذلك الحديث عن مولاه والرياضة، ولكنه لم يفهم معناه لأنه لم يمارس أى نوع من أنواع الرياضة سوى السباحة فى النيل للوصول إلى الشاطىء لآخر للسطو على شجر المانجو فى حدائق البشاوات من قصورهم.

مرت أيام دون الاقتراب من شبّاكه لمراقبة «**ليلى**» وكاد ينساها. ولكنه ذات ليلة سمع صوت **صندوقها السحرى** فى غناء كأنه رسالة عتاب موجهة إليه:

فى شرع مين ياحبيب القلب تنسانى
وتفوتنى وحدى عليل سهران فى أحزانى
وأقول لنجم السما ياهلترى بيحبنى
ح افرح وأشوف حبيب القلب من تانى

كان يشعر بما تعانيه «**ليلى**» وفضّل الإصرار على موقفه بمحاولة نسيانها.. **والتركيز على حلمه الحقيقى فى اقتحام قصر مولاه للبحث عن أسرار فى حجراته!!**

★★★

.. دائماً يرى نفسه متجهاً بلا تركيز، فيتوه فى دوامة الحزن الذى يجذبه للغرق.. ويزداد احساسه عندما يتذكر الكبار الذين سرقوا «حمامه» من عشته الخشبية، سرقوه بقدرة ما يمتلكون من أشياء لا يعرف ولم يتوصل لطريقة إلى فك رموزها.

نظر إليه صديقه «**إسماعيل**» نظرة غاضبة محاولاً اقتحامه فى اختراق مباشر، فيعرف أنه يرثى لحاله، ويحاول تقريبه من أحلامه، وأفكاره التى كانت تسبق عمره بعدد من السنوات، حيث كان مضطراً لإعطائه مساحة من الإنصات له فربما توصل إلى المعنى المقصود بهروبه منه. فهو لم يرغب فى دخوله معركة أو مواجهة معه فى تلك اللحظة، فاستسلم لخياله وهو يعاود رسم صورة لأخته التى لمحها عند زيارته له، إنه يراها غزالة ترتعش متوترة قبل ملامسة يدها، يسمعها عندما تتحدث كأنها أغنية شجية يمتلىء رأسها بمثل ما يمتلىء به عقلها من قراءات مدهشة من مكتبة أخيها «**إسماعيل**».

غزال.. غزالة.. كلمات مبهمة بدأ يتعلمها من خلال الكتب.

كانت «**شهد**» تفضل الصمت.. كارهة للثرثرة.. ولكنها فى لحظات الانفراد به كانت دائماً تقهره بنظرة من عينيها فيسقط منكسراً فى داخله، **فعواطفها مستقرة مثل كوب اللبن البارد**، وليست مثل عواطف «**ليلى**» التى تشبه كوب اللبن المغلى وهو يخرج فقاعات ساخنة ملتهبة فى فوران شديد له صوت.. وكانت تحاول تقريبه من أفكارها... وتحريضه على حقائق تدور من حوله، أفكار تلف داخل أحشاء الوطن الذى يملكه مولاه «**فاروق**» المعظم.

لم ينكر سعادته والعالم الرطب الجميل الملىء بنسائم متحاضنة فى انسجام وهو جالس معها دون أن يستوعب جيداً آراءها المتشابكة، أما أخوها «**إسماعيل**» فقد اكتشفه فى شكله الجديد بعيداً عن لهوه وتمرده ومغامراته واستهتاره.. وأتاح له مساحة من الود مع الكتب، عالم مختلف بحيث كانت الكلمات والسطور التى يقرأها ترفرف فى عقله فيحس به يكبر.. وينمو وتتكدس فيه الصور والمعلومات، فيبحر إلى آفاق جديدة. وأحياناً كان يشعر بالغضب من بعضها لأنها كانت قادرة على تحريضه ضد واقعه.

كان **الصندوق السحرى** فى حجرته قد أنهى عمله بعزفه للسلام الملكى، فرقد فى فراشه محاولاً استرجاع ما كان قد قرأه.

تساءل مثل عصفور فقد جناحيه فى عاصفة:

مليكه يعرف القراءة، ويعانى الوجع مثله.. ويفكر كما يحلم؟!.. أم يشغله أمر الدولة والرعية كما يقول الإمام الشيخ فى صلاة الجمعة..

إنه بالفطرة.. لم يصدق ما قاله الشيخ، لأنه يؤمن أن مليكه مثل بقية الناس.. ولكنه يختلف عنهم بأناقته وشاربة المهذب مثل أخلاقه «المبرومة» تحت أنفه؟!





كله إلا كـــده.. لأ بس أرجـع
دى خـبـطين فى الراس تـوجع
من يوم مـاعـضـتـنى العـضـه
دا كـان نهـار لـم يتـقـضـا
جـابولـى طاسـة الخـضـه
ونا نايمه وسـارحـه وباتوجع

غناء :

نعيمة المصرية

الفرح

كانت حارتهم قريبـة من شارع النيل، حيث يسكن « **إسماعيل**» فمن شرفة منزله كان يشاهد معه **كوبرى عباس** والسيارات.

اسـتيـقظ ذات صبـاح ـ وهو فى طريقـه للمدرسـة ـ على أصوات طلقـات رصاص قادمة من شارع النيل، واستـغاثات وهتافات مثل التى كانت فى بعض الكتب لم يفهم مـعناها، وكانت بعض النسوة يلطمن خـدودهن فى حارته، وكل الحـارات الصـغيـرة التى عـبـرها عـدواً. إلى أن وصل إلى الكوبرى، فـشـاهد الكراسـات وقد تمزق قلبـهـا.. والكتب ودّعت المعلومات الـتى بها مـتطايرة فى خوف، وأجساد ملقاة ملونة بالدماء علـى أرض الكوبرى المفتوح، حيث يتساقط التلاميذ غرقاً مع استغاثاتهم.

كـان هذا المنظر مفـرطاً فى إصابـته بصـدمة شـديدة ووجع أفسـد حالتـه

المزاجية.. ودخوله إلى حياة أخرى من حوله لم يكن يعرفها.. وغرق فى تساؤلات لا تنتهى.

في المساء.. قال أهل حارته إن الحكومة فتحت الكوبرى لكى لا يتمكن الطلبة فى تجمعاتهم الغاضبة من الوصول إلى قصر عابدين.

كان قد جمع بعض الأوراق المتطايرة من على أرض الكوبرى وأخذها معه إلى غرفته، كلها ورقات مدرسية، بها موضوعات «تعبير».. وبها علامات عشرة على عشرة.. وأرقام مضروبة ومطروحة وناقصة، وكلها قد حصلت على درجات من ٧ ـ إلى ٨ إلى ٩ من عشر.

جلس فى حجرته مذبوحاً بمعان لا يعرف التوصل لترجمتها، وتساءل:

ـ لماذا فتح عسكر الحكومة الكوبرى على الطلبة لكى يغرق بعضهم بعد إصابتهم بالرصاص، أليست الحكومة هى الملك!! ولماذا كانوا يحاولون الوصول إلى قصره.. هل ليسبقوه فى معرفة سر حجراته الكثيرة!!

أصابته كآبة لأنه ظن غيره يفكر فى اقتحام القصر.. واقتسام الحلم الذى يؤرقه!!.. وهو لا يرغب أن يشاركه أحد فى حلمه.

احتفظ بالأوراق الملونة بالدم فى حجرته،وبدأ يتحفظ فى حبه للملك **فاروق**.. وغرق فى كراهية غير منطقية لـ « **فاطمة**» و« **فهيمة**» و«**ليلى**»، وأدرك أن الجميع يلاعبونه للحصول على تلوين وإنعاش أحلامهم المختلفة دون أن يهتم أحد بمساعدته فى عبور حلمه من منطقة الدهشة إلى أرض الواقع..!

انضم إلى حالته المزاجية الصوت الخارج من **الصندوق السحرى**، كان مونولوجاً من تأليف «**أحمد رامى**» وتلحين وغناء «**محمد عبدالوهاب**»:

مسكين وحالى عدم من كتر هجرانك

ياللى تركت الأهل والوطن علشانك

قوللى على ورد خدك، قوللى على حالك!

كان فى حاجة إلى من يخبره عن حاله وما حوله، فالوطن لا يعرف أى كبير فيه سوى مولاه **الملك** «**فاروق**».. **والملك كما يظن هو الحكومة، أمر بفتح الكوبرى وإطلاق الرصاص على الطلبة الذين يكبرونه، فهل سيكون**

مصيره عندما يكبر نفس مصيرهم!

أصابته هلوسة من فرط سخونة جسده التى انتقلت إلى رأسه، وأحس بأصابع تداعبه مع إيقاع أصوات هلوسته:

جـــود بقربك.. وخـلينى على بـــالك ياللى بتنادى أليفك والفؤاد حيران
لما بشوف فى الجو طيفك وانت بتنادى عليه بان عـليه الوجـد وازدادت شـجونه

ها هو يعـود إلى وجـعه القـديم الذى قـرر أن ينساه بعـدمـا توصل إلى أن الغوص فى عـواطفه الحسـية ورغباته المصـهدة مجـرد لعبة تسـعد البنات ولا تساعده فى إطفاء متأجـجات النار داخله لأنه كان المفعول به فى أغلب الأوقات، وأحس أنه دائماً فى حالة اغتصاب من بنات حارته.. وتساءل: **لماذا لا يكون هو الفاعل.. أو المغتصب!**

مع طراوة نسيم المغربية.. ذهب لزيارة «**إسماعيل**». فشاهده غير مصدق ما يراه.. كان رأســه مبطناً بالقطن والشاش وفى حالـة مزاجية مـتهورة، اقتـحمه غاضباً:

ـ شفت إجرام الحكومة.. شفت مذبحة الكوبرى!

رد عليه فى هدوء:

ـ شفت.

قال **إسماعيل**:

ـ ما رأيك فى الحكومة؟!

ـ أنا أحب مولانا الملك.. ولا أعرف الحكومة!

امتـعض «**إسمـاعيل**» من إجـابته السـاذجة، ولم يحـاول الدخول معـه فى مناقشات لا يدركـها، وعندما دخلت «**شهد**»» بصينيـة الشاى جلسا يتـحدثان وكأنه غير موجود، وكانا منفـعلين، يشوحان بأيديها فى غضب. شرب الشاى وهو يتابعهما دون أن يفـهم، وعند مغادرته مدت «**شهد**» يديها بكتاب، قرأ على غلافه : «**ألف ليلة وليلة**».

فى حجرته أحس أنها كانت تحاول تدريبه على الاهتمام بالقراءة لكى تصبح شيئاً محبباً إليه، وقد تأكد من ذلك عند قراءة تعابير وجهها ونظراتها.

استلقى للقراءة، فى تحـمس.. كان يلتهم الصفحات.. وكان خـياله ينمو ليلة

بعد أخرى ويزخر بصور وحكايات مدهشة، وأحس بذلك من خلال إتقانه كتابة موضوعات «التعبير»، وفى تلك الفترة، كان مواظباً على عدم فتح نافذته الخشبية التى كانت تطل على شباك «**ليلى**»، وكأنه كان يريد اغتيال حلمه معها ونسيانه.

كان من الصعب عليه أن يفيق على حلمه وهو يلتقط أشلاءه المبعثرة ومحاولة جمعها من جديد، ولكنه داوم على التحمل وقهر نفسه، منجذباً نحو «**شهد**»، متمنياً اقتحام قلبها ذات يوم مثلما يفتح كتبها ويلتهم فى نهم وحب شديد.

- يجيء من **الصندوق السحرى** صوت آسياً، متوجعاً لعاشق ابتلاه الزمن بسهامه الجارحة.. إنه «**أحمد رامى**» وكلماته، واللحن والغناء لـ « **محمد عبدالوهاب**»:

كروان حيران   سابح فى نور القمر
والكون نعسان   حتى الطيور ع السجر

بدأت المشاهد والقراءات اليومية تحتم عليه إعادة ترتيب أوراقه..، **فمن الذى يحبه!!.. ومن الذى يخافه!! ومن يكرهه! وما هو نصيبه من هذه الدنيا!!..** لا ينكر أن «**شهد**» هى التجربة الرومانسية فى حياته.. وكان يتضوّر اشتياقاً لرؤية صفاء وجهها بعينيها التين تشبهان عينى غزال فى شرودها الدائم، أما جسدها فقد كان فى استقامة عود القصب الندي.

يغرق فى حفلة تساؤلات لا تنتهى:

«ياقلبى ما انت الحق عليك.. خالفتنى وطاوعت هواك.. وليه بتشكى.. وايه يرضيك.. حيرتنى يا قلبى معاك.. إن كان حبيبك قاسى عليك.. أنا عذابى ليه ويّاك»!

بدأ المذاق الرطب القادم من **الصندوق السحرى** يصيبه بالعطش:

الحب وعد.. وهجر ونار
وناره تحلى.. للعشاق

فى ساعة المغربية، لملم جسده النحيل وذهب لزيارة «**إسماعيل**»، لا لأنه ترك بصمة اشتياق له، بل كان مشتاقاً فى الأصل لرؤية « **شهد**» التى لم يرها منذ

أسبوع.

استقبله «**إسماعيل**» غاضباً وهو يسب كل الحياة من حوله..، **الوطن والأساتذة.. والملك.. والسياسة**، ولكنه لم يعره أى انتباه لأن صوت **الصندوق السحرى** جاء من حجرة «**شهد**»، محملاً بصوت «**أم كلثوم**» الذى كان يتساءل فى لهفة:

حيـــرانه ليه؟!

عاد «**إسماعيل**» إلى احتجاجه وغضبه الذي يطالب بالثورة على مولاه الملك «**فاروق**».. كان غضبه يزعجه لأنه يهاجم أكثر الأشياء التى يحبها ويحتفظ لها بالود الشديد، ولم تنقذه سوى «**شهد**» وهى تحمل صينية الشاى، كانت ترتدى ألوان الربيع المبهجة ورائحة زهوره الباسمة.. كان فستانها الملون ذا صدر واسع، فاختطف نظرة وسقط ما بين ابتسامة نهديها للحظات، ثم أفاق على صوتها:

● **مالك؟!**

- **الدنيا أصبحت مدهشة من خلال القراءة.. أشكرك على كتبك.**

كانت «**شهد**» قد أصبحت.. بالنسبة له الدنيا الجديدة بشكلها الجميل المختلف، هى تحاول دائماً دفعه للقراءة لكى تتسع آفاق عقله، بحيث يصبح قادراً على اختزان المعلومات والصور وأساليب المحاكاة.

جلس ثلاثتهم يحتسون الشاى، وعند مغادرته، أعطته «**شهد**» بعض الكتب الجديدة، وعرف أن الحياة ليست سهلة.. وأن الحصول على أميرة القلب يحتاج إلى إثبات التواجد عن جدارة والكثير من المغامرات والمشقة.

أميرة قلبه تغذيه بالكتب، وهو يشتاق لها.. وأخوها «**إسماعيل**» قد تشكل أمام عينيه بشكل مغاير لسابق معرفته به.

عاد إلى منزله، وصعد إلى السطح، وبجانب عشة الفراخ جلس متحمساً لاصطياد أى نجمة فى السماء، فسمع أصواتاً متداخلة، فنظر من فوق الحاجز الخشبى، فشاهد الزينات.. والناس جميعهم فى ملابس ملونة، فنزل، واندس بين زملاء حارته.

كانت هناك راقصة ترقص كالبطة العرجاء، شاهرة صدرها مثل «مخدة»

طرية تصلح لوضع رأس أى شخص مريض عليها فيشفى من الوجع.. **وكانت هناك مغنية مسلولة تغنى بالتبادل مع البنات الصغار** ككورس يعانى من مرض فى الحنجرة:

تعاكسنى.. باغير قوى وقلبى ينمّل
ساعة ما إيدك.. تلمسنى
سنين وزياده ونا ملهلب
ليه قلبك قاسى.. ما يرحمشى

فجأة شمر عن أكمامه رجل ضخم وفى يده عملة ورقية فئة الجنيه، ملوحاً بها لكى يراها كل الحاضرين:

ـ العريس.. والعروسة.. كل أهل الحارة، ونا.. وانت.

دسّ الجنيه الورقى فى صدر الراقصة، فتقصعت، وبدأت فى الغناء من جديد:

إن كنت شارينى.. ماتتقلشى
أكثر من كده.. ما استحملشى
ياالليل
راضى بحكمك ياجميل
اللى يحبك ماينامشى الليل
ياالليل
أنا وانت وبس ف بستان
أخطف من صدرك رمّان
أفرح واتهنّى أنا وانت وبس

بدا منتعشاً قليلاً وهو بين الناس، وبدأت حيرته وهواجسه فى الانكماش، وانطلقت من جديد حواسه ورغبته فى التلامس الذى وجده فى الزحام، فكان متلذذاً بالاحتكاك بصدور النسوة ومؤخراتهم، و كأنه يتسلى، راغباً فى التواجد الحلو للحظة التى يتعايش فيها ومعها.

ازدحم صوان الفرح بنسوة وفتيات جئن للمجاملة.. وأستعراض محاسن أجسادهن، وهذا ما جعل الرجال والشباب فى حركة دائمة وعيونهم تسجل

الصور وتخزينها.

دقت الطبول والمزاميز.. وتمازج الناس فى كتلة صهللة ثائرة.. ثم صعدت امرأة بيضاء فى لون الحليب، ذات صدر ناهد يتحدث بلغة الصمت.. أما فستانها فكان من الساتان الأحمر اللامع.

كانت تتقصع وهى ممسكة بالمكريفون، فازداد الهرج، ولهثت أنفاس الرجال كبار السن وهم يمضغون أمنيات ماتت ويبتلعون عجزهم..

أما الشباب، فقد اضطربت قلوبهم وتمنوا الاختباء فى صدرها، بينما أعلن أحد أفراد الفرقة الموسيقية بأن المطربة «**فركشة**» ستقدم أغنية للست «**نعيمة المصرية**»، فهلل الجميع.. وبدأت «**فركشة**» فى الغناء:

كلّه إلاّ كده لأُ بّس ارجـع　　دى خبطين فى الراس توجَعْ
من يوم ماعضتنى العضّه　　ده كان نهار لـمْ يتقضَا
جابولى طاسة الخضّـه　　ونا نايمه وسارحه وبتوجّع
حـقّه.. كُلّه إلاّ كده

صاح الجميع:

ـ فعلا ياحلوه.. كله.. إلاّ كده.. قولى كمان من ده.. وده!!

أكملت غنائها العَالْمة «**فركشة**».. وقد زادت من حركات دلالها:

أعمل كباير واتبهرج　　على كيفى مين ده اللى يُحرجْ
حلّ الرباط كده واتفّرج　　تلاقى مطرحها بيلمع
بزَيادة وحياتى على قلبك　　إوعى تبوس أنا فى عرضك
بس إروينى من نار حُبك　　اللى بَقى بِقلبى مزرّع
منك أروح فين آهْ يانى　　العضّه لسَه مْألْمَانى
طيبّ عُضّ فى دراعى الثانى　　بشويش بس لقُولك بس ارجَعْ

ازداد الصخب والتصفيف، بينما ظهرت «**ليلى**» حيث أعلنت ضحكتها المجنونة عن وجودها وسط النسوة وهى تتلوع متمايلة، فأحس بالصدمة وسيطر عليه خوف شديد

كانت ابتسامتها مثل المشمشة الناضجة

غمزت له بابتسامة دلعها الذى كان يحبه، وهى تقترب منه هامسة:

ـ الجو خالى.. يا خالى ويحلالى.. وانت سيد العارفين!

مصمصت شفتيها وكأنها تستعذب نوعاً معيناً من البهارات:

ـ نفسى أقعد معاك.. أتربع على «عرشك» الذى لا تعرفه.. أنت الملك.. وأنا الملكة؟!

أصابه هلع شديد، هامساً لنفسه، مستنكراً.

ـ يانهار أسود.. أنا ملك!

لا.. لا.. لا يمكن قبول هذه الفكرة التى تسرق منه حلمه، فالملك يملك قصراً.. وهو لا يملك شيئاً سوى أن يحبه ويخلص له.

اخترق إلحاح صوت «ليلى» هواجسه التى كان قد غرق فيها، فانتفض كاليمامة التى لم ينمو ريشها فى محاولة للهروب! كان صوت الدلع فى نبراتها ببروز لهاثها وهى تقول:

ـ أنا دايبه فيك من زمان.. تعالى نتهنى.. أنا وانت وبس.. دا الليله حلوة ياجمالها.. ما فيش ليالى مثالها.. إفرح كده وهيّص ياللى اسمك إيه.. حبيبتك الحلوه ـ أنا ـ إوعى لها!

تساءل:

ـ أى البنات أحب إلى قلبه؟!

امتصته دوشة الصخب، وبدأ المكان بما فيه من بشر فى خلفية ذات لون باهت، أما «شهد»، فقد تراءت له بألوانها الطبيعية الجميلة.

كان لا يزال فى مواجهة «ليلى».. وكان الفرح قد اشتعل بدخول راقصة جديدة، تصاحبها مغنية، وكانت الملامسات مستمرة فى موقعه، تحرضه لإيقاظ شهيته لشىء أصبح يكرهه، وكانت الضوضاء تزعجه وكأنه يبحر فى مياهها المتوترة، تغلى فى محاولاتها للبحث عن شاطىء أمان.

أنقذه من حالة عدم الاستقرار بأخذ أى قرار، صديقه «إسماعيل» الذى وجده أمامه بابتسامته وتهوره، ومزاجه عندما يكون فى حالة انبساط.

ـ ما الذى أحضرك؟!

قال «إسماعيل»:

ـ جئت بسبب روشة ودلع الأغانى؟!

ثم انتبه لهيكل الراقصة المكتزة مثل «الكرنبة» هاتفاً:

ـ العمر كله أبيعه فداء لهذه المرأة!

كان «**إسماعيل**» متحفزاً كعادته فى مثل هذه المواقف، متخيلاً نفسه الشخص «البلورى»، القادر على احتواء أى مسائل متعلقة بالجنس، وفى تلك اللحظة، كاد ينسى كتبه.. والمعلومات المختزنة فى رأسه.. وكراهيته للحكومة والملك.

ترك صديقه «**إسماعيل**» فى مغازلاته للراقصة، مبتعداً عنه، وكان لا يزال دفء همس «**ليلى**» المشتاق يحاول استقطابه للصعود معها إلى حجرتها.

★★★

يتصور هجرة الحبيب، فيتساءل:

ـ متى تكون العودة؟!

ولكن من هو حبيبه بالتحديد!!.. ولماذا ينبض قلبه بالحيرة.. وإلى متى سيظل يتذكر هذا الحبيب الذى اتكوى بناره فى الروح والقلب!

كانت هذه التساؤلات تتدحرج داخل رأسه وكأنها حجارة صغيرة مؤلمة، جعلته يقطع حيرته بالصعود مع «ليلى» إلى حجرتها.

★★★

فى أثناء عبورهما «حوش» المنزل المعتم، كانت يداها تقبضان على يديه بقوة الخوف من الوحدة.. وبفرحة الحصول على أمنيتها، أما هو.. فلم تكن له أمنية محددة فى تلك اللحظة غير العثور على لفحة برد شديد تُهبط من درجة سخونته، ثم همست فى أذنه:

ـ مايغركشى ضحكى ولعبى.. دى أمور نسوان وحياة ربى

عندما وصلا لأعلا.. كانت الحجرة مضيئة بلون خافت.. يشبه لون الورود عندما يزحف إليها ذبول مفاجىء، وسرعان ما بدد السكون اللونى الذابل صوت **صندوقها السحرى** التى ضغطت على مفتاحه، وبدأت تندمج مع كلماته وجسدها يهتز من اللوعة:

من سنين أشـرح هـواى وتسمعْـلى
عمر انقضى وف شرعى مش كفـايه
والنهارده أقول بحبك .. تضـحكْلى
وتقوللى أدّ إيه؟!.. والله حـكـايه

قبضت «**ليلى**» عليه من رقـبته وتعلقت بهـا فى لهاث للصعـود بالقرب من وجهه وهى تلهـبه بصهد أنفاسـها.. وأحس هو بيديها على وجهـه مثل قُمع من الزبدة، بدأ ينزلق إلى مـا تحت رقبته من فـرط سخونتـه ثم تحركت منتفـضة، فسقطت عنها بعض ألوانها التى ترتديها مثل أوراق شجرة هزتها الرياح فجأة.. ولكنها تصنعت الخجل، فـابتعدت عنه وتوسطت الغرفة وهى تقـول له ما كانت تغنيه «**عزيزة حلمى**»:

ـ أعمل إيه فى نار حـبك.. حرام ياقاسى راقب ربك.. من زمـان أنا دايبةُ فى حبك.. رق وارحم يانور عيونى.

ثم وهى تتمايل مع صوت الصندوق مرددة معـه الكلمات كأنها توجه رسالة له:

الغــرام .. يا ما سـقيتك شهدُه صافى
ومن إيديك.. شربت كأس الودّ.. وافى
شُـفت والله اللى ما شـافه خـــلاّنى
هــوّه قـلبى داب فى حُـبك شَـــويه
والنهارده أقــول بحبك تضـحك لى
وتقــول لى أدّ إيــه!!.. والله حـكايه!

انتبـه لنفســه وهو يتأمل قمـيصـها الذى كان فى لون دم الغـزال الصغـير واستطاع أن يسجل بـعينيه بسرعة اشـتياق رمانتين على العـود، تهزها أصابع نسمات ربيـعية ضاحكة، فأغـمض عينيه خوفا من هروب الصـورة الدافئة التى سجلها وغاب معها فى كلمات للمؤلف «**حسين المانسترلى**»:

ياشعرها ورا ضهرها ولا فى الأحلام
يانهدها فى صدرها.. رمّان فى رخام
يابُقها.. خاتم سليمان
يارمشها الحلو الدبلان

رقبتها كوز فضه مَلآن
وجبينها هلال شعبان
حواجبها خطّ الرحمن
وعيونها .. عيون غزلان

عندما أفاق من تخيلاته، فتح عينـيه، فرآها فى عالم خاص بها.. كانت لاتزال ترقص.. وهى «تُمرجح» قميـصها «البنبى» ناحية اليمن واليـسار، وكأنما كانت تحرك الهـواء حولها لتـرطيب نار الصـهد التـى لونت خدودها وجعلت شـعرها يمطر عرقا على وجهها..

كانت تصهلل مثل فـرسة رعناء صغيرة تتحـرك فى فوضى، ثم اقتربت منه وهى تحـاول شلح قميـصه، ولكنه منـعها رغـبة منه فى الاسـتمـتاع بحيـويتها الصاخـبة التى ملأت بها الحـجرة.. ولكنه بعد دقائق، أحس بأنه يملك العالم.. ثـم بدأ يفور داخله إحسـاس لذيذ يتزايد، ولم يفق إلا على صـياح الديكة، فـانتـفض خوفـاً.. ووجـدها أمامـه مـثل الغـزالة المذبوحة، بـينما كـان **الصندوق السـحرى** يوجـه كلماته له، تلك الكلمـات التى كـتبـها « **أبوبثينه**» ولحنها «**رياض السنباطى**» وغناها «**عبدالغنى السيد**»:

الحلو فتّح عينيه   نوم الهنا والنعيم
ياورد صبّح عليه   خلّيه يشم النسيم

يفرك عينيه غير مصـدق الفخ الذى وقع فيه.. وتذكر إحدى أغانى الصندوق السحرى التى غناها «**إبراهيم عثمان**»:

فؤادى أسـألك قـوللى   تعلمت الهـوى دا منين
وتاه فكرى معـاه قاللى   أنا حاضـر.. وانت فين

تساءل :

ـ **فعلا. أين أنا؟!**.. وتحسس جسده خوفا أن يكون قـد فقد جزءا منه، فلما اطمأن، استعد لمغادرة حجرتها وهى تقرأ فى عينيه خوفاً من أي قادم، فطمأنته:

ـ المحروس مش ح يرجع قبل تلات أيام.. إهدى بقى!

استـسلم للاسترخـاء بعد أن تبدد خـوفه، فبـدأ إفطاره بالحليب الطازة.. ثم بعدها مسـتطعما البيض المقلى فى الزبده.. وأحس أن قلبـه فتح كل نوافذه على

الصوت القادم من **الصندوق السحرى** فى طقطوقة مـوجعة من لحن « **زكريا أحمد**» ومن كلمات «**بديع خيرى**».

هوّه دا يخلص من الله
القـــوى يذل الضعيف
حـــتىّ يبخـــل بالمطلّه
شىء ولو دون الطفيف
قلبى كل ما تقوى ناره
وانت فيه بنخاف عليك
حدّ يحـرق بسّ داره
إوعـى تجـنيها بإيديك

تذكر أن صديقه «**إسماعيل**» كان يحب هذه الطقطوقة، فتذكره متمنياً لو يراه فى هذه اللحظة ليـشكو له تجـربة ضيـاعه فى بحـر بلا شــاطىء على سفـينة تتقاذفها الأمواج..

لملم ألواح سفينته الغارقة وبسـرعة وضع قدميه في حذائه وكأنه على موعد قد تأخـر عليه.. أما قلبه فقد عاد إلى توازنه، فأغلق نوافـذه المفتوحة واستعد للحظات القادمة.

يافؤادى بس قوللى
حد غيرك أصل ذلى
ليه بتشكى وانت جانى
م اللى جالك واللى جانى

غناء :

محمد العاشق

شهد

عند اقترابه من منزل « **إسماعيل**»، ملأت آنفه رائحة الياسمين الذى رآه يرمقه من شرقة «شهد». بينما كانت أمواج النيل يصل همسها الرشيق إلى أذنيه، فأغمض عينيه ثوانى معدودة ورحل فجأة على إحدى سفائن السندباد التى كانت تحمل حلما مخبوءاً داخل أحد صناديقها.. ولكنه أفاق على صوت «**أم كلثوم**» معبرا عن حالته:

فى شرع مين.. يا منصفين
العمر كله لوم.. فى لوم
ليه ياترى.. حيرتنى
إيه يعنى.. لو ريحتنى
وعملت غيرى لعبتك

بتـــمـــيل عـليــــه
وتقـــول لـه ليــــه
يادى الهـوى.. حيـرتنى

أفاق مـرة أخرى على عطر اليـاسمين الذى يضحك للنـسمات المارة من شـرفة «**شهد**» وأجفل العطر منكمشاً عندما وضع يده على جـرس الباب، فتغيرت اللحظة. وبينما كانت «**شهد**» تفتح الباب، كانت الأغنية فى نهايتها «**ليه ياترى.. حيرتنى**».

رحبت به فى بهـجـة تلقـائيـة.. وأمسكـت به من يده وهى تجـذبه إلى الداخل ولاحظت ذبوله والتوهة الواضـحة فى عينيه، وعندمـا سألته عن حاله كـاد يعترف لهـا.. ولكنه في صـمتـه كـادت تفضـحـه نظراته.. فـحاول الهـرب بالسـؤال عن «**إسماعيل**» الذى أخبرته أنه فى اجتماع مع بعض زملائه خارج المنزل.

كان لا يزال فى صمته يقلب فى صفحات قلبه التى لم يجد فيها أي معنى يجذبه لقراءة مـحتوياتـها غيـر الصفحـة الخاصة بهـا.. أما هى فقـد فكرت أنه يرغب أي اجتماع ذهب إليـه أخوها، فأخبرته بعفوية شديدة أنـه فى عمل سياسى، فلم يعلق أيضا.. ووجـدها فرصــة للجلوس معــها فى الشــرفة سارحــا مع أشرعـة القوارب الصغيـرة للصيادين.. وبدأ يتخـيل حوارا بينه وبينها من خلال الكـلمات التى كان يحفظها من الصناديق السحرية:

● **عذبتى قلبى**

ـ من غير كلام أفهم قصدك

● **من حبى فيكى.. باغير عليكى.. ياهلترى أنتى فاكرانى.. ولا نا سيانى!**

ـ ياروح النفوس.. قلبى يحبك

● **اتكتب لياّ الهنا**

ـ أرجوك خليك على البعد فاكرنى

● **كل من يعشق جميل**

ـ نور العيون ياشاغلنى

● **فى الليل لمّا خلى**

ـ طالت ليالى البعاد

● **ياريت أتهنى مع اللّى باحبّه**

ـ ياشاغل بالى.. إمتى ح تصفالى

● **ياساكنه قلبى**

ـ آه ياللى انت جنبى.. وانت بعيد!

كانت « **شهد**» قد أقبلت وهى تحمل صينية الشاى.. وقطعتين من الفطير الذى تقوم بخبزه بنفسها فى المنزل، فأفاق على ديالوجه الخيالى الذى أقحمها فيه.

سألته عن آخر قراءاته، فأخبرها ـ وهو لايزال فى شروده ـ بأنه قرأ كل الكتب التى أخذها منها فقالت له

ـ الكتب أول أبواب المعرفة، ندخل في شوارع صفحاتها، فنتعرف على الأفكار الجديدة.. ونفهم ما يدور حولنا فى العالم.. وعندما نتوقف في طرقات المشاكل والتساؤل، فإنه يمكننا التغلب عليها ووضع الحلول لها.

كاد يندلق مثل الجردل الصفيح المليء بالماء، صارخا من داخله فى صمت

ـ مشكلتى معك.. لا أعرف كيف أحلها!!..

ثم أفاق محرراً نفسه من أسر الصمت موجها تساؤلاته التى تؤرقه بصوت عال.

ـ أشعر أننى كالغريق في بحر من الحيرة!

ـ ما سبب كل هذا!!

قال

ـ «الحب».. أراه فرساً تلهث في رعونة داخلي، فيجعلنى هذا الشعور مستمرا فى الجريً مصطدما برمال صحراء.. يرجع فيها صدى لهاثى، ولم أكتشف السر..

ـ جميل أن نحب.. وأن نتعب.. ونعانى، وسوف تجد كل هذا فى الكتب!

قال:

ـ من كل ما قرأته، اكتشفت أن المشاعر ليست كلها فى سلة واحدة!

قالت :

ـ بالطبع.. فالبحر غير اليابسة.. والحزن يختلف عن الفرح.. وهذا ماينطبق على الحب من شخص لآخر.

قال:

ـ كيف ؟!

قالت :

ـ الحب.. مثل المواسم.. فيه الدفء.. وفيه وحشة البرد وعواصف قادرة على تحنيط الإحساس.. وفيه فصول ومواسم للعطاء.. وفيه أيضا رماد الجفاف.. وكل قلب وما يهوى!

قال فى وجع:

ـ لا أفهم.. و.. هل جربت الحب؟!

قالت :

ـ أنا أحب فعلاً!!

غمره فرح ، قادم من نوافذ اعترافها.

قالت :

ـ لى زميل طفولة.. كبرنا معاً.. زرعنا أجمل المشاعر فى حديقة عمرنا.. ولكنها للأسف.. لم تزهر نبتاً سوى فى حديقتى وحدى.. ثم كبرت النبتة وتحولت إلى أشواك جارحة!

ـ ماذا تقصدين؟!

قالت وهى شاردة:

ـ أحبه.. وهو.. لا يحبنى

ـ لماذا .. و.. كيف!!

قالت:

ـ لأنه يحب فتاة بلا عقل.. وهو لا يحب للمرأة أن تفكر، ويرى أن المرأة قد خُلقت للإنجاب، لذلك أنا خارج مواصفاته فى الارتباط مستقبلاً.

صدمته كلماتها، فوجد نفسه فى حصار قصتها وقصته.. فحكايتهما مثل السجين والسجان من المستحيل أن يلتقيا.!

أفاق من إحباطه على ضحكتها وهى تشير إلى النيل:

ـ كم من العشاق قد مرّوا عليه.. وكم منهم عاشوا هناء الحب.. وكم منهم عاشوا مرارة الفراق والبعاد.. وهناك من ينتظر لحظة اللقاء!

وكأن أحدهم قد وضع كمامة على فمه فلم ينطق.. وبالكاد، كان يحاول التنفس، وساعده لاسترداد أنفاسه الصوت القادم من أحد الصناديق السحرية القريبة ـ

وأيضا من صندوقها ـ من كلمات «**أحمد رامى**» ولحن «**محمد القصبجى**» وغناء «**أم كلثوم**»، حيث كانت الأغنية تمجيداً لمولاه الملك المعظم « **فاروق**»، فانتفض محاولاً التواجد كأنه أحد حراسه عندما يقف «انتباه» «معظّماً» مولاه أثناء مروره.. أو عند ذكر اسمه.

كانت الأغنية تافهة ومليئة بالزيف.. ولكنه لا يستطيع كرهها.. أو رفضها، فاستمع إلى كلماتها:

شاع فى الدنيا بهاء.. من جبينك
سال الوادى عطاءً.. من يمينك
يامليكاً عرشه فى دولة العزّ مكين
كل قلب الحنايا.. لك راعٍ أمين

اندهش من وقع كلمات الأغنية عليها، وهرولت مسرعة فى اتجاه **الصندوق السحرى** وكتمت صوته وهى تضحك فى هيستريا وصوت عال بعيد عن رقتها:

ـ هأ «ملك».. قال.. أين هو هذا الملك الذى يشبه العبيط فى الزفّة.. إنه لا حول له.. ولا قوة.. فالإنجليز يحركونه مثل قطعة شطر نج ميتة!!.. ثم قالت:

ـ يحيا «الوفد»!!

عرف أنها «**وفدية**».. فقال لها فى سخرية وهو يحاول إغاظتها:

ـ لقد سمعت وقرأت أن حكومة «الوفد» التى جاءت فى عام ١٩٤٢ للحكم.. جاءت على أسنة الحراب البريطانية.

قالت : ـ

هذه حملة دبرها السراى.. والإقطاعيون!

قال :

ـ لا .. إن حكومة الوفد حكومة ضعيفة.. مترددة فى تحقيق مصالح الناس.. متخاذلة مع الإنجليز.. ولذلك انفضت جماهير كثيرة من حول الحزب.. ولم يعد حزبكم قادراً على تنظيم أفراد الشعب أو حشدهم، واعتمد فقط على الإثارة الصحفية لتعبئة الجماهير التى هربت منه.. وخصوصاً فى المدن، ثم معاهدة ١٩٣٦.. وتهادن حزبك مع الاستعمار الإنجليزى.. كل هذا وتفخرين بأنك مواطنة «وفدية».

قالت:

ـ ما الذي نقوله.. أنت مخطىء..!!

قال في انفعال

ـ لا زلت أتذكر كراسات الطلبة الملونة بدماء الشهداء على كوبرى عباس بالجيزة!!.. وبعضها أحتفظ به للآن!!.. فماذا فعلتم؟!

ـ الا تتذكر إصابة «إسماعيل» بالرصاص.

ـ لا اعترف بأي حزب.. أو أى اناس ضد مليكى الذى أحبه.

قالت:

ـ تذكر .. نحن فى أشد الحاجة لتحرير الوطن من الإنجليز.. ومن فساد الملك وحاشيته.. ولابد من تكاتف الجميع لإسقاط نظامه.. وعموماً «الملكية» أصبحت نظاماً لا يصلح لنا.

أحس بأن « شهد» هدت الدنيا فوق رأسه.. وأنه هو أيضاً قد أفزعها بآرائه.. وتساءل

ـ هل لايزال يحبها بعد اعترافها.. وإذا كان يحبها، فأين تقع «ليلى» على خارطة قلبه!!.. وكيف يقع فى الحب بهذه السرعة!!

لم يجد إجابة مقنعة. وحاول الحفاظ على حلمه بحب مولاه الذي له فضل إطعامه.. وتعليمه.. وكسوته، علاوة على شديد إعجابه بشاربه الرفيع المبروم وطربوشه.. وقصره «الحلم».. الحلم الذي استحوذ عليه فى اقتحام قصره.. واكتشاف سر لا يعرفه داخل حجراته الكثيرة!

عندما وصل منزله قلّب فى الكتب التى أخذها من مكتبتها.. كانت أغلبها فى السياسة والاقتصاد.. وبعضها فى الفن، وتذكر أنها حاولت تلطيف الموقف بينهما، فوجهت إليه دعوة ليذهب معها ومع أخيها « **إسماعيل**» إلى السينما لمشاهدة فيلم «**ذهب مع الريح**».. وكان ثمن التذكرة الماتينيه «صالة» **ستة قروش** والمسائية ثمانية.. وافق على تلبية الدعوة على أن يكون هو الداعى فى اليوم التالى بما فيها اختيار الفيلم.

كان الفيلم الذى دعاهما إليه من تمثيل «**كلاك جيبل**» . و«**فيفان لى**» الرقيقة عن قصة للكاتبة «**مارجريت ميتشل**»، تحكى الحروب المريرة بين الجنوب الأمريكى

وشماله من خلال المعارك التى بروزت قصة حب رومانسية أقوى من قسوة النيران التى كانت تأكل كل شيء.. وبما تبقى من العشرين قرشاً، عاد ثلاثتهم بالحنطور إلى شارع النيل عند منزلهما حيث غادرهما مخترقاً الحارات الصغيرة إلى أن وصل إلى منزله، وعندما وضع نفسه فى فراشه، انقرض مع ليل لا يعرف وجع السهاد ، فغطس فى نوم عميق.

و.. تمر الشهور والسنوات وهو يعكف على قراءة الكتب.. كان متلهفا على اصطياد المفيد من معانيها وتسجيله، بينما كان خياله يشرد للحظات مثل فرخ حمام ذبحته التوهة.

مستلقياً.. ناظراً لسقف الحجرة الذى يرسم عليه حيرته، فلا يرى غير علامات الاستفهام والتعجب، متسائلاً:

ـ هل كل الذين يكتبون للصندوق السحرى تعساء فى حبهم!

ولماذا الشكوى الدائمة من الحبيب؟!.. ألا يوجد عاشق واحد بإمكانه إسعاد قلب من يحبه؟!..

فشل فى العثور على إجابة، بينما أسعفته كلمات «**أحمد الألفى**» فى الطقطوقة التى لحنها «**محمد القصبجى**» وغناها «**عزيز عثمان**»:

م الغرام يالاّ السلامه   ياماذل قلوب وياما
قبل حبه كنت خالى   فكرى فى راحه وخيالى
أنعس الليل لا أبالى   والغرام ما كان لبالى
حتى ما كنت أسمع عليه   م الغرام يالاّ السلامه

أغلق **الصندوق السحرى**، بينما هاجمه صندوق أحد الجيران بعد ساعة زمن كان قد فقد فيها إحساسه بالتواجد.

كان صندوق الجيران يذيع إحدى حفلات «**ليلى مراد**» وكانت تغنى من لحن «**زكريا أحمد**» طقطوقة **بعدما ضحيت حياتى**:

بعد ما ضحيت حياتى فى الغرام   وشربت نارهُ
حَبِّ قلبى يرثى حبى آل   ويشكيلُه مرارُه
بعد إيه

تذكر أن سبب عذابه لأنه يصدق كلمات الصناديق السحرية، ويتمادى فى تبادل

الوجع معها، فردد مع «**ليلى مراد**»

يافؤادى بس قوللى حد غيرك أصل ذُلى
ليه بتشكى وانت جانى م اللى جالك واللى جانى

صبيحة اليوم التالى ذبحته الكلمات الخارجة من الصندوق السحرى من كلمات «**حسين السيد**» ولحن وغناء «**محمد أمين**»

حبيب الروح ياللى ف بالى
امتى راح أخطر على بالك
ح تفكّر امتى وتصفالى
وتخلّى قلبى يصفا لك
لو كنت تسمح لى مرّه
أفوت على بالك
أو كنت ترضالى بنظره
أناجى جمالك
ويهون عليك أفضل مشغول
حرام دا يعنى ولا حلال ياحبيب الروح

كان يحن إلى لحظة تنجذب فيها «**شهد**» إليه، فعاودته لعبة «**المونولوج**» بينه وبينها من خلال كلمات **الصندوق السحرى**:

قال :

- **كنت افتكر أقدر أنساك.. لقيت حنينى زاد فى هواك**

- ردت عليه :

إن طال فى بُعدك سهادى.. تسأل عيونى فؤادى.. ياهلترى بيجافى ليه!

قال وهو يتقمص كل الكلمات الموجوعة:

- **باحب دمعى علشانك.. وأحب نوحى وآلامى**

- ظلمتنى وخفت أشكى.. تزيد ياروحى فى الأسيّه

قال :

- **تحسبنى هايم بغيرك.. دنا اللى عايش أسير**

- غرامك.. علمنى النواح.. كان ليه ياقلبى كل ده

قال مندهشاً :

- **ياللى بتشكى من الهوى.. بتجافى ليه.. دنا شربت الشهد فى قربك ليالى**

- أمرك عجيب ياقلبه!

قال فى عصبية:

- **طالت ليالى البعاد.. وفى الليل بارتّل بالحنين اسمك**

- ياقلبى بزياده.. أشكى لمين الهوى والكل عذّالى.. دا الدمع من عينى انتهى

تمنى رؤيتها فى هذه اللحظة هامسا:

- **يا حُسنها ليلة.. ياريت أشوفك من تانى**

- إمتى تعود تانى الليالى!

★★★

كانت السنوات تمر.. **وظلت علاقته بها مثل قنبلـة موقوتة فى حياته يتمنى انفجـارها أو إبطال مفعـولها**.. أمّا «**ليلى**» فكانت بالنسبـة له خندق الأمان الذى يلجأ إلـيه هربا من وجعـه عندما يريد إذابتـه فى دفء مشـاعرها العفـويةً التى لا تعرف غيرها.

بدأ يسـجل فى كراسـاته مـلاحظاته أثناء القـراءة وخصـوصـا فى الموسيـقى والغناء.. ويكتب ما يراه مناسباً اسـتعدادا للكتاب الذي وعدت «**شهد**» بطباعته له، فكتب أن الملحن الشيخ «**أبوالعلا محمد**» كان له التأثير المباشر فى أساس التكوين الفنى «**لأم كلثوم**» خـلال خمـس سنوات أثناء تواجـدها فى القـاهرة.. فله يرجع الفضل فى إعـادة الغناء العربى إلى أصوله من خـلال نضاله بالموسيـقى فى إبعاد اللهجة التركية والغـجرية عنه.. تماماً مثل الشاعر «**محمود حسن البارودى**» الذى أعاد الشعر العربى إلى قواعده سالماً بعدما كان قد أفسده العثمانيون، حيث تدهور أثناء الخراب الذى مـرّ على جسد الأمة العـربية فى عصـور الانحطاط، وأن الشيخ «**أبوالعلا محمد**» و«**أم كلثوم**» استطاعا استرداد حضارة الغناء العربى التى كانت متـألقة قـبل سقـوط بغداد على أيدى «التـتار» **عام** ١٢٥٨، ثم سقـوط غرناطة.. وضياع الأندلس العربية التى اجتاحها «**القشتاليين**» الأسبان **عام** ١٤٩٢.

وفى أطـراف أوراقـه كتب أن القصـائد الســت التى لحنهـا الشيخ «**أبوالعلا**».. للمغنية «**لأم كلثوم**»:

● **الصبّ تفضحه عيونه/ كم بعثنا مع النسيم سلاما/ وحقك أنت المنى والطلب/ أقصد فؤادى/ يا آسى الحى.**

أما القصائد الأخرى التى غنتها بعد وفاته فهى: **أفديه إن حفظ الهوى/ وأمانه أيها القمر المطل.. و/ قل للبخيلة.**

عندما قابل صديقه «**إسماعيل**»، أحس أنه يكن كراهية شديدة للمغنية «**لأم كلثوم**» وأنه يظهر عداءه الصريح لفنها.. واكتشف أنه لا يحب من أغنياتها سوى أغنية «**أراك عصىّ الدمع**» التى كان قد لحنها «**عبده الحامولى**» فى أواخر القرن التاسع عشر، وظلت تتناقل من خلال حناجر المطربين والمطربات.. وقد قامت بغنائها من خلال إتقان ماحفظه الشيخ «**أبوالعلا محمد**» بشكل سليم حيث كان واحداً من تلاميذه.

جلس صديقه «**إسماعيل**» مهتاجاً، بينما قالت «**شهد**» فى شجن:

ـ لا .. يا «إسماعيل».. أنت تبخس «أم كلثوم» حقها.. هل نسيت أنها عبرت بفن الغناء إلى آفاق جديدة!.

ثم تأوهت نبرات صوتها كأنها تذوب عشقاً:

ـ ألا تذكر أغنيتها «كيف مرت على هواك القلوب».

تدخل فى الحوار قائلاً:

ـ أو قصيدة «اذكرينى كلما الفجر بدا»

قالت «**شهد**» فى اعتزاز:

ـ وأيضا أغنيتها «أصون كرامتى»!

لعبت جملة «**أصون كرامتى**» بعقله.. وكيف نصون « **شهد**» كرامتها!!.. إنها تحب.. ومن تحبه لا يحترم عقلها ويفضل الجسد الذى يحمل راساً فارغاً، فعاد إلى منزله ليكتب عن أغنية «**الأولة فى الغرام**» التى غنتها «**أم كلثوم**»:

إن غناءها محاولة ممتزجة بعسل الشجن فى الأداء لتوصيل معنى «الكلمات»، «**فالأولة فى الغرام**»، تؤكد بروزة الموقف الذى عاشته الحبيبة.. و«التكرار» يلون الموقف بالدهشة واستحضار لحظة اللقاء. و«**الثانية بالامتثال والصبر أمرونى.. وأجيبه منين**»!!.. فهى فى أحضان تساؤلها الذى شرب من نهد الحيرة والوجع قد فاض بها وما يؤرقها من عذاب رومانسى.. أما فى « **التالتة من غير ميعاد**»،

فجميع العوازل «قهروها»، فتتنقل جريحة وهى تحاول تضميد جراح القلب بالكلمات.. «**قولولى.. من بعدما سافر حبيبى.. ونا .. ونا بداوى جروحى**».. «**حطيت على القلب أيدى.. ونا باودّع وحيدى..** «**وأقول ياعين.. ياعين.. ونا بداوى جروحى**».. «**من يوم ماسافر حبيبى**».. «**أتارى فى يوم وداعه أنا بداوى جروحه**».. **أتارى فى يوم وداعه.. ودّع تانى.. ودّع كل شىء وروحُه**»

و.. عندما وصلت إلى «**طالت عليّا الليالى**»، كان صوتها يعانى من آثار جراح خناجر الهجر والبعد والوداع ويحنّ إلى لحظة حنان مطمئنة.. وبأدائها ترسم ألوان الوجع الإنسانى، ثم تصل إلى التكرار والمناداة «**طالت عليّا الليالى وانت يا روحى.. آه.. آه**»، **نحن نشعر بأننا** أمام عاشقة تنزف على أوتار حنجرتها فى تساؤل ودهشة: **ما قلت لى فين مكانك**».. يتحول أداؤها بالآهات إلى صوت كمنجة تعزف عزفاً منفرداً: «**وانت ياروحى إنت.. ما قلت لى فين مكانك.. ولا ح ترجع لى إمتى**».. نشعر فى أدائها بأنها جمعت كل أوجاع العشاق لكى تقدمها على طبق صوتها الغنى بملح وفلفل وطعامة الأداء المتميز: «**أتارى فى يوم وداعه.. ودعت عقلى وروحى**».. ثم تعود إلى شكواها من طول الليالى فنرى قصتها من خلال بانوراما رومانسية، تحلم بعودة شروق شمس الأمل.. «**وانت ياروحى**»، نحسها بما تعانيه وهى تسير فى طرقات العشاق الذين تتساءل قلوبهم عن مكان الحبيب.. ويظل التساؤل: **فين مكانك.. ماقولتلى فين مكانك.. ياروحى إنت فين مكانك**»!!.. فيوجعنا استسلامها بالعقل.. وصمودها بالقلب الذي يحلم باللقاء المستحيل!!

ألقى بقلمه على الورق عندما تراقصت أمامه صورة «شهد» كأنها كتلة من بركان قد انفجر فجأة، فاستسلم راضيا للحظات الاشتياق بالاحتراق فى نارها.





إرخى الستاره اللى فى ريحنا
لاحسن جيرانا تجرحنا
يامبسوطين يامفرفشين
يامزقططين يا احنا

غناء :

عبداللطيف البنا

«طالت عليّا الليالى»!

أتعبه الترحال فى معانى العشق والعشاق وفى تخيلاته التى لا تتحقق، واستشعر بعض الخيبة فى مليكه «فاروق» بطربوشه الأنيق وشاربه الرفيع، وكان قد نسى رغيفه المحشو بقطع اللحم فى رحلات التشريفة والتهليل له بطول البقاء، لأنه كان قد تخطى هذه المرحلة بسنوات كثيرة.. **وأحسّ بتفاهته فى حُبّ الملك.. وخراب الأغانى التى أصبحت قادرة على توريد الوجع للناس.. وتوصيف التفاهة لهم**، فسرح.. **متذكراً ثورة ١٩١٩، التى مهدت إلى تحرير المرأة التى خرجت فى المظاهرات واستشهدت**.. وهى رافعة رأسها لأول مرة سافرة.. وتذكر النهضة فى الموسيقى والأغانى وخصوصاً فى أغنيات «**سيد درويش**».. وفى كلمات «**بديع خيرى**» و«**بيرم التونسى**»، فتذكر «**سيد درويش**» عندما استمع إليه من خلال الصندوق السحرى وهو يحذر المواطن «المصرى».

قــوم يامـصـرى مصـــر دايماً بتنـــاديك
خُـــد بنا صـــرى نصــرى ديــن عــليك
رُدّ ســــــعدى قبل ما يروح من إيديك
إوعـــى مجـدى يروح هدر قدام عـينيك

....

ليـــه يامصـــرى كــل أحـــوالك عـــجب
تشـــكى فقـــرك وانت ماشى فوق دهب
مـصـــر جـــنّه طول مافيها انت يانيل
عـمـــر ابنـــك لــم يعيـش أبداً ذلـــيل

يتذكر **ثورة ١٩١٩** ونجاحـاتها من خـلال الحكاوى والقراءات، وكيـف فشلت حيث ظل الاحـتلال البـريطانى.. والسلطة فى يد **المندوب السامى** الذى كان يملك التدخـل فى شئون الـبلاد.. ولايزال يتـذكر **عام ١٩٢٤**، عندمـا قُتل «**السيـر لى ستاك**»، سردار الجيش المصرى وحاكم السودان، وأرسلت بريطانيا إنذارا للحكومة المصـرية بدفع غـرامة قـدرها **نصف مليـون جنيه**، على أن يتم سـحب الجيش المصرى من السودان، مع التـأكيد بقمع أي مظاهرات شعـبية أو سياسـية، أما فى حالة عدم تنفيذ هذه المطالب، فإن حكومة صاحبـة الجلالة ـ البريطانية ـ ستتخذ ما تراه مناسباً للحفاظ على مصالحها فى مصر والسودان.

يتذكر ..
و..يتألم..
ويحب..
ويكره..

ويشـعر أحيـانا بالتعاسة لأن الكتب قد أتاحت له رؤية التاريـخ، وعليه أن يختار موقعه مـنه، ولكن محركات رأسه قد أصـابها العطب، واختلطت الأشياء ببـعضـها.. ولم ينقذه سوى شبّاكه الخشبى فى حجرته حيث جاءه صوت الصندوق السحرى من حـجـرة «**ليلى**» وهو يحـاول ترجـمـة حـالتـه الراهـنة فى لحن «**رياض السنباطى**».. وغناء «**محمد سلامة**»:

من كُتر الأشجان.. فى غيابك ياحبيبى
بات جفنى سهران.. من ذلى وتعذيبى

والقلب اتهنى بك.. حنّيت بعد غيـــابك

كانت غـيبته قـد طالت ولم يقابل «ليلى» حيث كـان مشغولاً بالقـراءة والكتابة وحلم ظل يتمناه، بأنه ذات يوم سيرى مايكتــبه مطبوعاً فى كتاب.. ومع ذلك أحس أن لحظة القرب منهـا هى الموقف الوحيد الذى تتـرجمه عـواطفه بشكل يرضى به عن نفسه، وكأنها لحظات التطهير من مجتمع يحـياه ويحاول التعايش معه فيصدم بواقع مختلف يسبب له الفزع ويخضعه لقوانين لا يستطيع احترامها لأنه أحس أن هذه القوانين من صنع مزاج البشر حسب موقع كل منهم فى المجتمع.

كان فى طريقه إلى حجرة «ليلى»، بينما **الصندوق السحرى** منطلق فى زفير لوعته..، داعياً له دعوة باسترجاع فرحه:

.. والصفو يرجع تانى.. وأحقق الأحلام من عطفك

مدركا عن تجربته أن «ليلى» امرأة أكثر عطشا وأكثر وفاءً وصدقاً عنه، راضية بما تقدمه له ومـا يمنحه لها من لحظات حلوة فى الطعم والرائحة، متـحملة تقلباته لأنها كـانت تشعـر به برياً مثل الحمـام الذى لا مأوى له، وعندمـا كان يلامسـها، تستشعر سـخونة أعمدة سريرها النحاسى.. وكانت قنوعة.. راضـية بما يفكر فيه نصفها الآخر المعـزول عن الرأس، وفى تلك اللحظة.. أحس أنه مثل «الخباز» الذى أنضج فطيرته على نار خاصة، **فاطمأن متـوجساً خائفاً على حلمـه في اقتحام قصر مولاه والبحث فى حجراته عن سر يريد معرفته!!**

وبينما كان مغادراً حجرتها، كان **الصندوق السحرى** يلفه بالكلمات المفرحة:

ورجعت اتهنى.. لما لقيت أحبابى

عندما قابل «شهد» أطلعها على ما كتب، فقرأ فى عيـنيها فرحة ملونة ثم باغتته وطبعت قبلة على جبينه، فأحس بقرص الشمس يتربع على جبهته وغاص فى حلم من الدهشة أيقظه منه صوتها:

ـ تعالى.

كانت قـد جذبتـه من يده فى فرح متطايـر مثل صحـبة ورد متـعانقـة فى رقة التلامس اللذيذ الذى يمهد للعناق.

جلس بجوارها. أفصحت عن إعجابها بكتاباته، وأكدت له أنها لاتزال عند وعدها بطبع الكتاب له عندمـا ينتهى من تسجيل خـواطره.. ولكنه وهو بجوارها **لم يهتم**

بما تقوله من وعـود، فقد تمـنى فى تلك اللحظة أن يغفو عـلى كتفـها ويغطى وجهه شعـرها الطويل ويحلم بأنه لا يعانى ألماً.. ولا يشكو وجعاً، فـإعجابها بكتاباته كان مثل «كمادات» الاطمئنان التى أوقفت نزيف وجعه الملتهب.. وظل فى حلمه لحظـات.. وأفاق على صوت مـوشح من ألحان «محـمد أفندى عثـمان» قادما من الصندوق السحرى عند الجيران:

لما سمح خـلّى بطيب اللقـاء   خَدْني وخشّ الروض وطالب وصـال
حبّيت أشم الورد.. قال الخُديد   ما أشْـوَق العشـاق بطيف الخـيال

أحسّ أنه دائمـا يتعلـق بالخيـال ويسافـر على أجنحـتـه ويفضل التـوهان فى سماواته التى لا نهـاية لها، وأفاق على يدها مرة أخـرى وهى تمسك به فى اعتزاز، فأحس بكفه مـثل سفينة صغيـرة تسير على مياه النـيل فى لوعة من مناجاة الموج عندما يصبح أسيرا للنيل، وتمنى أن يتوقف الزمن عند هذه اللحظة التى أحس أنها أول مـحطات الأمل، ولكنه تذكر قـولها «أصون كـرامتى»!!، فاعـتذر لأحلامـه وفضل عدم إفسـاد حلاوة قعدته مـعها مكتفـياً بما منحته له من سـعادة مؤقتة.

وهما فى هذه الحـالة، باح الصندوق السحـرى بشكوى «أحمـد شوقى» وغناء «محمد عبدالوهاب»

فـى الليل لمّا خـلـى   إلا مـــن البـاكـــى
والنوح على الدوح   للصـــارخ الشـاكـى
ما نعـــرف المبتلى   فى الروض من الحاكى

قالت «شهد»:

- ياسلام..

وقال هو :

- الله

ثم ابتلع لوعتـه وهو يشعر بحنـاجر المحبة فى قـلبه قد التهـبت بشكوى المغنى القادمة من الصندوق السحرى، ودون أن يـدرى، بدموعه تلامس خدّيه.. وأن قلبه يسقط أسفل قدميه!



أفاق من نومه على موشح يغنيه «**الشيخ محمد المسلوب**»:

أستاذ محاسنك علمنى الحب أصله وفصلُه

إوعى بقى إنت تلومنى دا مستحيل أنسى فضلُه

كان نشيطاً على غير المعتاد، وتذكر الليلة الماضية، فهو لا ينكر أنه يتعلم من «**شهد**» الكثير.. حتى جمالها مثل الأستاذ يتعلم منه.. وغضبها.. وفكرها.. حتى فى لحظات اعتزازها وغرورها يتعلم منها.

عندما رآها فى اليوم التالى، أفصحت له عن خوفها عليه.. وتعجبت من بكائه بالأمس.

نظر إليها نظرة مليئة بكل مشاعره نحوها.. وتحدث كأنه يتحدث إلى نفسه همسا:

ـ لا أعرف!!

سمعته، فسألته:

ـ إذن من الذى يعرف!!

قال فى تحد :

ـ أنت!

أدركت ما يقصده، بينما تذكر ما لحنه «**داوود حسنى**» وغنته «**الست سكينة حسن**» فردد معها:

طول عمرك موعود ياقلبى كام مرة تعشق وتهنّى

كانت قد سمعت همسه لنفسه، فغرقت فى صمتها وأحست بمرارة الصدمة لأنه فسر اهتمامها به خطأ، وشعرت بأن حنانها العادى له، وصله عن طريق ما ترجمه قلبه من أحاسيس، فجاءت الترجمة خاطئة، ولكنها لم تستطع إنكار إعجابها به حباً كصديق، فخفضت رأسها ولم تستطع مواجهته.

قطع عليهما استغراقهما فى لحظة شجن لم تكن ستنتهى لولا صوت « **محمد عبدالوهاب**» فى آخر فقرات نهاية إرسال **الصندوق السحرى**:

ياليل أنينى سمعتُه والشوق رجع لى وعاد

وكل جرح فى ساعتُه وكل فرح بميعاد

وكم من فارق وجعه وليل وهجر وبعاد

تركها مودعاً.. حاولت أن تلمسه، لكنها تراجعت كالفراشة الخائفة من الضوء..

خاصمه النوم في تلك الليلة.. وتمنى أن ينساها.. وأن يكف عن رؤيتها ويركز على ما يريد كتابته وأن يضع ميزانية خاصة لشراء الكتب، وقد أعجبه هذا التفكير، وهذا ما جعله يرتاح من وجعه، فغطس بين دفتي كتاب إلى أن غلبه النوم وهو يقاوم حلمه في اقتحام قصر مولاه والبحث عن سر لا يعرفه داخل حجراته الكثيرة!

★★★

مرت أسابيع وشهور ، ولم يلتق مع «**شهد**» أو أخيها «**إسماعيل**» .. وأيضاً كان لا يقترب من شباكه الذى يطل على «**ليلى**» خوفا من دعوتها له بالصعود إليها، وملأ وقته بالكتابة والقراءة ومحاولة فهم ما يدور حوله، ولكنه ذات ليلة توقفت يده عن الكتابة حيث قاطعه الصوت الخارج من **الصندوق السحرى** في كلمات كان قد غناها «**فريد الأطرش**» لأول مرة في أواخر عام ١٩٣٦:

باحب من غير أمل — وقلبى راضى وسعيد
وان طال عليّا الأجل — إنت الحبيب الوحيد
أشوف جمالك يوم — وتغيب عليا سنين
واسهر ما تعرفش النوم — وافضل فى حبك أمين

أخرجته الكلمات البائسة للمغنى المسكين الملتاع من عالمه الذى كان يتحصن به خوفاً من نفسه على نفسه، وأحس بالطقس مثل «الكماشة»، يضغط على رأسه بشدة وهو يشعر بالاختناق، ودون أن يدرى فتح شباكه الخشبى، فلمح «**ليلى**».. وكأنها ترسل له رسالة خاصة من صندوقها السحرى من كلمات «**حسين السيد**» وغناء «**محمد عبدالوهاب**»:

ساعة ما بشوفك جنبى — ما اقدرشى أدارى واخبّى
أبكى من فرحةْ قلبى — وانسى العذاب
يانور عيونى.. زادت شجونى.. دبّل جفونى كُتر الغياب

تلصص عليها من خلف شباكه. كانت تضع يدها تحت دقنها، وشعرها المسترسل على حريته كالعصافير الصغيرة المسترخية على الأشجار فى الليل، فلما لمحته نادت عليه، فعرف أن الجو آمن، ودون أن يفكر، ألقى بأوراقه وأسرع متسللاً

إلى حجرتها، بينما كانت الأغنية فى نهايتها:

طيفك دا تملّى شاغلنى ماطـرح ماتـروح يقابلنـى
أجى أضمّه.. يخايلنى ألاقيـــــه أوهـــــام
صعبان عليّا.. كُتر الأسيّه .. إرحم شويه.. وكفايه خصام

هللت فرحا به، وتشعلقت في رقبته، بينما كان قميصها البنبى يتطاير مع حركة اندفاعها السريعة نحوه.

قالت فى كلمات حفظتها من الصندوق السحرى:

ـ كفـاية خصــام يانور عيونى.. صـبّرت الشــوق على بُعدك.. كـان نفسى تحفظ عهدك.. أتاريك حنّيت لعوايدك.. وشغلت البال!

قال لها :

ـ وهبتك زهر شبابى

قالت:

ـ تلاوعنى .. برضُه باحبك

قال :

ـ طول الليالى.. شاغلالى بالى

فك يديها برفق عن رقبته وأجلسها قبالتـه.. متأملا ملامحـها كأنه يراها لأول مرة.. وفكر فى التعـامل معها بطريقة عقـلانية وإنسانية وليست حسـيّة، ثم سرح قليلاً ليـبحث عن شىء يبدأ به التـجربة، فتـذكر خطاب «**سعد زغلول**» فى الحفل التى أقامتها له نقابة عمال شركة السكك الحديدية فى عين شمس فى ٥ يوليو سنة ١٩٢٤ حيث قال:

أفتخر بأننى من «الرعاع» مثلكم!!

أخذ يتذكر كلمات من الخطاب، ويلقيها أمام «**ليلى**» وهو فى حجرتها:

«طبقـة «الرعاع» هى الأكثر عـددا فى الأمة والتى ليس لها صـالح خاص.. والتى مبدؤها ثابت على الدوام. مبدؤها الاسـتقلال التام لمصر والسودان.. إن الرجل صـاحب الأمـوال.. وذلك الموظف فـى المنصب العـالى إذا قـال «يحـيـا الوطن»، فإنما يقول «تحيا وظيفتى أو مصلحتى».. ولكن «الرعاع» أمثالكم ما تغيروا.. ولا بدلوا عقائدهم»!

نظر إليها فرآها مثل التمثال لا تنطق ولا تتحرك، وبعد لحظات أفاقت، فزجرته بيدها فى غضب وهى تصرخ فيه:

ـ «سعد زغلول» إيه يارايق.. و«رعاع» إيه.. وطبقة عاملة ولاّ عامية. أنا مالى.. وإيه اللى ح يودينى السودان.. و.. وطن مين دا بيتباع فين علشان يسلينى ويبسطنى؟! إنت أكيد جرى لعقلك حاجة!!..

ثم قامت فى اتجاه **صندوقها السحرى** وضغطت على مفتاحه، فانطلق مايعبر عنها، فتمايلت فى دلع وهى تقول له:

ـ عجيبة يابن الناس.. ح تفضل لإمتى مش فاهم الدنيا!

كان **الصندوق السحرى** يذيع أغنية قام بغنائها عدد كبير من المطربين والمطربات.. أما الصوت الذى غنّى فى تلك اللحظة، فكان «**عبداللطيف البنا**»:

إرخى الستاره اللى فى ريحنا لأحْسن جيرأنا تجرحنا
يامبسوطين.. يامفرفشين يامزقططين قوى يا احنا

وبسرعة. عملت «**ليلى**» بنصيحة **الصندوق السحرى**، فأسدلت ستائر شباكها وهى تهمس له:

ـ ارتحت بقى؟!.. ياريت تريحنى!

نظر إليها وهو فى حالة من اليأس المحبط، وأحس أنه فشل في تعليمها أي شيء.. وتأكد أنها لا تفهم سوى لغة واحدة، وعليه إن أراد لعلاقته الاستمرار أن يرضخ لها.. ولكنه من داخله كان يرفض هذا النوع من الاستسلام لأنه أصبح ناضجاً بما يكفى.. كارهاً أن يظل لعبتها التى تلهو بها حسب مزاجها ومشاعرها الساخنة التى لا تعرف التريث، فهو يبحث عن أمان الحب.. لا عن ثورة أو معركة تدور رحاها فى حدود أربعة أعمدة نحاسية تتوسطها مرتبة قطنية هى الحلبة؟!.. لذلك لجأ إلى حيلة للهروب من الموقف باستحضار صورة «**شهد**» لكي ترطب من سخونته وصهده الذى تشعله «**ليلى**».. ووصل إلى مسامعه صوت موج النيل وهو يهمس فى رقة وحنان لخدود الشاطىء كلمات حانية، وفكر فى المقارنة بينهما فى محاولة للاختيار جاءت فاشلة وصعبة، فهو فى موقف لا يحسد عليه «**عين على النار.. وعين على الجنة**»!!

طالت تأملاته التى وأحس بفشله، وأفاق على «ليلى» تزجره فى نرفزة غاضبة لم يتعودها منها وهى تقول:

- بتفكر فى إيه يا افندى ياخربان.. يابتاع الكلام الفاضى!!

سألها:

- أى كلام!!

قالت :

- الكلام اللى أنت وقّعت بيه راسى فى رجليّا وخليتنى عاملة زى الفرخة الدايخة!

كان قبل غضبتها قد وصل إلى موقفه المائع.. عين على النار.. وعين على الجنة.

لم تيأس «ليلى» من حالته، فأخذت تتمايل راقصة مثل آكلى لحوم البشر فى الغابات الأفريقية المجهولة، المعروفة في الحواديت، بينما كانت تغنى غناء خليعاً، فى أغنية كانت قد عنتها «منيرة المهدية» وغيرها:

قلبى بيطب وخايفه عندك شبّاك نواحى العطفه
إقفل درفه.. وافتح درفه وقوم نغيّر مطرحنا
قعدتنا هناك دى كانت غلطه
ناولنى الكاس يكفى مغالطه

كانت المفاجأة هى الزجاجة التي أمسكت بها فى يدها وهى تتلوى مثل عود البرسيم عندما تقترب منه نحلة نشطة فى موسم الربيع وهى تقول:

- علشان تنسى كلامك التقيل اللى عايز تعلمهولى عن «سعد زغلول».. يا أخى أنا مالى باللى فى دماغك.. أنا أعرف بس عم سعد البقال اللى على ناصية حارتنا.. باشترى منه الحلاوة الطحينية.. إنما عم سعد بتاع «الرعاع».. إنساه دى الوقتى.. الأول قوللى.. يعنى إيه «رعاع»!!.. ما علينا.. مالوش لازمة!

ثم ملأت له كوباً قدمته، فشربه دفعة واحدة من شدة غيظه.

قالت وهى تتصنع دلع الحنيّه النسوانى:

- ما ينفعشى.. خُد لك شفطه.. وادينى شفطه»!، فأعطاها كوبه وأصر بعد أن

ملأته على أن تشربه هى..

قالت:

ـ باين عليك عـايزنى أتدهول علشان تصـول وتجول على مزاجك يـالئيم.. بس ياروحى.. أنا ما استحملشى.. نفسى تصهلل انت وتصهللنى معاك.

رآها فى حالة مـختلفة عن المرات الكثيـرة التى رآها فيها من قـبل، وكان هو فى غاية الانبسـاط لسيطرته على جمـوحها المجنون، فـأخذا يتناسيان مـواقف الشغب بينهمـا، ثم وجدها فى النهاية مـثل «المخدة» القطنية المبللة بالعـرق وهى ملقاة على حافة سريرها النحاسى لا يغطيها سوى صمتها الفجائى.

لم ينكر أنه كان سعيدا بلحظات نهاية تنمـرها وفرعنتها، فأوقف نشاطه الذهنى واستلقى بجوارها دون محاولة منه للتفكير فـى أي شيء.. واستمر أكثر من ساعة بجوارها، كان يبحث فيـها عن معنى الصفاء.. **ولكن هذا الوضع لم يمنحه الكثير من الهدوء النفسى الذى آنسه بطمأنينة.. فحركت «ليلى» يديها وكأنها تحاول الإمساك بقضيب سريرها النحاسى.. كانت ترفس مثل حيوان مقيد فى الأسر.. ودون أن يدرى، وجدهـا تحاصره بجـسدها ورجلـيها ويديـها، فأمـسكت به، فأحس أنه قد أصبح هو الذى وقع فى أسرها.**

كانت نصف مـستيقظـة ونصف نائمة، وعندما حـاولت النهوض، بدأت تصطدم بكل شيء فى حجرتها إلى أن وصلت إلى صندوقها السحرى فأغلقته واتجهت إلى دولاب ملابسـها وأخرجت فستان فـرحها وارتدته ووضعت الطرحة فـوق راسها وهى تغنى أغنية «**الست توحيدة**»:

ماتحســبوش يابنـات	**إن الجــواز راحـــه**
أول ســبوع يابنـــات	**ع الفـرش مرتاحـــه**
تانى سـبوع يابنـــات	**خوخـــه وتفاحـــه**
تالت سـبوع يابنـــات	**حمــاتى ردّاحـــــه**
رابـع سـبوع يابنـات	**فى البـيت نوّاحـــه**
خامس سـبوع يابنات	**ع القاضى سـوّاحـــه**
سادس سـبوع يابنات	**على بيت أبوها راحّـه**
مـفيش لزوم يابنـــات	**تتجـــوزوا بالمـــرّه**

بعد غنائهـا ارتمت على أرض الغرفــة فى وضع المحكوم عليه بالإعـدام وأخذت تبكى فى صمت وهى تغطى رأسها ووجهها بطرحة الفرح.

كانت «ليلى» تبكى مأساتها التى لا يعرفها غيرها، وهو لم يحاول معرفة سبب بكائها .. وأسرع بالعودة إلى حجرته، حـيث شاهدها من خلف شباك نصف عارية وهى لا تزال فى نحيبها، فابتعد عن الشباك، وجلس إلى مكتبه محبطاً بين الجدران الأربعة وهو يشعر بالوحدة مثل سجين فى زنزانة ولا حول له ولا قوة..

كان يرقب «ليلى» من شبـاكه وهى نصف عارية، غـارقة في بكائهـا، لا يعرف السبب.

وأحس أن الفـرح بلا مجداف.. ومـشاعـره مثل مـشاعر الملاح الخـائف من عاصفة قادمة.



خـــايـف يكـون حـبك لـيـا   شــفــقـه عليّا
وانتـى اللى فـى الدنـيـا دى   ضــىّ عنــيـــا
إكــمـــن مــغــرم بـهــواكى   ولا بـاســلاكى
رضـيت بـجـفـاكى ورضــاكى   خـالص الـنيّـه

غناء :

أم كلثوم

ولد..و٤ بنات

يحلم بدون هدف..
ويفكر بلا رأس..
ويضع خططا وهمية بلا منطق.
بعد لحظات.. تخيل أن«ليلى» تناديه:

ـ «أسمر ملك روحى.. ياحبيبى تعالى بالعجل»!..

ولكنه كان الصوت الخارج من **الصندوق السحرى** فى حجرتها.. وكان الغناء الست «منيرة المهدية»:

ليـه أحــبك تهجرينى   وتجـرحى مـنىّ الفؤاد
كـنت ليه بتعشــمينى   لما قصـــدك فى البعاد
إنت عقلى وانت روحى   إنــتى أســباب الأسّيه

وعندما بدأت فى الكوبليه الثانى، أحس أنه يترجم شوقه وحالته، فتذكر «**شهد**»:

يعنى عاجبك كُتر نُوحى ولاّ إيه يانـور عنيّـا
دا البعاد والتقل يجـرح هـوّه قلبك من حـديد
يا لاّ نتعاتب ونسـرح يالاّ نعشق من جديد

وجد الأفضل له أن ينام، ولكن السهاد كـان قد قرر أن يلازمه، وأحس بسخونة المرض وليست سخونة الموقف، فأخذ يهذى:

ـ أنا ورده تدبل بين إيديك وشمعه تنقاد حواليك وكل آمالى فى حبك.. تكون عنيا فى عنيك!!

الحمى داهمته فـجأة وأحس بوجع فى رأسه وجسده، والحرارة العـالية أجبرته على المزيد من الهلوسة:

فاكهتك حلوه ومرّه ونا اللى زارعها فـى أرضي سقيتها من دمع عنيّا.. وشوكها جرّح إيديا.. وكل ما آجى أقطف منها.. ماتهونشى ياروحى علياّ!!

حاول فى هلوسـة المرض أن يدخل قصـر مولاه لاكتـشاف السر فى حـجراته الكثـيرة، ولكنه فـشل، وظل فى مرضـه ثلاثة أيام لم يغادر حـجرته.. وفى مـساء اليوم الثالث، كان صندوقه السحرى يوجه رسالة وهمية منه إلى «**شهد**» من كلمات «**أحمد رامى**» وغناء «**أم كلثوم**»:

خـايف يكـون حـبك ليا شـفقه عليّا
وانتى اللى فى الدنيـا دى ضـىّ عنـيا
إكمـن مـغرم بهـواكى ولا باسلاكى
رضيت بجفاكى ورضاكى خالص النيّه

بعد غيابه الطويل عن «**شهد**»، أحس بأنه يعاقب نفسه.. وأنه لايزال يفكر فيها.. وأحست هى بغضبه منها فى آخـر لقاء، فقررت زيارته وهو على وشك الشفاء من الحمى التى أصـابته، فـهالها حـالة الضعف وضـمور وجهـه وحالة الإحـباط التى تسيطر عليه، وبقـايا دموع متجمدة فى عينيـه، فلم تتمالك نفسها، فـاحتضنته فى حنية أم لوليـدها.. واستسلم إلـى حضنها الذي بعث الكهـرباء إلى حواسه وشـعر بالاطمـئنان، بينمـا كان الصندوق السـحـرى يبروز اللحظة بصـوت «**ليلى مراد**» العسلى:

حبيبى إنت الوحـــيد ومهما تقسى حبى يزيد
لالية غيرك.. ولا ليّاحدّ ولا أفتكـرلك غير كـل ودّ

لا يفكر أنه كان لايزال غاضباً منها، فلم يستطع النظر إليها، فبادرته قائلة:

ـ أنت صديقى.. فلا تغضب منى لأننى أحبك فعلاً!!

نظر إليـها كـالميت الذى عادت إليـه الحيـاة.. ومع ذلك لم يجد مـايقوله، بينـما أكملت: **ـ أنا بحبك أكتر من «إسماعيل» أخويا..!!**

عاد إلى مـوته الصامت مـبتلعاً وجع الكـلمات، فغطس فى فـراشه بينمـا كانت تتحسس رأسه ووجهه، فـقد عاودته الحمى، وأحس وهى بجواره كالوردة الذابلة.. وأن عـلاقتـه بهـا مثل طائـر لم يتعـود العـيش فى الخلاء الـقاحل أو على رمـال الصحراء بلا مطر.. ولا أشـجار أو نسمـة حانية تلاطفه من وقت لآخر.. **إنه يشعر بالعطش دائماً وهو معها!**

ظلت بجواره إلى أن هبطت سخونته، فودعـته.. وعاودته في اليوم التالى.. بينما كان **الصندوق السحرى** قد تدخل بينهما:

جمعتنـــا الأيـــام والصفو رجع تانى

كانت ودودة فى حديثها معه، وأحضرت معـها أكثر من سبعة كتب ليقرأها إلى أن يطيب، فهى لا تنكر انجذابها إليه وإعجـابها به.. وراهنت بينها وبين نفسها بأنه سيحقق شيئاً فى المستقبل فى دنيا الأدب.

لم يسـتجب لتـوددها إليه.. مـتحـيراً من خـوفـها عليـه، بينما كـان الصندوق السحرى يعبر عن حالهما بطقطوقة من تأليف «**على شكرى**» رلحن وغناء «**صالح عبدالحى**»: فهو لم يكن يتمنى حبها:

حيرتنى ياللى هويتك
ياريتنـى كنت ماجيتـك

وهى تناجيه.. ولكنه لا يعرف هل هو.. أم شخص غيره؟!، فسمعها كنسمة خجولة:

ـ تشـهد عليـا نجــوم الليل والبدر لما أبــات سـهران
ياما قاسيت فى هواك الويـل والقلب من هجرك حيران

أحس بالعطش، فناولته «**شهد**» كوباً من الماء، فابتلع به كلمات «**أحمد شوقى**» التى لحنها «**رياض السنباطى**» وغنتها «**حياة محمد**»:

وما العشـــق الاّ لـــذة شــــــقوة كما شقى المخمور بالسكر صاحيا

وعندمـا ودعته، كـان الصندوق السحـرى يردد أنشودة وجـعه الذى لا ينـتهى بكلمات «**مأمون الشناوى**» ولحن «**عبدالوهاب**» وغناء «**محمد عبدالمطلب**»:

ظلمتنى وخفت أشـــكى تزيد ياروحى فى الأسيه
فى وحدتى فضلت أبكى ع اللـى مايبكيـش عــليا

بعد رحيلهـا أحس بالضيق وأنه يختنق.. وكانت درجة حـرارته تهبط.. ثم تعود للصعـود.. وكان المتحكم فى تردداتها حـالته النفسيـة، فحاول الخـروج من تلك الحالة، فاختـار أقرب موقع له وتذكر «**فهيمه**» ولم يترد، وصعد إلي سطح منزله، ثم قفز إلى سطح منزلها منفعلاً متعجلاً.. فـأيقظ حمامها فى عشته فطار خائفا فى الجو.

هرولت لاسـتطـلاع الأمـر.. وشـاهدته وهو فى حـالة يرثـى لهـا من الإرهاق والتعب.. ولكنها فرحت به وابتسمت له قائلة:

ـ غيابك طول كتير!..

ثم جذبتــه، وفى تلك اللحظة أمطرت السـماء دون سابق إنـذار.. ولم يجدا سوى عـشة الحمـام للاحتماء داخـلها، وأحس أنه اقتـرب من عناوين جديدة دافـئة.. فـقرأها فــى نهم.. وتعلم اجتـيـاز المعانى، بينـما كـانت قطرات المطر تتساقط فى حبات ساخنة أغرته بالانكماش!!.. وأحس أنه مثل العازف التائه الذى استمر يعزف على كمنجة يتيمة كانت تحتاج للصراخ فى شجن!

وهو يهبط السلم عائداً من السطح إلى حجرته، تذكر مولاه الملك **فاروق** بشاربه الرفيع وطربوشه الأنيق. **وعاوده الحلم فى دخـول قصره للبحث فى حـجراته الكثيرة عن سر لا يعرفه!**

★★★

استمر فى معاندة نفسه، فكلما تذكر «**شهد**» لسبب ما، كان يحاول **إبعادها**.. بل كان كلما حاول التفكير بها شعر بضغط هواء كسّول يعبر خلال رئتيه المتعبتين إلى

رأسه، فيصيبه بما يشبه الإغماء.

حاول فرد جسمه، فتمدد على سريره متعباً كأنه خرج من زمن الاضطهاد إلى زمن المواجهة، وعليه أن يصمد في مواجهة نفسه ويهتم بالقراءة والكتابة، مؤكدا أن حبه لـ «شهد» مثل القارة المفقودة التى لن ينعم بثمار فاكهتها فى أي موسم.

في رقاده جاءه صوت **الصندوق السحرى** من حجرة «**ليلى**» وكأنها هى التى تشكو وجعا فى رسالة يائسة إليه:

الغيبه طالت.. والوجد طال
حرام دا يعنى ولاّ حلال

لم يهتم برسالة **الصندوق السحرى**.. وأحس أنه فى حالة لذيذة من الاستسلام لضعفه ووهنه وهلوسته وهو غارق في سريره.. لاهثا.. يطلب الاستغاثة بمن يمد إليه يده لإنقاذه.

كانت «**شهد**» الجالسة فى شرفتها المطلة على النيل، تحاصرها الحقائق وهى تحاول الهروب منها، فهى خائفة.. وسنوات عمرها تجرى.. والبنات فى عمرها يتزوجن، وهى لاتزال تتعامل مع الذى تحبه ولا يحب عقلها فى رومانسية لن تصل بها إلاّ لطريق مسدود.. فهو يرفضها لأنه لا يرى فيها لمحة الأنوثة التى تجذب الرجل للمرأة.. وهى تراه فارسها رغم قسوته عليها، ولكن إلى متى: «**ياما قالولى الحب هوان.. واللى بيعشق راح يتألم!..**

وأحست أنها محاصرة بتخيلات وجوه كثيرة من تلك الوجوه التى تراها فى الندوات والاجتماعات السرية فى **الحزب اليسارى** الذى انضمت إليه بعد أن تركت **حزب الوفد** لتحقيق العدالة بين الناس.. **وإسقاط الملكية**.. وجوه لا تعرف مدى صدقها، فأغلب أصحابها مثلها من الأغنياء.. ومنهم أولاد باشوات.

عندما فكرت «**شهد**» فى قلبها وعواطفها وحالها، صعبت عليها نفسها، وهى تستمع إلى أغنية كتبها «**أحمد فتحى**» من غناء المطربة «**ملك**»:

انظرى لون شجونى أنا شمس فى غروب
ودعت أفق مناها وانحنت نحو المغيب

تأوهت وهى تهمس لنفسها:

آه من سهد الليالى   عذّب الشوق خيالى

كانت « **فهيمة**» هى الأخرى تعانى من وحدتها، فهى يتيمة الأب ومطلقة.. ولم تكمل دراستها.. ووحيدة أمها.. ولا تعرف فى الحياة أي شيء.. وتنحصر حياتها فى حجرتها تسمع الأغانى.. وتقضى وقتها على السطوح لإطعام حمامها ودجاجها.

كان صوت **الصندوق السحرى** الذى تملكه يبث شكواها على شجن « **زكريا أحمد**» وغناء «**بثينة محمد**»:

أحب أشوفك قدام عيونى   وان غبت عنى تزيد شجونى
والسهر يرجع يزور جفونى   وتسيل دموعى والدمع غالى

أما «**ليلى**».. فأحست بالتوتر لعدم ظهوره أو زيارتها منذ مدة.. **بينما** كانت الأغنية لا تزال مستمرة وهى تعبر عما أرادت أن تقوله لنفسها متسائلة:

هوّه اللى حبك يهون عليك   كفايه دمعى.. الدمع غالى

وكان الغناء الصادر من الصندوق السحرى الذى تسمعه « **فاطمة**» يؤكد دهشتها من غيابه:

هاجرنى ليه   ظالمنى ليه
ونا أعمل إيه
روحى وروحك فى امتزاج

كانت « **شهد**» و«**ليلى**» و« **فهيمة**» و« **فاطمة**» قد قررت كل واحدة منهن أن تذهب للسؤال عنه، فلم تكن من عادته الاختفاء الطويل، وشاءت الظروف دون سابق اتفاق بزيارته فى حجرته الصغيرة المليئة بالكتب على الأرض وعلى الكراسى وعلى السرير.. وأوراقه متناثرة بلا ترتيب.

نظرت كل واحدة منهن للأخرى فى تساؤل صامت.. وفوجئن به منكمشاً فى سريره والعرق يتصبب منه وكأنه لايزال فى هلوسة الحمى.. **يحلم بأن مولاه الملك « فاروق» قد تم القبض عليه.. وثلاثة حراس قساة الوجه يعذبونه بالكرابيج.. بل جرؤ واحد منهم بإلقاء طربوشه الأنيق من فوق رأسه على الأرض.. والثانى قام بحلاقة شاربه الرفيع.. والثالث بدأ فى خلع بنطلونه**

الشيك ووضع قدميه فى «الفلكة» وأخذ يضربه بعصا غليظة ، فبدأ مولاه فى الصراخ والاستغاثة.. وأفاق مذعوراً على ما أصاب مولاه.. واعتدل فى فراشه، ففوجىء بوجوه حبيباته الأربع ينظرن إليه فى شفقة. وأسرعت « شهد» بإحضار كوب ماء ليشربه وهى تتحسس وجهه الذى يؤكد أن درجة حرارته ربما تجاوزت الأربعين، فطلبت من الثلاث الواقفات مجمدات أن يسرعن بإحضار بعض قطع الثلج لعمل كمادات للتخفيف من حرارته.

وقبل هبوط حرارته، طلبت « شهد» من الفتيات أن يتركنه لأنه فى حاجة إلى راحة.. وجلست بجواره تداويه بالكمادات.. وعندما تحسنت حالته قليلاً أسرعت باستدعاء أحد الأطباء من أقاربها الذى أعطاه حقنة وكتب له بعض الأدوية.

غاب فى النوم بعد دقائق بمفعول الحقنة المهدئة.. بينما كانت «شهد» قد وضعت رأسه على صدرها وهى خائفة عليه، وصوت الصندوق السحرى يأتى من شباك «ليلى» حزيناً آسياً.. خائفا ملتاعاً فى غناء «أم كلثوم»:

حطيت على القلب إيدى   ونا باودّع وحيدى

أحست «شهد» أنها تكره لحظات الوداع.. وأحس هو بالطمأنينة.

استغرق فى حلم غريب. وجد نفسه ضمن جوقة من الرجال تلامس أقدامهم مياه البحر.. وعدد من الفلايك الصغيرة المليئة بالنساء وهى ترحل بعيداً، بينما كان يغنى مع الجوقة موالاً حزيناً كان قد سمعه من المطرب «محمد أفندى الصغير»:

ياكُتر نوحك على الأحباب ياقلبى	البعد طال وانجرح قلبى
ياناس فراق الحبايب ما ارتضاش قلبى	وادى الأرض أسودّت منّى ومن قلبى
كلام عزولى لمحبوبى كَوَى قلبى	ح اكتب لك وميّل قلبك على قلبى
لا باسهر ارتاح ولا بانعس يجينى نوم	النار بترعى فؤادى وتكوى فى قلبى

وفجأة أعلن البرق تواجده على صفحة البحر.. وانتفض الرعد، فانهمر المطر.. ووجد الجوقة تغرق.. وهو أيضاً، ثم وجد نفسه على الشاطىء ودفء مثل أشعة الشمس يجفف بلله، ومن فرط التلامس، كان الدفء المنبعث منها مثل الأدوية المسكنة، فبدأ يسترد وعيه.. وبدأت حرارته فى الهبوط، بينما كانت سخونة جسده تتلاحم مع صهد منبعث من «شهد» الجالسة بجواره.. وحاول

التحقق من تواجدها، فلامسها.. بينما كان أحد الديوك يعلن قدوم الصباح.

قالت :

ـ الحمدلله .. الحرارة انخفضت!!..

ثم أعدت له إفطاره وهى فى قميص نومها الذى رآه لأول مرة. كان من الساتان الأسود المشغول بنوع رقيق من الدانتيلا فى تشابك زخرفى جميل.

كان لايزال موجوعاً من آثار الحمى.. وكان **الصندوق السحرى** قد تضامن مع مشاعره خوفاً من رحيلها:

قبل ما أبعـد عـنك بدّى أشـوفك مرّه
تحكى واسمع منّك واروى قلبى بنظره

أما «**شهد**»، فقد استغرقها الإبحار فى الكلمات التى لحنها «**رياض السنباطى**» وغنتها «**نجاة على**»:

لا صـبر بيداوى المجـروح يطفى لهيبُه
ولا قلبه ينسى البكا والنوح ولا تعذيبـه
واسينى.. نُوح ويّاى
وابكى ياقلبى لبكاى

اعتدل في فراشه.. وسافر على شجن لحن مغلف بالوجع مع موسيقى «**محمد القصبجى**» وكلمات «**أحمد رامى**» وغناء «**أم كلثوم**»:

أحب أقول اللـى ف بالى
يصعب عليّا ضنا حـالى
الشوق تعب بينُه وبينى
من ما أبعـت واسـتنى

أما «**شهد**» فقد لمس قلبها وجع الكلمات التى تساءلت:

آجى أقول اللى ف بالى يصعب عليا ضنا حالى

أحس أنها تعانى من اللحظة التى تعايشها.. فهى لحظات جديدة عليها.. ولكنه رآها منجذبة لها، متمنية عبور البوابات المغلقة على حبها لرجل لا يعيرها أي اهتمام، بينما تحلم وتتمنى مثل أي فتاة بالانتماء إلى قلب يحبها ولا يرفضها.. قلب

يمنحها حنان الدفء وفرحة اللقاء.. ولكنها أصبحت تخاف بعد تجربتها الأولى التى عقّدتها وجعلتها تتذكر دائماً أن الذى أحبته كان لا يرى فيها أي أنوثة.. ولذلك تطبعت بطباع الأولاد سواء فى الملبس أو الحديث.. والمعاملة.

أنقذها من الصور الحزينة التى تمر بها الصوت القادم من الصندوق السحرى فى كلمات تعبر عن حالتها:

حدّثت روحى كتير وقليل   لمّا أقابله.. أتكلم
وكان في عينى ألف دليل   عن الفؤاد المتألم

أما هو، فقد أحس أنه يسترد وعيه.. ولاحظ انجذاب «**شهد**» له.. ولم يعرف هل هذا بسبب مرضه.. أم هو نوع من الهلوسة التى عاشها بسبب الحمى.. أم بالفعل قد حدث نوع من التحول فى موقفها!!..

كان حريصاً على الاحتفاظ بهدوئه والتظاهر بعدم الاهتمام، وبدأت حواسه تستيقظ فى محاولة للتدخل فى موقفه.. بينما كانت «هى» تقترب منه، فغمره إحساس بالتخاذل. ولم يعرف سببا لهذا التحول.. وحاول انتهاز الفرصة والتعامل مع اللحظة بعيداً عن النكد وجلب المتاعب لقلبه الموجوع الذى يرغب فى مداواته.. وكانت لا تزال فى قميص نومها الأسود ورأسه المرهق فى استراحة على صدرها. **كان يسمع دقات قلبها الذى أحس به مثل رمانة انفرطت حباتها متدحرجة على رأسه ووجهه، ثم انزلقت على أرض الغرفة فى حالة استنجاد بمن يوقف نزيف الوجع والحيرة، فاقترب من فكرة الصدق في مشاعرها.. وفى لحظة افتراضه، كانت تضمه مثل الوردة فى رفق، وتداعب سخونته بشفتيها لترطيبها لكى تذهب عنه حرارته.. وشعرت بأنه وحيدها..** محبوبها الذى عثرت عليه فى صحراء حياتها المحرومة من مياه الأمطار فى جميع المواسم.. ورآها شاردة فجأة وهى لاتزال تحتضنه مع الكلمات التى تتحرك مثل النسيم الذى أثقله حرّ صيف قائظ:

«وآجى أقول اللى فى بالى.. يصعب عليّا ضنا حالى».

سمعها تردد المعنى السابق، فقال لها فى هدوء:

ـ قولى مايدور فى عقلك!

قالت :

ـ خايفه.. بشوف دموعى بتـشكى لك نار الأشواق، تسمع لسانى بيحكيلك وجعى المشتاق، ونا حاسه إن عيونى بتتكحل بيك.. وأنا خائفة فعلاً!!

كان يجد لهـا الأعذار لعدم قدرتها على ترجمـة ما فى قلبها، فهى عادة يـعرفها من خلال قراءاته أن مثلها ـ سواء رجل أو امرأة ـ يحب التماسك لكى يظهر بمظهر الصمود، وكثيرا ما يدوس بقسوة على عواطفه ورغباته.. ثم يندم بعد ذلك.

أحس أن سـريره يغوص بـه إلى ما تحت الدور الأسـفل من منزله، مـخـترقـاً حواجـر الأرض من شدة شـجنه الذى أثقل وزنه، فظن أنه يحلم، ولكنه آفـاق على صوتهـا الذي كان يعزف علـى جلده وعلى سخونتـه التى ارتفعت من جـديد بفعل حرارة الموقف.

قالت :

ـ شايفه نفسى.. الدنيا مرايا.. وشايفه أسايا بيروح عنّى

قال فيما يشبه الحلم:

ـ النوم يداعب جـفونى من كـتر وجعى.. إبـعد يادمعى عـن خدودى.. ونا كنت باحلم.. يمكن في يوم مرة تحبينى.. ياللى ودادى صفالك!!..

ثم أكمل حديثه المتقطع لنفسه الصوت القادم من الصندوق السحرى:

انتى فاكرانى

ولاّ ناسيانى

قالت:

ـ أول مرة أشـوف الدنيا بتضـحك لعيونـى.. وأنت والنجوم عليّا شـهود.. أنت حلمى اللى خايفه.. عليـه واللى وصلت إليه بعد انقشاع سـحابة رمادية عن سماء مشاعرى!!

كان من خلال حديثها إليه، يحس بأنه يخرج من جديد من باطن أرض حجرته.. ومن داخل جدران منزله مستسلماً للحظات الدهشة التى كانت تحاصره!!

قالت :

ـ إنت العيـون اللي أسرتنى.. وانت اللى حضنك دا معـذبنى.. صدقنى.. يا أول فرحة وموعد.. ودفء اللحظة المختلفة فى فؤادى وخيالى!!

و.. بدلاً من الوقـوع ضـحـايا لتـبادل الشـكوى والمناجـاة، غطس الاثنان تحت

الفراش.. وكان الإحساس الدافيء مختلفاً عن كل تجاربه النسائية السابقة، فلغة الحضن وللمسة المشاعر في سلة واحدة جعلته يتعمق فى شوارع الفرح، وكانت «شهد» تمتلك لغة متفردة خاصة بها، ولأول مرة يتوصل إلى معنى اللذة بلا حرب مع الأغطية.. أو فركشة على الفراش!!

كانت الحرب هادئة فى تفجير قنابلها التى اخترقت الممنوعات.. وعبرت الجسور..وأشعلت النيران فى الحصن الذي كان منيعاً، مستسلما للحصار حيث أعلن قائد الحرب فجأة عن انتصاره!


MO
ST

من الحـب لو تـخلى الـدنيـــا
كـــان فى الحب يفــضل لـنا إيه
ولا روح تنـاجى روح تانـيـــه
ولا قلـب يعطـف قلـب عليـــه

غناء :

كارم محمود

عندما يتوجع الشهد!

أصابته لوثة لأنه لا يصدق ما حدث.. وازداد جنونه لإحساسه ـ الخيالى ـ بالانتصار واقتحام الممنوع فى مدينة «شهد» التى تحميها أسوار العقل.

لا ينكر أنه قـد بدأ يعانى لأنه احتـضن حلمه الغـامض، فهـو رغم وصوله إلى شواطىء الأمان التى فـتحت له أبوابها « شهد»، كان الغضب يفـور داخله، فيطفو خياله متدفقاً فى سؤال تائه:

ـ كيف.. ولماذا؟!

كان لايزال واقعا تحت تأثير بعض سخونته، لذلك لم يصدق حلو اللحظات التى مرت به، فحاول النهوض من فراشه بعـد مغادرتها بوقت قصير.. ولكنه ترنح من الضعف.. **وهو لا يصدق مـا حدث..** وفى نفس الوقت **يريد الاطمئنان ومـعرفة**

الحقيقة، فهل الساعات التى مرت به كانت حلما.. أم واقعا؟!

غرق فى هلوسته من جديد بعد أن اشتعلت السخونة فى جسده واحتلت رأسه وتمكنت من تحجيم أعضاء جسده، فاستلقى مستسلما للهواجس:

ـ ياللى انت كنت بعيد .. أحب أشوفك كل يوم بعد مارجعت لى.. وعادت ليالى الهنا.

★★★

ذهب فى اليوم التالى إلى مسكنها وهو يلملم لهفته، ممسكا بوردة، وابتسامة خائفة تغازل حيرته، فاستقبلته «شهد» فى ترحاب.. وجلسا فى شرفتها الخشبية التى تطل على النيل بعد أن شكرته على الوردة الجميلة وهى تقربها من شفتيها.

حاول استكشاف ما حدث بالأمس من خلال حواره الصامت معها، والذى بددته بسؤالها:

ـ هل أنهيت ما كنت تنوى كتابته عن فن «العوالم».. ثم أين كنت مختفياً طوال هذه المدة؟!

فى تلك اللحظة.. تأكد أن ما مر به بالأمس من ساعات ليس له علاقة بالواقع، **وإنما كانت هلوسة من صنع خياله نتيجة الحمى التى كانت قد أصابته، فابتلع لهفته التى كان قد قطفها من حدائق الفرح.. وحاول الإمساك بحبال اشتياقه، ولكنها كانت قد انقطعت، فسقط فى بئر من الصمت وعيناه ملعقتان على جناح نورس تائه على صفحة النيل التى كانت تتحرك فى هدوء مطمئن.**

كررت سؤالها مرة ثانية: وتعلق صمته بعينيها اللامعتين ببريق الصراحة:

ـ لم تعد تعجبنى وأنت فى مثل هذه الحالة!!

فكر فى الهرب من أسئلتها باسترجاع حلمه عن قصر **الملك**، لأنه خاف أن يكون هو أيضاً حلماً مزيفاً، ولكنها قطعت عليه هروبه.. وأحست أنه يعانى وهى تعيد شريط اعترافه بحبه لها.. وماحكت له عن حبها للرجل الذى تحبه.. ولايحبها لافتقارها إلى الأنوثة، فقالت:

ـ خيالك يتعدى الواقع لبناء دنيا خاصة بك.. وأنا أقدر هذا فيك.. فأنت صديق جميل أحبه!

داعبته بيدها بلمسة على خده وهى تهمس:

ـ أنت مجنون.. وتعيش فى «كنز» من الهوس.. وتعشق إغراق نفسك فى دوامات الوجع.. وتعشق التحليق مع حلمك وعالمك الخاص الذى تريده.. ولا أحد غيرك يعرفه!

أحس أن الحمى قد بدأت من جديد تشكل هجوما على جسده وعقله، وشعر بأنه عصفور وحيد يقف على شجرة جرداء.. بينما تعجز جناحاه عن حمله للهروب إلى الفضاء الرحب بعيداً عن التيه لممارسة حقه فى التواجد على شجرة مثمرة بأوراقها الخضراء، فسقط بعد أن أدمته طعنة اللحظة ومرارة الحقيقة إلى منطقة بلا منطق، فاحتضنته حيرة غامضة.. وأحس بالكلمات على شفتيه لها مذاق المرّ فى حلقه، فلم تستطع الوصول إلى لسانه أو شفتيه اللتين أصابهما الجفاف بفعل عاصفة «**شهد**» التى جاءت محملة بالحقيقة، فتحطمت داخله كل قوارب النجاة التى كانت تقف خارج منطقة القلب والإحساس لإنقاذه!

كانت المرة الأولى التى تراه فى مثل هذه الحالة، فحاولت التوصل إلى مفاتيح أبوابه الصامتة دون جدوى، وأخيرا قالت له:

ـ سنذهب غدا.. أنا وأنت وإسماعيل لمشاهدة فيلم «أولاد الفقراء»..

لم تنتظر رده.. ولم يبد هو أي اعتراض حيث كان لايزال مذبوحا من هول الصدمة!!

كانت سينما «**الكورسال**» يقف أمامها الناس فى طابور طويل وهم يرتدون كل أنواع الملابس.. وكانت قصة الفيلم التى كتبها «**يوسف وهبى**» ومن إخراجه وتمثيله أيضا، قصة يغلفها حزن شديد وبؤس مقيم.. وقد حققت القصة شهرة كبيرة فى المسرح من قبل إنتاجها سينمائيا. وكان ملخصها يدور حول «**نصرة المظلوم على الظالم.. والضعيف المسكين، على القوى المتجبر**».

لم يحبذ الطريقة المباشرة فى القصة ولم تعجبه فكرة الفيلم، فهى معادة، ولذلك قرر دعوتهما لمشاهدة فيلم «**ممنوع الحب**»، فالعنوان يعزف على أحد أوتاره المرتخية!!

كان الفيلم جميلاً.. وأعجبته «**رجاء عبده**» بحلاوة تقاطيع وجهها المدهش.. و«**محمد عبدالوهاب**» الذى يظهر لأول مرة كممثل جيد فى بعض المشاهد

الكوميدية الراقية..وهى أيضا المرة الأولى التى ظهرت فيها «**رجاء**» كممثلة ومغنية وبطلة.. وكان الفيلم بشكل عام باقة من الفن الجميل استطاع المخرج «**محمد كريم**» بروزتها من خلال رؤيته وأسلوبه السهل الممتنع.

مرت أسابيع دون أن يمسك قلما، وبالتالى لم يكتب عن فن «**العوالم**» فى الغناء لأنه لم يكن متحمسا، ولكنه كان يقرأ بنهم شديد وكأنه فى سباق مع الزمن فى حضن تلك الكتب الحميمة التى أصبحت ونيسه الذى يعطيه دون المطالبة بالمقابل.

★★★

اشتاق بعد مدة طويلة للكتابة.. كانت الأوراق البيضاء أمامه تتراقص عليها صورة «**شهد**» وهى تضحك مرة.. وهى غاضبة مراتٍ.. ثم وهى حانية فى رقة.. وتحاول إخفاء مشاعرها، فسرح مع **صندوقه السحرى** الذي كان قد حفظ الكثير من زفراته ووجعه وضعفه.. وحنانه وقوته، وتخيل أنه يتبادل الكلمات معها فسألها:

- **امتى قلبك يطيب!**

قالت :

- **فى الجو غيم**

- قوليلى إيه رأيك فى دلالك!

قالت :

- **فرحانه باللى باحبه**

- مادام بتجمعنا الأيام.. أنا صابر!

قالت :

- **سألت نفسى ياما.. إمتى قلبى يطيب!**

- كأنك بتسأليني عن حالى!

قالت :

- **حاسه إنك مخاصمنى!**

- **أخاصم روحى.. طيّب قوليلى إزاى ياروحى!**

قالت :

- **الدنيا فى إيدى ورده بتضحك.. فتعالى نضحك معاها!**

كان الصندوق السحرى الذي ظل صامتا لفترة قد انطلق من حجرة «**ليلى**»

فزحف الصــوت من شباكهـا عذباً فى كلمات مـدهشة كتبـها «**بديع خيرى**» ومن ألحان «**زكريا أحمد**» وكان الغناء يؤديه بصوت موجوع المغنى «**كارم محمود**» فى صفاء حنجرته التى تشبه وشوشة موج النيل في وقت الأصيل، وتخيل مرة ثانية.

ـ مع الأغنية ـ أنه لا يزال فى حواره مع «**شهد**»

قال :

من الحب لو تخـلى الدنـيا   كان فى الحياه يفضل لنا إيه

ولا روح تناجي روح تانيه   ولا قـلب يعـطف قـلب علـيه

قالت :

أدّ الغرام ما هـو مُرّ وقاسـى   ويحـيّر الأفكـــار

والمضنى فيه يسهر ويقاسى   ويدارى ع الأسـرار

ينظر مـن عين خلّ يواسـي   يهدا لهـيب النـــار

قال :

عجبى ع اللي يعيش خـالى   مـن غـير حبيب ويقول ارتاح

والراحـــه فى حـب الغـالى   شىء ينترك عن طيب وسماح

منجم دهب فى جـبل عــالى   مايطـوله غـير شقّيان سـواح

قالت :

ما أحلى الوفاق على حُب شريف   فى قلــب مُـخلص وكفــايه

ولا فـــيه طمـــع ولا فيه تكليف   ولا فيــه غرض ولا فيه غايــه

كان لايزال جالسا إلى مكتبه.. والحمى لاتزال تحاول الإمساك به، فنظر دون أن يدرى إلى شــباك «**ليلى**» فلمـحهـا تتـمايل على أصـوات مـوسيـقى خارجـة من صندوقها السحرى.. ولم تعره أى انتباه، وفكر أنها لا تريده.. أو ربما هى غاضبة.. ربما عاد زوجها من رحلاته التـى يتركها فيها وحيدة.. ويجـوز أنها لاتزال غاضبة من ليلته الأخيرة معها حيث حاول تعليـمها وفتح نافذة أمامها لرؤية الحياة بشكل أفضل.

فجأة هبّت نسمة وهو يقف فى شباكه، فابتعد هامسا لنفسه:

ـ ياترى يا نسمه ح تقولى إيه؟!

تخيل الرد الذي يتمناه، فسمعه:

ـ طالت ليالى البعاد.. والصبر مش ممنوع

من خلال موتوره العقلى الذى كان يعمل فى غليان برأسه، تحرك فى اتجاه منزل «شهد» وهو يدرك تماما أن لغة القلب، لغة لا تعرفها، وأنه يذهب إلى الإحباط بقدميه.

استقبلته بترحاب وهى تخبره عن المسابقة التى أعلنت عنها شركة الأفلام المصرية من خلال فيلم «**ليلى**» المقتبس عن قصة «**غادة الكاميليا**» والذى كان قد عرض وقتها فى سينما « **كوزمو**».. وأخبرته أن الجميع قد استقر رأيهم على ترشيح «**توجو مزراحى**» لكى يصبح عميداً للسينما فى مصر!

أحس بغضب شديد.. ووجه كلمات قاسية إليها لأن «**توجو مزراحى**» حسب معلوماته كان يهوديا، فكيف نرشحه للعمادة!!

قالت فى تعقل:

- إنه يهودى مصرى.. له كل الحقوق التى للمسلم والمسيحى وكل من يحمل الجنسية المصرية بغض النظر عن الديانة.

قال :

- الذى يعتنق ديانة ما، هو بالتالى يعتنق فكر ديانته!!

كان واعياً لمحاولة **اليهود** لزرع وطن لهم فى قلب المنطقة العربية وتزييف التاريخ أثناء نومة **العرب** واسترخاء بعض حكامهم الذين يرفعون الشعارات الطنانة.

أدركت « **شهد**» أن المناقشة معه مستحيلة.. وأن رؤيته ربما تكون صحيحة، وأحست بأنه أصبح قادراً على مصادرة رأيها فاستسلمت للإنصات إلى إحدى أغنيات فيلم «**ليلى**» من كلمات «**أحمد رامى**» ولحن «**رياض السنباطى**».. وتعلقت بالجملة التى تغنيها «**ليلى مراد**»: «**بتبص لى كده ليه**»!!.. وبدت عيناها مثل الرادار المتحفز لمحاولة قراءة ما وراء صمته العصبى هذه الليلة، ولكنه أطبق عينيه ونظر فى الاتجاه الآخر فى لامبالاة، بينما استمرت المغنية:

بتبص لى كده ليه عايز تمنينى
ولاَ صعبت عليك جاى تواسينى
ولاَ شفت الحب نايم جوه قلبى
ماتقوللى قصدك إيه

ظل على حالته، وتخيل كيف يفكر ويحب الموتى الذين يغرقون فى النيل، بينما

كانت عيناها تحاولان اصطياده عندما أكد **الصندوق السحرى**:

بتبص لى كده ليه والمكرجـوّه عـينك
سرحان تناجى إيه والحيره باينه عليك

تخيل أنه سمع همساً صادراً من ناحيتها: «**مين قالك تهوانى**»!، فالتفت ناحيتها فوجدها مشغولة بمتابعة حركة النيل فى سكونه الليلى وهو يحمل انزعاجه من الذين أقاموا المنازل على شاطئيه وكأنهم يتلصصون عليه من نوافذهم، بينما هو يفضل الصمت تاركاً لأمواجه القيام بترجمة شكواه.

فجأة.. سمعا أصواتاً عالية وهرجلة، بعدها ظهر « **إسماعيل**» وهو يصرخ فى صوت مكتوم من ألم يعانيه وهو يمسك كتفه التى تنزف.

عرفا أنه أصيب برصاصة، فأسرعت «**شهد**» بإحضار أحد الأطباء من أقاربهم.. وكان « **إسماعيل**» لايزال فى صمته، يصارع ألمه.. و«**شهد**» تبكى بلا صوت.. وأصابه الذهول بعد ساعات عندما عرف أنه قتل ثلاثة من الجنود الإنجليز فى كمين داخل إحدى صالات الرقص، بينما أصيب أثناء هروبه.

خجل من نفسه.. وأحس بتفاهته وبعالمه الذى يحياه فى دائرته الصغيرة بين حلم اقتحام قصر مولاه.. والهرولة وراء نزوات قلبه المجنون، وفى تلك اللحظة أشارت إليه «**شهد**» وسحبته من يده وودعته إلى باب الشقة قائلة:

- لا عليك.. هذا موقف عادى فلا تنزعج.. وسأمر عليك غدا فى منزلك لأطمئنك، ولا داعى للحضور من أجل سلامتك.

فى طريق عودته لمنزله كان **الصندوق السحرى** بعد غيبة سنوات ينطلق بأغنية «**محمد عبدالوهاب**» التى اختيرت عام ١٩٤٢ فى عيد جلوس **مولاه الملك**.. وهى «**الجندول**»:

مرّ بى مستضحكاً فى قرب ساقى
يمـزج الراح بأقـداحِ رقـاقِ
قد قصدناه على غيْر اتفاقِ
فنظرنا.. وابتسمنا للتلاقى

أحس بكراهية شديدة تقتحمه فى محاولة لتلطيخ صورة مليكه المعظم، ولكنه

من أجل حلمه، رفض أن يكون **للملك** دخل فى إصابة صديقه « **إسماعيل**»، وأرجع ذلك لقوات الاحتلال فاحتفظ بحلمه فى أمان، وباليوم الذى سوف يجىء **ويقتحم قصر مولاه للبحث فى حجراته عن سر لا يعرفه!**

★★★

عندما عاد إلى حجرته، سرح قليلاً.. وعرف أن « **أبوبثينة**» هو مؤلف أغنية «**شربت الشهد فى حبك ليالى**».. ولأول مرة أيضا يعرف أن ملحنها هو « **محمد العقاد**»، أما المغنى فهو «**صالح عبدالحى**»، فاستمع للأغنية وهو في حالة ذوبان وحالة من الألم والحيرة، وأحس أن هذه الكلمات تحاول تطبيبه:

شربت الشهد فى حبك ليالى
ودُقت المر من بُعدك سنين
ومهما البعد طال ذكراك فى بالى
ولك فى القلب موصُول الحنين

رفع رأسه المثقل بصعوبة وهو ينصت للصوت القادم من **الصندوق السحرى** من منزل «**فهيمة**» من كلمات «**يوسف بدروس**» ولحن وغناء «**مرسى الحريرى**»:

غضبانه ليه　　ونا حقى أغضب منّك
وذنبى إيه　　وكل يوم باسأل عنّك

أحس بخطوات تقترب منه، كان المرة الأولى التى تحاول فيها « **فهيمة**» اقتحام حجرته في جرأة عجيبة، بينما كان **الصندوق** ينفث وجعه:

يافرحتى لما رأيتك　　مشغوله بيّا وبغيرى

همس مع صوت الصندوق، مستسلما للحظة:

أنا ياما للقلب شكيتك　　وقلت بتميلى لغيرى
كان أهْنَا يوم من أيامى　　لماجيتيلى وشكيتيلى
حققت حلم فى غرامى　　ولقيت فؤادك يوْفيَلى

قالت فى صوت خافت فى نوع من الوجع الرقيق وهى تردد:

ما احلى العتاب بين المحبين　　والجو ساكن يصفَى لُهُم
والطير يغنى للقلبين　　والنسمه تسرى وتسعدهم

أفاق من اندماجه بعد أن سكت صوت الصندوق السحرى، قائلاً لها:

ـ إيه اللى جابك!

قالت فى دلال:

ـ هيا دى حكاية عايزه شرح برضه؟!!..

ثم اقتربت منه وهى تخفى عطشا عاشته فى لياليها وهى تقول:

ـ غريبة.. قوام بتقدر تنسى.. طيب أنا ح أفكرك..

وبدأت تفك شعرها وهى تحركه بعصبية فى كل اتجاه وازدادت قربا منه.. ولكن الصندوق السحرى أوقفها متسائله، مؤكدة أمام، الوجع القادم منه وهى تقول له:

ـ اسمع.. أهو .. مش أنا!!

وكانت الكلمات كتبها «**مأمون الشناوى**» ولحنها «**رياض السنباطى**» حيث كان يغنى «**عزيز عثمان**»

مين فى الدنيادى حبيتك   مين غيرى أخلص ودك
كلمه توديك.. وتجيبك   ونا برضه ياظالم .. عبدك

نهرته وهى تردد مع الصندوق السحرى:

تسعدنى وتهنينى   ياحبيب الروح ياكاوينى

أحس أنه وقع فى المصيدة، وتمنى أن ينسى عمره كله.. وأن تصمت جميع الصناديق عن ملاحقته فى لحظات ضعفه وحيرته وبؤسه!.. وكان مزاجه يرفض الانتماء لمن يقتحمه، فهو يحب أن يكون هو المقتحم..، ولكن هاهو الصندوق يقتحمه من جديد فى لحن «**زكريا أحمد**» للمغنية «**هناء**»:

زمان .. كان حبى فيك من قلب صافى
وكان إخلاصى لك.. نادر مثاله

كانت «**فهيمة**» لا تزال ترسل مداعياتها لفض الاشتباك بين واقعه المر لإخراجه إلى شواطئها التى جاءت من أجل أن يرويها بأمواجه وصخبه!

نظر إليها.. كانت فى طول عود القصب الممصوص.. امرأة بلا صدر ناهد، ومع ذلك تملك جاذبية شديدة لا يعرف مصدرها أو سرها..

رمقها فى تساؤل صامت.. فأجابته مع الصوت الصادر من الصندوق السحرى من كلمات «**محمود تيمور بك**» ولحن وغناء «**أحمد عبدالقادر**»:

ياللى سقيتنى الغرام إملا كمان كاسى
نسيت عهودى قوام ونا اللى مش ناسى
حرمت عينى المنام ياقلبك القاسى

همس لنفسه :

- نسيت الحب وارتاحت جفونى!..

يكذب على نفسه، فلم يستقر له جفن.. ولم يشفه من وجعه أى معنى.. أو إشارة.. أو مناداة.. حائر يبحث عن ظله الذى يراه دائما بالمقلوب، ويراه غير قادر على ملأ فراغ الكتلة التى يتحرك فى حدودها.

تذكر «**إسماعيل**» وإصابته برصاص الإنجليز.. وهزته الحادثة، بل قلبت كيانه.. وأحس أن حلمه أيضاً قد أصيب، حلمه باقتحام قصر **مولاه الملك**، والبحث عن سر فى حجراته الكثيرة!

تناسى وجود « **فهيمة**» لأنه أحس بوجع شديد فى رأسه حيث كانت الحمى قد عاودته من جديد.

.. ودخل مرة أخرى فى بحار الهلوسة متخيلا «**شهد**» أمامه يتبادلان المناجاة:

قال :

- فى الجو غيم حجب القمر!

قالت :

- إنسى حلمك.

قال :

- سألونى امتى قلبك يطيب يا ناسيه وعدى!

قالت :

- نور العيون ياشاغلنى.. ما أقدرشى أنساك!

قال :

- يا دنيا حالك عجيب.. وإيه جرى ياقلبى إيه!

قالت :

ـ طال عليّا البعد.. وقاسيت كتير.. ياللى وضعت الأمل فيك!

قال :

ـ حرمت أقول بتحبينى.. ليه عزيز دمعى تذله!

أحس **بصندوقه السحرى** يتمازج معه في لغة الحوار فى مونولوج من كلمات «فتحى قورة» ولحن «**محمد هاشم**» وغناء «**عنايات فهمى**»:

نامت عيونك ونا سهران	**والفكر شارد ويّا الليل**
واحترت أنسى ليالى زمان	**ولاّ امتثل للشوق والميل**
كانت ليّا فى الدنيا دى آمال	**بنيتها على حبك ورضاك**
ليه غبت عنى وبعدك طال	**والفكر سابنى وراح ويّاك!**
ورجعت زى ماكنت لوحدى	**ما نلت غير أشجانى وسهدى**

صمت الصندوق وعاد إلى هلوسته فى مونولوج مع «**شهد**»

قالت :

ـ حبيّت أقولك ع اللى بيا ..... يسكت لسانى وتقول عينيا

قال :

ـ بكره ليالى الصفا ..... ترجع ونفرح بيها

قالت :

ـ هو ذنبى اللى جنيته ..... إنى سلمتك فؤادى

قال :

ـ ونشوف ليالى الجفا ..... مين السبب فيها

قالت :

ـ نار حبك ..... ولا جنة غيرك؟!

قال :

ـ كتير قالولى فاتك وراح ..... هوّه مين يقدر ينسانى

قوية هى دائما «**شهد**» فى لحظة استقبال الاصطدام بالواقع المعاش..

قوية بما يكفى لفرفطة مشاعره.. إنها تقترب.. وتبتعد وكأنها مثل عقرب الثوانى الذى لا يخطىء الدوران..، فردد الطقوقة التى كتبها «**خليل موافى**» ولحنها وغناها «**عبدالغنى السيد**»:

بعدت عنّى وبعدك طـــال
ونا اللى ســـلمتك قــلبى
بتصدق اللى قالوه العزّال
ياريت ما أخلصت فى حبى

كاد قلبه ينهار مثل الجسد العجوز عندما يضعف أمام الزمن وتخيلها ترد عليه:

ماكانش على بالى إنى فى يوم
قلبك يطاوعك ويفوتنى
كان فكرى إن غرامنا يدوم
أصلك بودّى .. غشتنى
وبعد شوق وهيام
شفت الآمال أوهام
بتصدق اللى قالوه العزال
ياريت ما أخلصت ف حبى!

سمعها تحدثه .. وكان في صوتها نبرة غضب من شيء لا يعرفه!

خلاص نويت أنساك على طول
واصبّر القلب بذكراك
ومهما تيجى .. ومهما تقول
من المستحيل أرجع لهواك
لا قادره أسمع فى عتاب وملام
ولا حتى يحبسنى النوم ولا.. أجافيه
روح صدق اللى قالوه العزّال
ياريت ما أخلصت فى حبى!

يعترف لنفســه، أنه الذى أخلص فى حبه وليست هى.. وحوّل فـرحه الكبير إلى قطع صغيـرة فى حجم الحبوب، وبذره فى أرض وسعة، فـأنبت فدادين من الفرح لها، ومع ذلك. **كان يشــعر بأن الأزهار تموت فى حـدائق عمـره.. وتنمو أزهار أخرى لهـا رحيق وطعم الكلمـات المرة، ووجوه وأسـماء أناس ينضـمون إلى الصندوق ويهاجمون عقله فيتعذب على نار المعانى!**

شربت الصبر من بعد التصافى
ومر الحال.. ماعرفتش أصافى
يغيب النوم وأفكارى توافى
عدمت الوصل ياقلبى عليا

غناء :

عبده الحامولى

و.. عندما يتوجع القلب!

كان لايزال رافضاً لأي حلم آخر أن يقتحمه، ولذلك. ترك «فهيمة» تغلى على نار كلمات الصندوق السحرى الذى أصبح لا يحبه.. لأنه كان يشعر أن كل الصناديق تبوح بالأكاذيب وترقص على لحظات ضعفه وتلعب على مشاعره.. وتأخذه مع معانيها إلى أرضها العطشى التى عليه أن يرويها بوجعه.. وأحست «فهيمة» بتخاذله، ولكنها لم تيأس لأنها تعرف كيف تعالج وضعه فى هذه اللحظة، كانت قد أصبحت امرأة لها دراية بشئون الرجال، فامتصت غضبه وثورته وأذابت حيرته مؤقتا.. فبدأت حرارته تهبط ويتعافى..، وكانت قد تعلمت أشياء فى التلامس والاحتكاك لم يكن قد عرفها فيها من قبل.. وأحسَّ بها كشراع مركب صغير يحركه فى تمازج متفاديا أمواج عالية طارئة، واستطاع أن يبحر معها بشكل هادىء جداً.. أعاد إليه بعض توازنه.

أخذ يستعيد اللحظة، حيث كان لسانها مثل الفراشة التى تدغدغه برحيقها فى رقة وعذوبة متوجسة وهى تلامس شفتيه.. **وبدأ يقبض على «اللحظة» التى يعيشها.. فهى مثل «الكتب»، فكل كتاب له طعمه ومذاقه بما يحتويه، فالأسلوب لكل كاتب مختلف.. وكذلك معانيه وصوره وانفعالاته؟!!**

كانت «**فهيمة**» قد رحلت وتركته غارقاً فى انفعالاته مع صندوقه السحرى الذى كان يُبحر مع كلمات الشاعر «**على محمود طه**» فى لحن من غناء «**محمد عبدالوهاب**» فى أغنية «**الجندول**»:

أين من عينى هاتيك المجالى
ياعروس البحر ياحلم الخيال؟
أين عشاقك سُمّار الليالى
أين من واديك يامهد الجمالِ!

قال وهو يرتدى ثوب الكذب على نفسه.. أو ربما كان هذا من فرط هذيانه:

ـ عندما لا أكون معك.. لا أشعر أننى على قيد الحياة!

ردّ الصندوق السحرى عليه من كلمات «**إبراهيم الدبّاغ**» ولحن «**محمود صُبح**» وغناء نجله «**محمد محمود صُبح**»:

ماشَكَا .. ولا.. بَكَا غير الحنين إلى المعانى
والضنا لقلبه حقّ الأنين مما يُعانى

وردت هى عليه فى كلمات «**عبدالستار السيد**» ولحن «**محمد هاشم**» وغناء «**هيام**»:

ـ أنا اللى باتمنى ياحبيب قلبى تكون راضى عليّا.. ويزيدنى نوح وأسى وشجون.. هجرك ليا.. طول البعاد.. كاوى الفؤاد.. ياريت أشوفك من تانى!

مع آخر كلمة مغناه من الصندوق، كانت قد جاءت «**شهد**» فهمس بصوت مكتوم لنفسه:

ـ حبيبى ليه مخاصمنى.. وليه من الوصل تحرمنى!!

وجدته مثل فراشة محترقة تذوب فى رمادها.. ولكن روحها لاتزال قادرة على استيعاد «اللحظة»، وخيل إليه أنه يسمعها تقول:

- باحبك وأنت مش دارى   وأخبى فى حبى وأدارى!
ولما تشـــعلك نـــارى   شكيت لك لاجل ترحمنى

ودون أن يدرى، كان يناجيها بكلمات «الباشا أحمد شحاتة» ومن لحن وغناء «محمد الكحلاوى»:

كتير الهجر ياقاســى   ودادُه بسّ فـــهّمـــنى
حبيبى ليه مخاصمنى   وليه م الوصل تحرمنى!

أمسكت «شهد» برأسه المرتجف وقالت فى جدية:

- خفت عليك من الحضور إلى منزلنا، فكما تعرف.. «إسماعيل» مصاب.. وقد قتل اثنين من جنود الإنجليز الحثالة!!.. وأنا وأخى نحبك.. ونضع أملنا فيك لكى تساعدنا!!

قال هامسا وهو يبتلع الكلمات بصعوبة:

- أساعدهما.. كيف؟!

قالت :

- نحن وأصدقاء لنا نحاول تغيير هذا الوطن الذى أصبح قبيح الوجه مثل وجه وسلوكيات «فاروق» الملك اللعبة!

.. وبالطبع.. أصابه الانزعاج بسبب كلامها عن مليكه الذى يحبه.. وفى نفس الوقت لا يستطيع رفض طلبها.. فهى تطلب المساعدة.. ويجب أن يفعل ما تريده، فهى حلم من أحلامه مثل حلمه فى اقتحام قصر مليكه.

كانت « شهد» من أسرة غنية من تلك العائلات التى كانوا يطلقون عليها البرجوازية الكبيرة الإقطاع، حيث تملك الأراضي الشاسعة، والقصور.. وتستخدم لديها ألآفاً من الفقراء الذين يعملون مثل العبيد فى مملتكاتهم.. ولكن فى شىء به كثير من العدل والانحياز لهم!

هو فى نفس الوقت قد استبعد كل هذا التعاطف للوقوف بجانب الشعب.. ومع فقراء الناس! إذن.. فليذهب **صندوقه السحرى** إلى الجحيم، هذا **الصندوق** الذي يرفض التعاون والوقوف فى صفه!!

قالت «شهد» فى لهجة جادة:

ـ استمر فى كتاباتك كما وعدتنى، وعندما تسلمنى ما سوف تكتبه، سأعرفك على شخص ما، وهو الذى سيكون مسئولاً عنك!!

كان مستسلماً لكل ما تقوله، وحاول النهوض من فراشه، فأجلسته فى وضعه وهى تقول فى حنان ناعم:

ـ الشاى.. سوف أحضره لنشربه معا.. وأرجوك لا تتحرك!

وهى تحضّر الشاى.. كان صوت الصندوق السحرى الملعون، يحاول اقتحامه كالمعتاد.. وكانت الكلمات التى كتبها «**مصطفى عبدالرحمن**» والتى يغنيها من ألحانه «**جلال حرب**»، تقول فى وجع يضاف إليه وجع الموقف:

سهرت عليك العيون وطال إليك الحنين ياللى رعيت عهدى
ألقاك فى وادى الظنون يرتاح فؤاد الحزين وأطفى لهيب وجدى
وأقول لقانا قريب
بكره يعود لى الحبيب
أفرح معاه وحدى
ونعيد ليالى الغرام فى القرب من تانى
ويطول مابينا الكلام أرعاه ويرعانى
ياللى هديتنى السبيل
وكنت وافى كريم ونسيت معاك سُهدى
إمتى ح تشفى الغليل ونهيم فى دنيا النعيم
واسقيك كئوس ودّى

قالت «**شهد**» :

ـ لا تنس.. سوف أعرفك بالزميل الذى سوف تتعامل معه.. وأيضاً لابد أن تكتب موضوعك الذى اتفقنا عليه عن «العوالم» فى الغناء، فهذا أيضاً مهم جداً!

وعندما غادرته جلس مثل التلميذ المستسلم أمام أوراقه ليكتب:

فى فن الغناء والموسيقى نستمع إلى عبارات مهنيّة مثل «**ألاتيّة**» أو اسم «**عالمة**» أو «**عوالم**» على نوع الغناء الشعبى الذي انتشر فى الريف، ثم غزا المدينة بنفس مواصفاته اللحنية والجمل الكلامية بتعبيراتها.

عصر «**العوالم**» الزاهى يمكن رصده من **عام ١٩٠٠ ـ ١٩٢٧.**

ومن شهيرات هذا النوع من الغناء. «**بمبه كشرّ**».. والحاجة « **فهيمة**» والحاجة «**هدى**» و«**أمينة شخلع**» و«**عزيزه هزو**» و«**عزيزة البيضة**» و«**زينب القفه**» و«**نفوسه السويسية**» و«**سيد صوانى**».. و«**أسما الكمسرية**» و« **أمينة الصرفية**».

أسماء وألقاء غريبة تذكرنا بعصر التخلف الغنائي الذى أعلن إفلاسه.فالسيدة «**بمبة كشر**»، هى ابنة الشيخ «**محمد كشر**» ولم يكن لها حظ فى الإنجاب من زوجها المطرب الشيخ «**محمد الصفتى**».. ولاحتى من زوجها السابق «**إبراهيم النحاس**» الذى كان يعمل تاجراً فى أوانى النحاس التى تستخدم فى طهو الطعام.. ومن أشهر أغنياتها، «**الحنة الحنة.. ياقطر الندى**»، وقد تركت بعد رحيلها **عام** ١٩١٧ ابنة شقيقتها الفنانة «**فتحية أحمد**».

أما الست «**عزيزة البيضة**»، فقد تخطت اللفظ المتعارف عليه بـ « **العوالم**»، حيث حصلت على ترقية فنية.. وسمح لها بأن تحمل لقب أسطى.. ومعنى هذا اللقب، هو الفنان الذي يصبح صاحب فرقة موسيقية مسئول عنها مسئولية مباشرة.. وقد كانت فرقة العوالم وقتها لها شكل التخت المختصر فى عدد العازفين الذى يرأسهم الرئيس أو الرئيسة.. أو «**الأسطى**» وبجواره الإيقاع، وهو عبارة عن «**طبلة**» يندمج معها ثلاث سيدات أخريات يضربن على «**الطار**».. وعازفة على آلة «**الرق**» وأخرى على «**العود**».. وكانت «**الأسطى**» ـ من باب الحشمة وحفاظا على التقاليد ـ محجبة الوجه، وفستانها الذى تظهر به يغطى الذراعين والقدمين. أما الراقصات فكان أغلبهن يمارسن الرقص بالملابس الكاملة.

كانت فرق «**العوالم**» عندما تدعى لإحياء الأفراح فى الليالى الملاح، تبدأ من الساعة الخامسة والنصف تقريبا ـ بعد الظهر ـ وتستمر إلى بعد منتصف الليل، قريبا من بداية يوم جديد.. والأجور ما بين **ثمانية جنيهات ولاتزيد على عشرة..** أما فرق «**العوالم**» التى لا كانت لم تصل إلى الشهرة.. فقد كان متوسط أجرها «**جنيهاً**» واحداً، يعقبه مساومات وحوارات، فيصل الأجر إلى «**جنيهين**» فقط لا غير.

أما المغنية «**أمينة شخلع**» فالأب سودانى الجنسية والأم مصرية. ومعنى « **شخلعة**» يرجع إلى شكل قوامها « **المشخلع**» وذلك من خلال مقاييس الجمال

وقتها.. وكانت من بين سكان «**الحلمية**».. وكان عصر «**العوالم**» باختصار مليئاً بما يمكن أن نطلق على نوع ما يقدمه من فن غنائى اسم «**الطقاطيق**»، وهو نوع من الأغنيات القريبة من الجو العام لمفهوم «**الفن للفن**» وقد استمعنا فى نفس تلك الفترة تقريبا إلى «**طقاطيق**» من مقام «**رست**» للفنان «**سيد درويش**» مثل:

يابابا ليه ماتدلعنيش
واللى أحبه ليه مايجيش
(دور)
أنا هويته مدّه.. مديده
وبُعدُه خلاّنى عجيبه
إسمعوا طقطوقه جديده
وبعدها دا كلام ما يجيش
(دور)
أسر فؤادى بحسن جماله
والعقل راح من كتر دلالُه
ياباباهوه أنا مش على بالُه
والله حلف.. مايكلمنيش

هذه رؤيتى لعصر «**العوالم**» الذى انتهى بدخول مجال التلحين «**رياض السنباطى**» و«**زكريا أحمد**» وكان رائداً لهذه الموجة الجديدة الشيخ «**أبوالعلامحمد**».

★★★

كان قد شاهد عند صديقه «**إسماعيل**» الجهاز المسمى «**الجرامافون**» وهى مشغّل للأسطوانات التى تحتوى على أغنيات يقوم صاحبها بتشغيل مايريده، فطلب والده أن يشترى له واحداً مع مجموعة من الأسطوانات.. وكان سعيداً بدخول حياته «**صندوق**» آخر يختار منه مايريده هو.. وليس مايفرض عليه!.. وبدأ فى تجربته، فانطلق **الجرامافون** فى «دور» يغنيه «**محمد أفندى عثمان**»:

كيد العوازل كايدنى — بس اسمع شوف
إنت مالكنى من قلبى — ولاّ .. بالمعروف
حُبّك كوانى تعالى شوف — ستر العوازل دايماً مكشوف

أنا بالصـــبر أبلـغ أمـــلى　　　ياما نسمع بكره وبعده نشوف

وجدها لعبة لذيذة، فأدار الأسطوانة واستمع إلى الدور الثانى:

أنا اللى فى الهوى صياد　　　وجيت أصطاد صادونى

لا شـــبكه ولا ســـنّار　　　برمش العين صـــابونى

استبـدل الأسطوانة بأخرى لـ «**عبده الحـامولى**»، كان صوته مـؤثراً.. وذابحا مثل السكين الحامى، فتذكر «**شهد**» مع تأوهاته:

شربت الصبر من بعد التصافى

ومرّ الحال ماعرفتش أصافى

يغيب النوم وأفكارى توافى

عدمت الوصل ياقلبى عليّا

(دور أول)

زمان الوصل راح عـنّى وودّع

وصرت اليوم من ولهى مـولّع

وبعد الهجر هـوّه الصبر ينفع

عدمت الوصـــل ياقـــلبى عليّا

(دور ثان)

يقـضـى لوم يكفـانى مـــلامـه

إذا زاد بى الأسا يالله السـلامه

مـضتْ بهـجةْ فـؤادى ياندامــه

عـدمـت الوصل يا قلبى علـيّـا

(دور ثالث)

على عـينى بعاد الحلو سـاعه

ولكن للقـضـا سـمعـاً وطاعـه

لأن الروح فى الدنـيـا ودّاعـــه

عـــدمت الوصل ياقـلبى عليّـــا

★★★

كانت «**ليلى**» قد فتـحت شباكهـا الخشبى، وتصورته أنه قد أصـابته لوثة.. أو

ركبه عفريت، ورآها وهى تلطم خديها، فأخذ يسجمع الصورة من حوله متسائلاً:
- لماذا تلطم هذه المرأة خديها.. فهل أصابها الجنون؟!

فتح شباكه «الموارب» بعد أن أطفأ نور حجرته، فوجدها تدعوه إلى حجرتها، فذهب إليها كالمنوم.. وكان عقله مثل سحابة سريعة تهرول إلى منزل « **شهد**».. وروحه مثل القمر الخائف.

استقبلته «**ليلى**» بلهفة خائفة عليه. أما قلبه فقد كان لايزال مهرولاً فى اتجاه منزل «**شهد**».

قالت : «**ليلى**»
- أكيد اتجننت.. اتحسدت.. ركبتك العفاريت.. وياعينى على أمك ياحبيب روحى!!

لم تكن قد أكملت حديثها.. بينما هو كان قد وقع ساقطا على صدرها الذى كان أقرب شيء يحاول الاستناد عليه!

فى اليوم التالى أقنعت «**ليلى**» أمه بضرورة عمل «**زار**» له.. لإخراج العفاريت منه، وقد وافقت أمه التى كانت تؤمن بهذه الطقوس الشعبية، وبالفعل. عاودته الحمىّ.. وأخذ طريقه فى الذبول والرغبة فى الاسترخاء مع علة فى المزاج ووجع فى الرأس والقلب..

وهو لايزال فى هلوسة سخونته، كان يشعر بأن دماغه قد وضعوه على وابور الغاز لكى يغلى بكل ما فى داخله، فيفيق مرة.. ويغمى عليه مرتين:

تلاتين يوم.. ماشفت النوم
غاب النوم عن عينى
إمتى يجينى ريخضّ بُعده
وأشرب مدامه فى صحن خدُّه
من يوم ماعرفته وشفت قدُّه
ملك فؤادى من حصن أدّه

ازدادت سخونته. وارتفعت درجة حرارته، وفارت زفرات أمواجه التى تحلم بالوصول إلى شاطىء ما بعد تعب قد أصبح لا يستطيع تحمله.

كانت تقاليد ذلك الوقت أن يدعو أهل «**الزار**» كل نسوة الحى والجيران

للمشاركة.. وكان أيضا مباحاً لأي نسوة يحضرن. أن يشتركن في إخراج العفاريت من أجسادهن!

زفر بغيظ من أعماقه، فوصل زفيره إلى مؤخرته مع جملة «**القلب سلم من زمان**»؟!، ثم استسلم لحفل **الزار** الذى أقنعت به «**ليلى**» أمه.. وبدأت الطقوس بإحضار كميات من الفراخ والديوك الرومى والبط وربطها من سيقانها وتعليقها على حبل دائرى فى صالة منزلهم.. وفى الوسط وضعوا صينيه كبيرة جداً مليئة بالخراف المشوية.. وكان وهو نصف واع يشعر بالحزن على ضياع فلوس أمه ووضعه فى هذا المأزق التى تسببت فيه «**ليلى**» باقتراحها المجنون لمداواته من «العين» التى أصابته.. وإخراج **العفاريت** التى ركبته!!



رأى اللوم من الجـهـات فـراغَـهْ
فـلا تنكروا إعـراضه وامـتناعَـهْ
ولا تسـألوا عن فـؤادى فـإننى
علمت يـقـيناً أنـه قـد أضـاعَـهْ

غناء :
فتحية أحمد

الزار

الناس الذين أحـضرتهم «ليلى» لإقامـة «الزار» بدأوا الاسـتعـداد بطقوسـهم، فارتدوا مـلابس مهلهلة غريبـة وكثيـرة الألوان.. وكانت ملامح وجـوههم غليظة.. وعيونـهم جاحظة وشكلهم مثل العفـاريت التى قالوا إنها تسكنه.. وكـانوا يحملون المباخـر والطبول والدفـوف ويلتهمـون كل شىء بعيونهـم المتبجـحة، وخصـوصا النسوة اللاتى بدأن فى الحضـور للمشاركة وهن يرتدين ملابس طويلة وقـصيرة بوجوه مـلونة بالبودرة.. والعـيون بالكحل وقـد فك جمـيعـهن شعورهـن..، حتى « شهد» جاءت هى أيضـاً.. وكان يشاهد هـذا الجمع الغريب وهو غـير مصـدق ما يراه..

بدأت دقـات الطبـول.. وبدأ الجـمـيع يـدورون فى دائرة حـول بعـضـهم وهم يصرخـون بكلمات غيـر مفهومـة.. وكانت البنات قد وجـدن الفرصة لاستـعراض

أجسادهن التى تتلوى فى أشكال مثـيرة.. أما النسوة، فوجدن الجو مهـيأ لرجرجة مـؤخراتهـن المكتنزة التى كـانت تتحـرك في ليـونة مـدهشة، وكـذلك صـدورهن الكبيرة..،

اقتادته بعض النسوه ـ بعد أن ربطوا رأسه بمنديل نسائى ملون ـ وأجبروه أن يدور معـهم.. وبدأ الرجال يذبحـون الطيور المدلاة علـى الحبل فى الصالـة والدماء تتطاير على الوجـوه والملابس، فتـذكر الأفلام السـينمائيـة التى صورت الأفـارقة كمـجموعات من الهـمج المتوحشين وهم يرقـصون ـ بعد صبغ وجـوهـهم ـ حول الضحية المراد ذبحها ووضعها فى الإناء الكبير الذى يدورون من حوله.

أحس أنه لا فرق بين الرقص للآلهة بهـذه الطريقة الوحشية.. أو الاحـتفال بالتهام إنسان أبيض.. أو الزار لطرد العفاريت المزعومة.. أو لإفراغ الكبت من الأجساد المقهورة بمختلف فنون الإحباط اليومى.

كان يشعر بالخجل من نفسـه، ولكنه كان قد وافق على ذلك من أجل خاطر أمه التى اندمجت هى الأخرى مع النسوة وقد أرسلت شـعرها ومزقت ملابسها وبدأت تعرى صدرها مـثل الجميع.. وظل فى دورانه ضمن الدائرة النسـوية الهائجة التى تدور.. واخـتلطت دقات الدفـوف برائحة الدمـاء المتناثرة ورائحة الـعرق والبـخور وهلوسة الأجـساد التى أحس بعطشـهـا وهى تتحرك في هيسـتريا..، ولمح « **شهد**» ضمن الدائرة وقد تطاير شعرها الطويل وهى حافية القدمين.

ازداد الصـخب.. وبدأ بـعض النسـوة يقـعن على الأرض ربمـا بسـبب خـروج العفاريت من أجسادهن، أمـا هو فقد وقع على الأرض من شدة التعب، وهمس وهو فى نصف إغماءه:

ـ حتى أنت ياحبيبى قد ركبت العفاريت!

وهو فى رقدته على الأرض، أحس بأحد الديوك المعلقـة قد هرب من على الحبل المربوط به فنجـا من الذبح وهو يصيح صـيحـات مجنونة، مـتقـافزا على النـسوة الواقعات على الأرض للـبحث عن فرصة للهرب، فـتذكر **مذبحة القلـعة والمماليك** عندما أمر «**محمد على باشا**» بحصارهم لذبحهم والتخلص منهم..

تخيـل نفسه واحـداً من **الفرسـان المماليك** وهو يحاول الهـرب بحلمه من فخ المذبحة، فقـفز من أعلى **القلعة** لإنقاذ حلمـه وانكسر رأس حصـانه، ثم أفاق على

الدماء التى غطت وجهه من أحد ديوك المذبحة، ففتح نصف عين مفزوعاً وهو يرى «**شهد**» تشد شعرها وتدق صدرها وتلطم خديها، فتساءل متعجباً:

- هل ماتفعله نوع من التكفير عن وجع داخلها تعانى منه.. أم لإحساسها بذنب فعلته.. أم هذا أيضا خوفا على الوطن وطقوس ضد الملك!!

شاهد وهو لا يزال متأملاً ما حوله من خلال نصف عين، الرجال وهم يتحرشون بالنساء الباقيات المستسلمات للذة التحرش.

تم نقله إلى حجرته، فتمدد فى فراشه وهو يحاول أن يتنفس بعض الحرية، بينما كانت «**شهد**» تقف أمامه وهى منكوشة الشعر وملابسها ملطخة بدم الطيور التى تم ذبحها، فطلب منها تشغيل الجرامافون، ووضع أي أسطوانة لينام على صوتها وتتركه..

على النور الخافت استمع إلى «**أحمد حسانين**» وهو أحد تلاميذ «**عبده الحامولى**» يغنى:

يفضل زمانى يواعد	**أنا وحبيبي يجمعنا**	**وأفضل أعاتب**
حتى تفضل وتساعد	**بس العزول مالوش معنى**	**ياناس عجايب**
روحى وروحك حبايب	**من قبل دا العالم والله**	**صدق حبيبى**
أهل الموده قرايب	**شرّف واملا كاسى**	**واطفى لهيبى**

ورغم رحيلها، ظلت صورتها كالفراشة تحلق مصطدمة بالظلام.. وقبل أن يروح فى النوم، **تذكر حلمه فى اقتحام قصر مولاه.. والبحث فى حجراته عن سر لا يعرفه!!**

فى الصباح. عاوده التفكير فى «**شهد**».. لم يصدق ما رآه بالأمس.. وتساءل:

- كيف تحولت فى الزار إلى امرأة عادية تشق صدرها لإخراج كبتها المخزون وهى التى لا تؤمن بهذه الخزعبلات..

كيف وهى التى تريد تحرير الوطن.

وتساءل مع نفسه:

- أليس تحرير الوطن يحتاج إلى تحرير العقل أولاً..

أليس كل صاحب قضية ينبغى أن يكون القدوة!!..

ثم هو في حيرة:

هل الأغنياء هم الذين يحررون الفقراء من سجون معاناتهم..!!

إذا كان هذا هو الموضوع أو هذه هي الرؤية، فبالتالي لا توجد مشكلة ولا يوجد صراع بين الغني الذي يملك.. ويملك السلطة.. والفقير الذي لا يملك سوى الخضوع لمن يملك!!..

ثم أفكارها التي تعتنقها، هل هي عن اقتناع.. أم هي مجرد مغامرة من أولاد الذوات لملء أوقات الفراغ والضحك والتسلي بأوجاع الرعاع!!..

لم يتوصل لشيء محدد يقنعه بموقفها.

أخرجه من تساؤلاته صوت **صندوقه السحري** القادم من شباك «**ليلى**» في غناء «**عبدالغني السيد**» وكلمات «**خليل موافي**»:

بعدت عني وبعدك طال   ونا اللي سلمتك قلبي
بتصدق اللي قالوه العزّال   ياريت ما أخلصت في حبي

تلصص عليها من شباكه، فوجدها تغني مع الصوت الصادر من الصندوق وهي في قميص نومها المشلوح:

ماكانش على بالي ف يوم   قلبك يطاوعك وتفوتني
كان فكري إن غرامنا يدوم   شفت الآمال أوهام
بتصدق اللي قالوه العزّال   ياريت ما أخلصت في حبي

كان دائما يقرر .. وسرعان ما ينسى.. يحاول أن ينسى من تعذبه.. وأيضا من تسعده.. يريد الخروج من عالمه الذي أصبح عبداً له لكي يحلق في مساحات أخرى.. ويحس بأحاسيس مختلفة، ويشم هواء آخر.. ويهبط على أماكن يحس فيها باطمئنان الصدق.. وبالعطاء دون انتظار المقابل!!

يتصور أن «**ليلى**» مثل السجان الذي يخفيه.. ومثل السيد الذي تحكّم في عبده.. وهو - أحياناً - يتلذذ بهذه المعاملة عندما تلفه بغطاء من أنفاسها.. وعندما تعجنه وتخبزه على نار أشواقها المجنونة، وهي السبب في إيهام أمه بأن العفاريت تركبه وأن العين أصابته، ولابد من إقامة **الزار** لكي يسترد عافيته!!

في وقت العصاري، كانت «**ليلى**» قد أطلقت صندوقها السحري في شكوى من كلمات «**الباشا أحمد شحاتة**» ولحن وغناء «**محمد الكحلاوي**»

بحبك ليه مخاصمني — وليه من الوصل تحرمني
ونا اللي عيني بتشكيك — مابين الرمش والنني
باحبك وانت مش داري — واخبي ف حبي وأداري
ولما اتشعللت ناري — شكيتلك لاجل ترحمني

صعبت حالتها عليه، ولكنه كان قد قرر عدم زيارتها. كان متعباً. مشوش الفكر ويحتاج التواجد بمفرده للحصول على بعض الراحة النفسية ليتلمس طريق الوجع داخله، فيبدأ بمداواته.،، فهو يعرف أن «**ليلى**» لن تمنحه سوى المزيد من المعاناة، وهو أصبح يخافها.. أو يخاف على نفسه منها.. وبدأ يدرك أن علاقته بها ليست حباً بقدر ما هى نوع من اللعب فى الممنوع، وطيش الشباب.. بل ما بينهما شكل من أشكال الخيانة وسرقة ما ليس حقاً له، فبدأ يغرق فى ندم موجع وتأنيب الضمير.. ولكنه دائما لم يكن حاسماً فى مواقفه، فسرعان ما ينسى، وتغلفه كلمات **الصناديق السحرية**.. والجرامافون:

ـ «ليلة الوداع، طال السفر.. ونا فى البر لم فوتكم.. ع البر فوتوني.. ياحبيبي تعالى الحقني شوف اللى جرالى.. ياما أمرّ الفراق.. قالولى إمتى قلبك يطيب،.. ياللى ودادى صفالك.. وضعت الأمل فيك.. ولك روحى.. فاصنع بها ماتشاء»!

كانت الكلمات المتداخلة التى حفظها وهو يستحضر صورة «**شهد**» التى تخيلها ترد عليه من كلمات «**مصطفى عبدالرحمن**» وغناء «**جلال حرب**»:

ـ ياما أرق النسيم.. ياللى عاهدتنى ع الوفا.. دا غرامك دوبنى دوب.. دنا سهرت عليك العيون.. وطال إليك الحنين.. ياللى رعيت عهدى.. ألقاك فى وادى الظنون.. يرتاح فؤادى الحزين.. واطفى لهيب وجدى».

انتفض مثل عصفور قصوا جناحيه فلم يتمكن من التحليق، وأفزعه الصوت القادم من الصندوق السحرى فى المنزل المجاور من حجرة « **فهيمة**» فى كلمات فصحى من لحن «**رياض السنباطي**» وغناء «**فتحية أحمد**»:

رأى اللوم من كل الجهات فراعهْ — فلا تنكروا إعراضه وامتناعه
ولا تسألونى عن فؤادى فإننى — علمت يقيناً أنه قد أضاعَه

رسم حالته الراهنة على حائط حجرته بكلمات «**بديع خيرى**» التى غنتها

«**عقيلة راتب**» من ألحان «**حسن سلامة**»:

يااللى انت سارح فى وحدتك   آدى الحبيب حواليك
والسهم جارح فى مهجتك   وبترسمه بإيديك

إنه يشعر بالحزن يطرده من أمام أبوابه الرمادية.. والفرح - أيضا - يطرده من أمام أبوابه الوردية.. والصندوق السحرى يطارده ويلهب مشاعره ويحفزه للاستغراق فى الكآبة.. والجرامافون يحبسه داخل جدران الدهشة.

إنه يتذكر أغنية «**نجاة على**» من كلمات «**عبدالعزيز سلام**» ولحن «**أحمد صدقى**» فى فيلم «**دموع الحب**»:

يالا يمين الهوى   حوشوا الملام عنا
أنا وحبيبى سوا   فرقتوا ليه بينّا
قولنا إيه قصدكم   ياشامتنين فينا
زرعنا فى أرضكم   الورد بإيدينا
ودوسنا فى حبكم   ع الشوق برجلينا
واللى زرع انكوى   واللى جَنىَ عنّا

نظر إلى جدار حجرته الذى تلفه إضاءة خافته، فوجد ما يشبه طيف «**فهيمة**»..، طويلة مثل عود القصب الذى يخيف العصافير الصغيرة من الوقوف عليه، وكانت تخفى حزناً غريباً فى عينيها عندما تحاول الابتسام.. وعلى الأخص عندما تتذكر زوجها الذى تزوج عليها امرأتين، فطلبت من أمها أن يطلقها..

كانت فقيرة فى أفكارها مثل كل نسوة حارتنا، وكان جسدها هو المتحدث الرسمى عنها، بليغا فى تعبيراته.. مالكاً لكل مقومات الإقناع..

يتذكر أنها قالت له وهو مثل طلة البرق فوق حلمها اللذيذ:

- كان نفس أكون معاك ونا باتفرج علي فيلم «محطة الأنس»!!..

رد عليها بعد سكوت البرق وهطول المطر:

- لا أحب الأفلام الفكاهية أو الاستعراضية!!

قالت وبقايا رذاذ المطر يبللها:

- بتخلى السما تمطر في عز الصيف.. ليك قدرة يا قادر.. لكنك كداب؟!

قال مندهشا :

ـ أنا كذاب؟!.. إزاى.. وبأمارة إيه؟!

قالت :

ـ إنت مـابتحـبنيش.. ورغم كده كل مـا تشوفـنى تقوللى بحـبك.. لكن أنا عارفه إن ماليكش قلب.. وبتفكر بعقلك اللى دايما باحس بيه بين فخذيك!

اعترف لها يومـها أنه لا يحبها بقلبه.. ولكنه اعتـذر أنه لم يخطط لذلك وأخبرها أن الذى حدث بينهـما قـد حدث بفعل الصـدفة، ودعاها أن تنسى وتعـيش اللحظة دون تكدير، وسـرح مع صوت الصندوق السـحرى فى كلـمات «**محـمد الفـرانة**» ولحن «**عباس البليدى**» وغناء «**آمال حسين**»:

ياللى جــفاك الحـبيب   وبتبكى أيـام رضاه
دارى البـكا والنحـــيب   وعيد لقـلبك صـفاه
راعيت فى حبه العهود   وليه يجازيك بهجُره
وتشوف معاه الصدود   وبرضُه طايع لأمُره

رأته «**فهيمة**» قد بدأ يدخل البيات فى شروده، فقالت له:

ـ خدها كلمة زى حلق فى ودانك.. كل شىء له نهـاية.. سواء كان حب.. أو شوق.. أو جنس!!

ثم أخذت تتحرك فى حـجرته وهى تردد ماغنته «**ليلى مراد**» من ألحان «**زكريا أحمد**»:

ليه شبكت الروح.. فى الهوى وياك
ليلى سُهد ونـوح.. ياعـذابى مـعاك

تذكرها بالخير بينه وبين نفسه.. ثم فجأة وجدها أمـامه وهى تبتسم ابتسامتها الحزينـة وقد استـعارت الكلمـات من «**أبو بثينة**» فى الغنوة التى غنتـها المغنـية «**عصمت**» من ألحان «**محمد القصبجى**»:

هوّه صـــدك ده مـالوش نهـايه
أنا برضه ياروحى اللى أستاهل

اقتربت منه وهى تلاطفه قائلة:

أســتاهل كـــل اللـــى جــرالى   وأمـــورك دى علمـــهالى

علمنى ياعارفنى ومشتت بالى إتعطّف واشفق على حالى

كان مستسلماً من المفاجأة، فأخذت رأسه على صدرها ليشم العطر فى حدائق الرمان، فلربما يرغب فى اقتحام الغابة المعطرة بشجن المغامرة!!.. ولكنه أحس بأن رأسه قد عاد الغليان من كثرة ازدحامه بالمعانى، وعاد إلى حالة الهلوسة التى كان قد مر بها من قبل، فأخذت تداويه بالكمادات الباردة، بينما كانت تصل أذنيه كلمات «**عبدالله أحمد عبدالله**» فى لحن يغنيه «**عبده السروجى**»:

كل الوجود هادى ونايم بين قلبك القاسى وقلبى
ماتقوللى آخرة هجرانك إيه شاور على برّ وارسى عليه

وفى صوت نصف نائم طلب من «**فهيمة**» أن تشغل **الجرامافون**، وبدأ يشعر بالخدر مع الصوت الذى أحس أنه قادم من مكان بعيد:

حلم لاح لعين الساهرِ وتهادى فى خيال عابرِ
وهُنا ما بين سكون الخاطرِ يصل الماضى يمين الحاضرِ

عندما استيقظ من غفوته، كانت «**فهيمة**» قد رحلت، فقام متحاملا لتشغيل **الجرامافون** مرة أخرى، وبدأ الاستماع لطقطوقة تغنيها «**منيرة المهدية**»:

أغير عليك من النسيم وأخاف عليك من الهوى
إنت العذاب وانت النعيم وانت دائى والدوا

★★★

ليه أحبك تهجرينى وتجرحى منى الفؤاد
كنت ليه بتعشمينى لما قصدك فى البعاد
أنت عقلى وانتى روحى إنتى أسباب الأسيّه
يعنى عاجبك كتر نوحى ولاّ إيه يانور عينيّه
دا البعاد والتقل يجرح هوّه قلبك من حديد
ياللاّ نتعاتب ونشرح ياللاّ نعشق من جديد

هاجمته من جديد السخونة فى جسده وهى تزحف إلى رأسه، فاسترخى فى فراشه وهو يتذكر صديقه «**إسماعيل**» الذي أصابه رصاص الإنجليز وتمنى له الشفاء متسائلا:

ـ كيف لملك مثل مولاه الذى يحبه يسمح للمحتلين بإطلاق الرصاص على مواطنيه.. وكيف ينام مرتاح البال وأحذيتهم تدوس بطن الوطن!

لم يسترسل كثيراً فى خيبة مليكه وضعفه خوفاً من كراهيته له، فحرك رأسه ناحية الحائط المباشر فى حجرته أمام سريره، فشاهد صورة « **شهد**» فى لون باهت.. وأحس بها بعيدة وهى تبادله العتاب فى كلمات «**أحمد رامى**» ولحن «**أحمد صبرى**» وغناء «**أم كلثوم**»:

قالت : ـ

أنا ورده بين إيديك　　وشمعه تنقاد حواليك
وكل آمالى فى حبك　　تكون عينيّا فى عينيك

قال : ـ

يوم تغضبى ويوم ترضي　　وكله فى حبك.. يرضى
وفاكهتك حلوه ومُرَّه　　مانا اللى زارعها فى أرضَى
سقيتها من دمع عينيا　　وشوكها جرّح لى أيديا
وكل ما أجى أقطف منها　　ماتهونشي ياروحى عليا

قالت : ـ

التقل ليه دا حرام عليك
أدينى أهو مابين إيديك

قال : ـ

خايف يكون حبك ليا　　شفقه عليّا
وانتى اللى فى الدنيا دى　　فى عنيا

قالت : ـ

أنا لو نسيت اللى كان..؟!

قال : ـ

ح أفكرك بليالى زمان!..

قالت : ـ

ومين يخالف أحكامك
جرحتنى بسهم عيونك
والجرح يشفع لوصالك

قال : ـ

أتمنى أعيش عمرى فى قربك

قالت : ـ

فكرك يجدد لى شجونى

وبعـدى عـنك يضنينى

اشتـدت سخـونته، وكلمـا حاول النهـوض، سقط مثـل الدجاجة المذبوحـة على فراشه. كان يريد الاطمئنان على حالة «**إسماعيل**».

فجأة .. كانت «**شهد**» تقف أمامه.

قالت :

ـ جئت للاطمئنان عليك!

ـ أنا الذى كنت أريد الاطمئنان على «**إسماعيل**»!!

قالت :

ـ إنه بخير؟!.. ولكنه ذهب إلى العزبة لكى يستريح.. ويبتعد عن الشبهات الى أن تهدأ الأمور قليلا:

ـ مشتاق لرؤيته!

قالت :

ـ فى الصباح.. إذا كنت فى حالة جيدة، يمكننا السفر للاطمئنان عليه.

جلسا يتـحدثان فى أمور كثـيرة.. وكانت قد أحـضرت له مجمـوعة من الكتب.. وأخبـرته أنها ستـؤجل موعد لقـائه مع الشاب الذى كانت سـتعرفـه عليه من أجل العمل السـياسى لخدمـة الوطن والشعب، وبالطبع سـعد بفكرة التأجـيل لأنه كان يخاف على مليكه «**فاروق**» من أى مؤامرة عليه.. لإرغامـه على التخلى عن عرشه، فيفقد حلمه فى دخول القصر واكتشاف السر فى حجراته!!

وفى نفس الوقت، كان يشعر أن قضيـته ليست فى النضال ضد مولاه الذي يحبه، بقدر ما هى الوصول بحلمه إلى شاطىء النجاة



قولى.. أأفزعت فى ثغرى الجحيم
وهـل مــن الـهـــــــوى
أن تـــكـــونـــى
أنـت مـــحــرقـــتـى
ماذا على شفتى السفلى تركت؟!
وهل طبعتها فى فمى الملهوب
أم رئــــــتــــــى

شعر :

نزار قبانى

انتظرنى.. فالحياة جميلة!

كانت «شـهد» تتحرك فى الحجرة كالفراشة الملونة بكلماتها المتطايرة.. ورائحتها التى لوّنت المكان ويداها تلامسانه فى تلاطف اهتزاز النسيم.

وبدأ ينتعش قليلا.. كانت داءه، ودواءه.. فرحه، ووجعه.. سعادته، وشقاءه.. وكان راضيا طالما هى أمام عينيه.

قام من سريره منتشياً مثل الديك عندما يشعر بقرب شروق الشمس لكى يريها **الجرامافون** الجديد، واختار إحدى الأسطوانات لتشغيلها.. كان أغنية من كلمات «**حسين السيد**» ولحن وغناء «**محمد عبدالوهاب**»:

ساعة ما باشوفك جنبى   ما اقدرش أدارى وأخبىّ
أبكى من فرحةْ قلبى   وانســى العــذاب

يانــــور عـــيونــى   زادت شـــــجــونى
دبّــــــل جـــفونى   كُــــتر الغـــياب

طيفك دا تملّى شاغلنى   مطرح ما أروح يقابلنى
أجــى أضمه يخايلنى   ألاقــــيه أوهـــــام
صـــعبان عــليّا   كـــتـر الأســـيّـه
إرحـــم شـــويه   وكفـــايه خصـــام

رمقته مثل الغزالة الشاردة، الخائفة.. ورمقها مثل اليائس المحبط الغارق فى بئر وجعه:

تهجرنى.. برضه أحبك   ما اقدرشي أنساك
طــــول الليـالى   راســمك فى بالى
روحــــى وآمـــالى   ونا كــلّى مــعاك

قالت «شهد» بعد انتهاء الأغنية:

ـ عبدالوهاب هذا، تربية باشوات وبكوات، وهو أيضا من أسباب بلوانا.. وتلويع الناس وخضوعهم لذل من يعشقونهم، فكيف للمحب الذى هجره حبيبه.. يرضى بالإهانة ويحبه!!.. إنهم يحاولون زرع الذل داخل قلوبنا لكى نتعود عليه، وهذه مصيبة غناء هذه الأيام. وما قبلها كان أكتر رداءة مما يقال هذه الأيام.

قال لنفسه :

ـ عجيب أمر هؤلاء الأغنياء الذين يقفون فى صف الفقراء مدافعين عنهم.

قامت تبحث فى أسطواناته وهللت فرحاً:

ياسلام هذه هى الأغنية التى أحب الاستماع إليها!

قرأ غلاف الأسطوانة «**ليه يابنفسج**» كلمات «**بيرم التونسى**» ولحن «**رياض السنباطى**» وغناء «**صالح عبدالحى**»

ليه يابنفســج   بتبهــج   وانت زهر حزين
والعين تتابعك   وطـبعك   محتشـم ورزين
ملموم وزاهــى   ياساهى   لم تبوح للعين

بكلمـــة مـــنّك	كـــئنك	ســـر بين اتنين

حسنك فى كونك	بلونـك	تآنــس المــهجور
اللـــى يـــزوره	سميرُه	فى الظلام مستور

حطوك خـميله	جـميله	فوق صدور الغيد
تسمع وتسرق	يا أزرق	همســـة التنـــهيد

قالت :

ـ هناك فرق، فـهذا الغناء يذيب الأسى ويبـعده عن النفس البشـرية، حيث يستمـتع المستمع بحالة من الرومـانسية الجمـيلة بلا لوع.. أو تـحريض على الإحباط.

كان كلامها مقنعاً، ولكنه لا يعرف لماذا استعاد صورتها وهى فى **الزار** بشعرها الذى تاه منها أثناء حركاتها المحمومة.. وفستانها الذى شقته من عند فتحة صدرها مثل جميع نسوة حارته بوهم إخراج العفاريت من أجسادهن..

أعادته للمناقشة.. فقال:

ـ فعــلا.. «بيرم» شــاعر محـموم بعــاطفة جمـيلة.. وفى نفس الوقت نراه مهموما بأوجاع الوطن التى تمتزج بأوجاع قلبه.

نظرت فى ساعتهــا واستأذنته للرحيل على أن تمر عليه فــى الصباح، ثم طبعت قبلة على خده وخرجت مـسرعة، بينما كانت «**ليلى**» فى حجرتها تنعى حظها على كلمات «**محمد إسماعيل**» ولحن «**محمد هاشم**» وغناء «**آمال حسين**»:

حجبوكَ عني.. وطاوعهم قلبك
ياهاجر.. ياناسينى ف حـــبك

يا روحى يا أغلى من روحـــى	**ياأجمل ما رأت عينى**
تعــالى جـــدّد فىّ أفــــراحى	**بادلنى الحـب هنّينى**

جلس يحتسى الشاى وهو يفكر فى الصندوق السحرى الذى يخرج المعانى التى تعبـر عن الكثير من الأحـاسيس التى يمر بها.. وكأنــه أحد المخبرين يراقب حـالته النفسية والمزاجية بإتقان شديد، مـتعجباً من الصندوق والجرامافون بأسطواناته..،

فهما غارقان فى وجع مستمر بلا بهجة تفتح نافذة على الفرحة..

كان غارقاً فى استرساله.. بينما أرسل صندوق «**ليلى**» رأيها الشخصى باعتزاز وثقة فى كلمات للدكتور «**سعيد عبده**» ولحن «**رياض السنباطى**» وغناء «**عصمت**»:

الدنيا فى إيدى والكل عبيدى
طوال ما انت معايا

كان يحس بأنها امرأة قادرة.. واثقة من أنوثتها، وهى لاتعرف وغير مدربة على إخفاء مشاعرها.. واضحة. لا تكذب.. ولا تفكر، فقط هى تنجذب فى اتجاه الضوء مثل أى فراشة.. وهو الحياة بالنسبة لها.. فلماذا يختفى عنها.. ولماذا يحاول الهرب وهى التى أكدت له بلغتها ذات يوم أن «**اليوم وياك عمر بحاله.. بهناه ومناه ويا أماله**»..

قال يومها ردا عليها:

- «**جربت هواك وشربت مراره.. بشقاه وضناه.. ولهيبه وناره**»!!

لذلك تشجع أن يراها.. وشجعه على ذلك رغبته فى إبعاد صورة « **شهد**» عن مخيلته.

كان أثناء صعوده إلى «ليلى» يشعر بأنها تهمس له:

«**حاسس بأنك تهوانى.. زى ما أنا أهواك.. يطيب قلبى لتعذيبى.. علشان يزيد حبك ليا.. وان كنت راضى ياحبيبى.. الدنيا تبقى فى إيدى**»!!

استقبلته بلهفة وهى تذوب فى ألوان حوائط حجرتها التى كانت قد صبغتها كلها بلون «بمبى» صارخ فى شدته وهى تقول له فى أسى:

- «دقت المر فى بعدك»!

رد عليها :

- «**جعلت الصبر فى بُعدك سلاحى**»!

قالت :

- «**فاكر.. آخر ميعاد كان بينا**»!

قال :

- **أيام بتفوت وسنين بتجرى.. ونا بادبل فى ربيع عمرى**»!

قالت فى خوف حقيقى أحسه فى رعشة صوتها الملهوف:

- «**سلامتك ياروح روحى**»!

كان قميصها الذى فى لون حجرتها يرفرف مثل علم دولة استسلمت قبل أن تدخل الحرب..

وكانت فى همسها له أقرب إلى استجداء الأسرى للحصول على أقل ما يمكن من مساحة للحرية تتجول فيها أحلامهم لكى يتنفسوا ذكرياتهم.

ذهبت فى اتجاه **الجرامافون**، وقامت بتشغيله.. كانت كمن لقنته كلمات معينة لا يقول غيرها، وكانت تغنى معه فى صوت مهووس الكلمات التى كتبها « **مأمون الشناوى**» فى لحن وغناء «**محمد صادق**»:

كفايه تعذيبك لقلبى ياللى وهبتك كل حبى
إن كان حنانى وعطفى ذنبى كفايه
ياما بكيت لك بدمع عينا
لا حنّ قلبك ولا قلت ليه كفايه
إيه بس آخرة حبك إيه ولحد أمتى تعذيبى
مش لا قى يوم أبكى عليه لما أنسى حبك ياحبيبى

أحس أنها تشكوه من خلال **الجرامافون** وهى تؤكد له حبها، وفى بكائها كانت تغسله بمطر دموعها الذى أحس بطعم مرارته فى شفتيه.. وكانت بين يديه مثل مدينة بلا علم، تجردت من كل شىء ماعدا مشاعرها المشتعلة داخل شوارعها التى تحلم بالأمان.

عاوده الإحساس بالرضا فى حضنها، فأفرغ كل ما فى عقله وما على جسمه وألقاه على الكنبة الملونة التى تتوسط الحجرة ورقد بجوارها مستسلما للمعركة الأولى التى بدأت بالمناوشات.

قالت له وهى تلحس بلسانها أذنه:

فرح فؤادى واتهنيت والدنيا حلْيت فى عينيا
وفرحتى خليتنى بكيت لما الحبيب حنّ عليا

كان يشم عود الريحان فى رقبتها المعطرة وقال لها متذكرا الأغنية التى من

لحن «زكريا أحمد» وغناء «محمد عبدالمطلب»

ياما قالولى الحب هوان   واللى يعشق يتألم
وفضلت خايف م الأشجان   وبديت عن الحب اتكلم

قالت له وأصابعها مثل المراكب الصغيرة تتأرجح فوق صدره:

أنا كنت بلوم الناس من قلبى   ورضيت اليوم فى هواك.. بذلّى

قال وهو يقترب من حدائق الرمان:

مخلص فى غرامى وماليش مثيل   صادق فى كلامى والصدق قليل

تعطر بالريحان.. وداعب الرمان.. وبدأ يتجول دون حرس، بينما لسعته آهة كانت مختفية مثل الفراشة المشتعلة وهو يقترب من شجرة الورد.

وفى مثل الحواديت القديمة: **ألقى القائد كل ذخيرته مستسلماً للأميرة التى بهرته بجمالها بعد أن رفع علمه على أجمل منطقة فى مدينتها المتداعية.. وأسعده تحقيق النصر.**

★★★

فى الصباح ذهب مع « **شهد**» إلى عزبتهم لزيارة صديقه «**إسماعيل**».. وكان الطريق مليئاً بالحقول الخضراء، فأخذ يتأمله ويمتع عينيه بالخضرة ويغسل قلبه فى مياه الترع والقنوات التى كانت كثيرة.. وكأنه يحاول الهرب من الدخول معها فى أي حديث، مستنجدا بالكلمات التى يتذكرها من الصناديق السحرية، محاولاً شغل أفكاره بمنولوج بينه وبينها.. اختارهو كلماته من الأغنيات التى غناها « **محمد عبدالوهاب**» واختار لها كلمات من أغانى «**أم كلثوم**»:

- **القلب ياما انتظر!**

- النوم يداعب جفونى!

- **ياوردة الحب الصافى!**

- أكذّب نفسى عنك فى كل ما رأى!

- **علمّوه كيف يجفو.. فجفا!**

- ليه عزيز دمعى تذلّه!

- **أشكى لمين الهوى!**

ـ ياللى ودادى صفالك!

● **ياناعماً رقدت جفونه**

ـ روحى وروحك فى امتزاج

● **فى الجو غيم ! ونا.. أحب عيشة الحرية!**

ـ ياما أمرّ الفراق .. ياللى جفاك المنام!

● **فى الليل لما خلى.. شجانى نُوحك يابلبل!**

ـ ياللى انت جنبى.. على بلد المحبوب ودينى

● **بلبل حيران.. اسمح وقوللى يانور العين!**

ـ أراك عصى الدمع..

كانا قد وصلا إلى العزبة.. وكان فى استقبالهما « **إسماعيل**» الذي رحبّ بهما مهللاً وشكر أخته «**شهد**» على إحضاره.

قال :

ـ **طمنى عليك يا إسماعيل»!**

ـ **زى ما أنت شايف.. عمر الشقى .. بقى!**

ـ كنت قلقاً عليك.. وخائفاً.

كانت «**شهد**» قد ذهبت للمساعدة فى إعداد الغذاء. سرح فى جو المكان المحيط به.. وبالسكون الذى تحاول أن تحركه زقزقة العصافير ورفرفة أجنحتها ووشوشة الأغصان للنسيم التائه.

قال «**إسماعيل**»:

ـ سأعود خلال أسبوع.. ولابد من الاستمرار فى مناهضة الإنجليز لكى يخرجوا من بلادنا.. وكذلك لابد من إسقاط الملكية.. إنها نظام وراثى فاشل ولن يجعل من مصر دولة قوية فى اقتصادها، فالفقر يزداد.. والفساد يسيطر على كل شىء!!

انزعج من حديث « **إسماعيل**» المباغت لأنه يمسّ ملكيه « **فاروق**» .. ويمسّ حلمه.، **ولذلك** فضل الاستماع دون أبداء رأيه، محتفظا بشعاره: «**حفظ الله الملك**» فى قلبه **وأغلق** عليه من شدة خوفه وقلقه عليه!

جلس ثلاثتهم يتناولون الغداء.. كان « إسماعيل» شديد القسوة على ...
الأغنياء، منحازا إلى الفقراء، فنظر حوله.. الأرض التى يملكها كبيرة الـ...
ومجموعة من الخدم والعمال.. والفيلا ذات الثلاثة أدوار.. والطعام الذى ...
من حمام وبط.. وفاكهة، فكيف الذي يملك كل هذه الأشياء يحس بالفقر والفقر...
إنه يراه بعضاً من النظام الحاكم.. فكيف يقف ضده!!.. ولماذا!!

تشجع وسأله.. فأجابه بكلمات ضخمة عن الاشتراكية وعن نظام اقتصادي
يرتكز على أفكار «كارل ماركس» وكذلك عن رجل اسمه «لينين».. وأقنعه ...
ماهو فيه من نعيم ورخاء لم يمنعه من اعتناق هذه النظرية لأنه يؤمن بها. ...
وهب حياته من أجل تحقيق حلم الاشتراكية.. لأنه حلم المستقبل!!

فى العصرية بعد الغداء، جلس فى حديقة الفيلا يفكر بمفرده فيما ...
« إسماعيل» وأفاق على صوت يهتز مع النسيم وهو مدمى من الجراح.. كان
الصوت لأحد الفلاحين وهو يغنى بمصاحبة ناى يبكى:

عاشق رأى مبتلى.. قال انت رايح فين
وقف يقرأ قصته ، بكوا سوى لتنين
راحوا لقاضى الهوى لتنين سوا يشكو
بكوا التلاته وقالوا حبنا راح فين!

سار فى اتجاه الصوت ووصل إلى صاحبه، كان رجلاً عجوزاً ويجواره شاب
ممسكا بآلة الناى، يجلسان تحت شجرة مثمرة بالبرتقال. لم يقاطعهما.. ولم يظهر
نفسه لهما، فاستمر العجوز في الغناء لموال حزين:

يازارع الودّ .. هوه الودّ شجُره قَلّ
ولاّ سواقى الوداد جفّت وماءها قلّ
أيام بنشرب عسل.. وأيام بنشرب خل
وأيام ننام ع الفراش وأيام ننام ع التل
وأيام بنلبس حرير.. وأيام بنلبس فلّ
وأيام بتحكم على ابن الأصول ينذل

انسحب عائدا وهو فى حالة غير متوازنة، فوجد «إسماعيل» ممددا تحت شجرة
الجميز الكبيرة ممسكا بكتاب يقرأ فيه، وعندما رآه قادما، ابتدره قائلاً:

- تعال اسمع ياسيدى.. شوف «عبدالحميد الديب» بيقول إيه. اسمع:

أيقظوا النوام فالدنيا ضُحى	كل شعب قد صَحا
حطموا الأحلام. دارت الرحا	للجهـاد والنضال

- أنه:

- من هو «الديب» هذا؟!

ضحك «إسماعيل» وكاد يستلقى على قفاه وهو يقول:

- إنه أكبر الشـعراء صعلكة وفقـرا.. ويجب أن تقرأ أشعاره، فسوف تجد متعة كبيرة.

جاءت «شهد» بالشاى.. وجلس الثلاثة يتحدثون فى الموضوعات المختلفة.. بينما كان الصندوق السحرى يطلق زفـراته من داخل الفيللا فـى كلمات « عبـدالعزيز سلام ولحن وغناء «نادره»:

محتار أحبك ولاّ أنســـاك	أعطف عليك ولاّ أهوى سواك

محـتـار

ساعة ما أشـوفك تجافينى	أبـعـد واجـــافيك
ترجـع بدمـعك وتجـينى	والشوق فى عنيك
اواسى قلبك وأجارى حـبك	وأقول فى قربـــك
محتار فى حبك ولا أنســاك	أعطف عليك ولاّ أهوى سواك

كانت أمام « إسماعيل» بعض دواوين الشعر، فالتـقط واحداً.. وقال وهو يحرك الديوان عاليا بيده:

- هذا الشاعر سيكون له مـستقبل كبير.. وأتنبـأ له بأنه سوف يكون مميز فى أشعاره عن المرأة...

ثم بدأ يقرأ وصفه المدهش الملتهب عن «القبلة الأولى»:

عامان مرّا عليها يامُقبّلتى
وعطرها لايزال يجرى على شفتى
كأنها الآن، لم تذهب حلاوتها
ولايزال شذاها ملء صومعتى

لو كان شعرك فى كفّى زوبعة
وكان ثغرك أحطابى وموقدتى
قولى.. أأفرغت فى ثغرى الجحيم، وهل
من الهوى أن تكونى أنت محرقتى
ماذا على شفتى السفلى تركت؟ وهل
طبعتها فى فمي الملهوب؟ أم رئتى
ويزعم الناس أن الثغر ملعبها
فما لها التهمت عظمي وأوردتى

سكت «إسماعيل» واحتضن الديوان وهو يميل على أذنه قائلا:

ـ يجب أن أشفى بسرعة، وإن شاء الله سوف ترى العجب عندما آخذك معى.!! ثم قال بصوت عالٍ:

ـ الحياة جميلة.. فانتظرنى!!

قالت «شهد» لأخيها «إسماعيل»:

ـ سنعود باكر للقاهرة.. ونحن فى انتظار شفائك وعودتك، وعلى فكرة.. فيه حفلة «لأم كلثوم» فى مسرح حديقة الأزبكية، وسوف أذهب للاستماع إليها!.. ثم التفتت إليه:

ـ هل تأت معى!

أومأ برأسه، هامساً لنفسه:

ـ منيتى.. ظلك أنا!!



يا قلبى ياما تميل.. بنظره وابتسامه
وياما تعشق.. وياما تكره.. وياما.. ياما
تبدى العواطف اليوم.. وبكره تبدى الملامه
وانت ياقلبى .. مالاكشى قدره ياالله السلامه
حاسب ياقلبى

غناء :
أم كلثوم

الحفل

فى اليوم التالى ذهبا فى المساء إلى مسرح الأزبكية، كانت المرة الخامسة التى يحضر فيها حفلاً لأم كلثوم..، التى كانت تقيمه مرة فى الشهر ودائماً يوم الخميس، فهو اليوم الوحيد الذى يتجمع فيه المصريون فى المنازل مع الصناديق السحرية.. و على المقاهى.. وكان يوماً مقدساً، حيث يسترخى الجميع لاستقبال نفحات الشجن الممزوج بلذة فى استعذاب عذابات الحب والهجر والوجع!

فى تلك الليلة غنت «**أم كلثوم**» ـ لأول مرة ـ أغنية جديدة من كلمات « **بيرم التونسى**» ولحن «**زكريا أحمد**».. وكان اسم الأغنية «**ياقلبى**».. وكان ذلك فى **أبريل عام ١٩٤٦.**

كان أغلب المتواجدين من الرجال، لهم شوارب رفيعة، بعضها يشبه شارب

مولاه.. وكانوا يتحسسون شواربهم دائما فى حركة تعودوا عليها.. وكذلك طرابيشهم، فمرة يحركونها ناحية اليسار.. ومرة لليمين، ثم مرة يزفرون زفرة حارة، فيحركونها للخلف، وقد حاول تقليدهم فى حركاتهم.

كانت «**أم كلثوم**» على المسرح غير التى يستمع إليها من خلال الصندوق السحرى أو **الجرامافون**، كانت امرأة مسيطرة.. تعرف ماذا تريد.. وما الذى يجعل القلوب تلهث معها.. تُحرك المشاعر بمنديلها الذى تعصره فى يدها، فيذوب العشاق معها.. هى واقفة.. تتمايل فى رزانة مع صوت الموسيقى.. وأحياناً تطلق آهة، عبارة عن قذيفة من الوجع الذى لم تتحكم فى المنع عن البوح به، فيهلل المستمعون: وكانت مطربة قادرة على فرض سيطرتها بما تريده!.. وكان كل هذا تفعله بعفوية دون تصنع.. ولكنه أحس أنها تدرك تماما كل حركة لها.. تؤديها بوجهها وجسدها ويديها على المسرح.

بدأت فى الغناء:

ياقلبى ياما تميل.. بنظره وابتسامه
وياما تعشق.. وياما تكره.. وياما.. ياما
تبدى العواطف اليوم.. وبكره تبدى الملامه
وانت ياقلبى.. مالاكشى قُدره ياالله السلامه
حاسب ياقلبى

ضجت القاعة بالتصفيق وزفرات الاستحسان.. ورقصت الطرابيش على الرؤوس

أما هو.. فوجد فى الكلمات رسالة منه إلى «**شهد**»، فنظر إليها وهو يبتلع عتابه، ثم عوج طربوشه ناحية اليسار.. وهو يقول:

- الله ياست!

الموسيقى تحرك القلوب، فتذيب أقدام الوجع الذى يزحف لمحاولة التواجد والاستيطان داخله:

ما انساش ياقلبى فى فجر حبى.. وفى عزّ فرحى
ياما نصحتك كتير ياقلبى، ما قبلت نُصحى
اللى صفاك فى الغرام.. جفيته، وبعدت عنّه

واللي سقاك الهوان.. هويته.. وشربت منّه
وملت كلك للى يذلك ولا يريدك ولا يميلّك
مسكين ياقلبى

مرة أخرى تضج الصالة بالتصفيق والاستحسان، وأحس أنها تغنى بما يريد قوله لشهد، فدمعت عيناه.. وعوج طربوشه للخلف.. وحاول ملامسة كتفها بكتفه فى حركة بطيئة، فشعر بنوع من السخونة التى بدأت تُكهرب حواسه فى تدفق بطىء، فعرف أنه فى الجنة، وغاص بمشاعره ولوعته مع غناء «أم كلثوم» التى كانت تؤكد على تعب العشاق والقلوب الموجوعة:

على كل زهرة ياقلبى.. ياقلبى طاير
تحسبها بشرى .. من البشاير
وهيّا حسره.. تحرق مراير
وسهام تصيبك من إيد حبيبك
واديك فى حبى.. وقفت حاير
وكل نُوبه.. تقوللى.. توبه
والتوبه واللّه .. لها أماير
كداب ياقلبى

كمية هائلة من الزفرات الساخنة، المحتجة على خداع قلبها.. فاستسلمت كل القلوب المخدوعة لهوان اللحظة على أعتاب الشكوى من القلب.. وليس إلى الحبيب:

قلبى
قلبى.. ياقلبى آه.. آه.. آه.. ياقلبى

أحس الجميع بأن قلوبهم تسقط تحت أقدامهم.. والزمن يدوس عليها.. ومن أحببناهم قد تفننوا فى ذبح قلوبنا المحبة الطيبة، **فعوج طربوشه فى نرفزه للأمام.. وحاول مثل جاره، أن يبرم شاربه، فلم يجد سوى مساحة ملساء، كانت الدموع قد وصلت إليها، فحاول توزيعها على خديه**، بينما كانت «أم **كلثوم**» تحاول الدخول إلى منطقة العتاب:

قلبى .. جعلتك سرى.. وضميرى
لاكن ياريتك.. تكون نصيرى

خليت غرامى.. للكل.. باين
ولا انت حافظ.. ولا انت صاين

بدأت «**أم كلثوم**» تعلو فى بث وجعها لجميع المتواجدين، الذين كانوا يحركون طرابيشهم في كل اتجاه من فرط اختلاط المواجع والشكوى والحنين، أما هو.. فقد التصق كتفه لمساحة أكبر عن أول مرة مع عناق فى كتف «**شهد**»، فكان نفس الإحساس.. ونفس لهاث السخونة التى تخترق جسده!!

كان يشعر بتخديره تسيطر عليه، ومع صوت «**أم كلثوم**»، اعتدل وهو لا يزال غارقاً فى الكلمات:

لو .....
لو تنسعد بوصال.. من اللى هجرُه طال، تعلن ولا تدارى
ويوم فراقه تدوب.. ومعاك تبكى قلوب، وتبوح بأسرارى
وبدال ما تبقى سبب هنايا
تشفى وتبقى.. سبب شقايا
وياقلبى وادى أنت.. فى النهايه
وحيد ياقلبى

أحسّ أن «**شهد**» كانت تقصد طهى مشاعره على نار الآهات بمصاحبته إلى هذا الحفل لكى لايكفّ عن حُبه لها، **فعوج طربوشه فى كل الاتجاهات، وانحاز إلى التصفيق مع المتواجدين فى الصالة، وبمثل شجاعة الكبار، وضع يدها فى ذراعها مثلما شاهد الجميع وهم يفعلون ذلك، واكتفى بالدفء السارى منها وهما يغادران الحفل..** وأوصلها إلى منزلها.. متمنيا لها أحلام سعيدة.. بينما نظرت إليه نظرة فهم منها أنها تعاتبه لأنه لم يفهم رسالتها!، ومع ذلك طبعت قبلة على جبهته، وتمنى لو كانت لم تحسب المسافة بين جبهته وشفتيه!!.. تمنّى.. وهو دائما. ومع أحلامه يتمنَّى.. ولا يحصل إلاّ على أمنيات فارغة، تلاوعه

بعد أن تركها، أخذته قدماه إلى شاطىء النيل، فسار بلا هدف يتأمل ما حوله، فعلى الشاطىء الآخر بعض البيوت القصيرة المتناثرة، وكلها مطفأة، بينما بعض مصابيح الشارع الصامتة تحاول مداعبة الأمواج، فتهبطت إليها.. تقبلها فى رقة..

وتتمازج معها فى شكل يذكره بجسد عاشقين ذابا فأصبحا جسداً واحداً.

تذكر أنه كان دائم البحث عن الحب.. وها هو يشعر به الآن.. ولا يصيبه منه سوى الأرق والتعب والغرق فى كلمات الصناديق السحرية والجرامافونات.. فهل الحب هو الحنان؟!.. إذن لماذا شكا منه «زكى أفندى مراد» وهو يغنى:

بزياده ملام.. والنبى حرام   لوْ تشوفوا حالى.. بالليل ما بنام
أنا عاشق ذليل.. ودموعى تسيل   وليلى طويل.. وزاد السقام
أترجاه يتمنع
يسيبنى ويتدلع
على جبينى مكتوب وهما يقولولى توب   داحكم الغرام

أم أن الحب مصلحة كما غنىّ له «**محمد أفندى أنور**» فى ليلة من ليالى أساه:

من رادك ريدُه
ومن طلب بُعدك زيدُه
روحك ماهيش فى إيده

ربما يكون الحب نوعاً من العبودية التى عاشها «**محمد أفندى أنور**»، فأعلن:

إرحم أسيرك أنا عبدك   ما أقدرش أبعدعلى بعدك

أو ربما هى العبودية المزوجة بعسل الوعود التى أحس بها «**داوود حسنى**» فى غنائبه الحائر:

بدلاله ودلعه الاتنين   خلونى فى الحب ذليل
فى بُعده أبكى بأنين   ويلومنى مايلومشى العين
ألاقيها منين ولاّ منين

تساءل :

هل مباح لنا عندما نحب أن نشعر بالمذلة.. وهل يجوز للمحب اضطهاد روح من يهواه.. وتعذيبه وتقليبه على جمر النار؟!..

هذا ما غناه معتقدا «**محمد أفندى عوض العربى**» وهو يؤكد رضاءه، مستسلماً:

من الحاجب ومن العين　　الأســـمر قـــتلنى
علشـانه إحنا جـيناله　　ده والله وحشــنا
مين يقـدر عــلى بعاده　　ده لحظه جـرحنى

أم هو فى النهاية نوع من النواح على ذكريات مضت؟!.

هذا ما أوجع قلب «**فريد الأطرش**»، فغنى معلنا:

نـويت أدارى ألامـــــى　　وأخبى دمعى ونحيبى
وأحكى شجونى وغرامى　　لحالى ولطيف حـبيبى

لا يقتنع بهذا كله.. لأنها معانى بعيدة عن شواطىء الفرح.. وهو يحس أن الحب هو نوع من الانتماء إلى شخص آخر ليذوب فيه، فيفور داخله الإحساس بالملامسة، متمنيا احتواءه للاقتراب من أنفـاسه وخلطها بالـتبادل مع أنفـاس من يحب فى تواصل حـميم للاقـتراب من اسـتنشـاق رائحتـه.. واكتـشـاف تضـاريس جسـده والمناطق الأكثر تأثيرا وتأثرا فيه.. والسباحة مع سخونة آهاته المطلة كالوردة البكر فى لحظات الانسجام.

يشعر بأنه يحب.. ولا ينكر رغبته فى تذوق رائحة «**شهد**» وهى تتنفس أنفاسه فى حضنه، حيث يعيـد تشكيلها من خـلال مرور لسانه على جـسدها لاسـتطعام ملحه وعرقه فى الذوبان والتوهة فى دهاليز دفئه.

لكن الغريب أيـضاً.. أنه يتلذذ بمراقبـتها عندمـا ترقص الكلمات على شـفتيـها.. ويشعر بالأمان وهو يلامس يديها.. **ويشعر فى نفس الوقت أن هذه الأحاسيس تشبه عابر سبيل ينتظر طرق أحـد الأبواب لطلب الحصول على وجبة ساخنة وبعض الدفء الذى يخدر جـسده من بعد طـول التجمـد أمام بوابات الانتظار كاتما مـشاعره..** وهو فى نفس الوقت، ينجـذب حسيـاً دون مسـاعـدة من عقله.. يقوده أحساسه إلى مناطق الانتمـاء والذوبان فى جسد واحد تمّ تشكيله من خلال جسدين كانا تائهين!

أفاق من تأمـلاماته، فسار حـزيناً فى اتجاه منزله.. وتذكر بعض أبيات شـعرية للشاعر «**إليا أبوماضى**»

جـئت لا أعلم من أين .. ولاكـنى أتيت
ولقد أبصرت أمامى طريقا .. فمشـيت

وسأبقى سائرا.. إن شئت هذا أم أبيت،

★★★

عندما اقترب من منزله، كانت حارته غارقة في ظلام أخاف كلابها فدفعها إلى الاختفاء.. وكانت كل الشبابيك مغلقة، باستثناء شباك «**ليلى**» الذى كان مفتوحا وستائره مسدلة، بينما ينبعث من جرامافونها الشكوى فى أغنية للمطربة «**سنية حسين**» التى يتذكر أنها توقفت عن الاستمرار فى مشوارها الفنى.. وسمع أيضاً أنها كانت من المطربات المنافسات للمطربة «**أم كلثوم**»:

على أدّ شوقى وتعذيبى   ونار بعادك ياحبيبي

ماسلاش غرامك

تنهى وتؤمر علي كيفك   ومين يخالف أحكامك

ياريتنى بس أشوف طيفك   وأشكى نارك ودلالك

وجرح قلبى بْحظك   ماسلاش غرامك

على أدّ شوقى وتعذيبى

قال لنفسه :

ـ سأصعد لأشرب الشاى فقط!

استقبلته وفى عينيها غضب وقالت بعد أن أغلقت **الجرامافون**:

ـ يا هلترى ياحبيبى كنت فين النهارده!.. شعرك مسبسب وعينيك مسبّله.. ولابس على سنجة عشرة!!

وقبل أن يرد عليها قالت:

ـ عارفة .. أكيد كنت مع صاحبتك المعصعصة بنت الذوات!!

قال:

ـ أنا جاى أشرب كوباية شاى معاكى.. وبعد شويه أروح أنام!!

قالت :

ـ ح أطلعك قصر عالى وتشبع نوم.. وافرجك ع الجنينه اللى انتشت اليوم!

جلس على الكنبة الملونة فى حجرتها وهو يحاول إعادة توازنه، فقاطعته وهى تتراقص أمامه فى غناء:

بتحب مين ياعينيا   دا الحب وعد عليك وعليا

إسـمع بقى وقـوللى بتحـب مين وحـياتك قـوللى
بتحب مين ونا باحبك هوّه ياسيدى عذابى حلال عندك

حاول جذبها من يدها لتجلس بجواره، فنهرته قائلة فى دلع:

بلاش هزار ياعينيا بابا كلمتُه ماشيه عليا
ماتبعد عنّى شويه ويكفى أدنت بتتفرّج

كان يعـرف أنها تستخـدم فى حوارها معه مـاحفظته من الطقـاطيق التى كانت تغنيها مغنيـة اسمها «**الست توحيدة**» فى العشرينيات قـبل تحرير الغناء.. حيث اختلط الموروث الـشعبى مع التـأليفـات الجديدة الهابطة الواقـعة فى أسـر الألـحان التركية.

أفاق على صوتها بعد أن جلست بجواره:

ـ حرقت قلبى وإيه يشفيه.. غيرك ياحبى ياساكن فيه.

قال وهو يتنهد:

ـ لو كان الخلّ صافى.. ما اشتكيت مُرّ الفعال!

قالت له فى انفعال:

فى أي مذهـب وأي مـلّه ترضى لخلك بـ دى المذلّـه
علشان حبايبك دايماً أذلـه تزيد فى هجرى من غير أدلّه

قامت غاضبة وهى تزفر فى حسرة، واتجهت إلى **الجرامافون** الذى أطلق الغناء بصوت خافت:

عاهـدتنى ونا مـش أدك عاندتنى من غير داعـى
توعد وتخلف آه فى وعدك والهجر عـندك وتراعـى
عـلشـان انت بكمـالك ماسـلاش غـرامك
على أد شـوقى وتعذيبى

اقتربت منه مرة أخرى وهى تهمس له:

ـ إيه اللى كـان بينى وبينك.. جاوب.. ياللى شـاغلنى بدلالك.. مـا اسلاش غرامك!

غرق مع إحسـاسه بالهزيمة مع حلم «**نابليون بونابرت**» الذى دُفن فى الثلوج،

فأحس ببـرودة تغلّفه، فانتفض كـالعصفـور الخائف وهو يرتعش، بحثا عن بقـعة دفء.. وحاول التقرب إلي «**ليلى**» بما يفكر فيـه وإشراكهـا معه، ولكنه تذكـر أنها ترفض الدخـول فى دهاليز الأفكار التى فى رأسـه، فهى تحبـه بلا رأس أو أفكار.. فظل مستغرقا فى تأملاته الصامتة، الشىء الذى أشعلها غضبا وقالت:

ـ ياسى لافندى.. ماتقوللى كلمـه.. إلمسنى لمسه.. بس والنبى بلاش كلماتك البايخة اللى لابسه طرابيش ومالهاش أى معنى!

كان لايزال فى صمته.. وهى تريده.. و..الآن.. لقد فاض بها، أما هو.. فكان مثل الطائر المصاب وعليه أن يعـبر إلى الشاطىء الآخر لإنقاذ حلمـه.. وأحس أن جسده تخربشـه أظافر كالسـكاكين، فاستـسلم لها لتذبحـه على طريقتـها التى كأنهـا قد استعارتها من الغزاة عندما يدخلون مدينة، فيفتكون بأهلها في قسوة وشراسة فى رغبـة منهم لإغراق المدينة فى جمـيع أنواع القهر والانتـقام.. **وتذكر فى وجـعه، حلمه فى اقتحام قصر مولاه والبحث فى حجراته عن سر لا يعرفه!**

★★★

عاد إلى حجـرته مهمومـا، يجر قدميه بصـعوبة، فبدأ يخلع مـلابسه، ورأى ما فعلته أظافرها فى جسده، فاقـترب من الجرامافون ووضـع إحدى الأسطوانات.. ثم رفض تشغيله وأحـس أنه يسمع صوت «**ليلى**» يطارده فى كلمات غنتـها « **منيرة المهدية**»: «**أغير عليك من النسيم.. وأخاف عليك من الهوى!**»

همس لنفسه:

ـ وأنت العذاب وأنت النعيم.. وأنت دائى والدوا.

وهو يحاول النوم، كان يشـعر بقلبه ينخلع من بين ضلوعـه مثل طفل يحاولون اختطافـه من أمه.. وأحس بصـوت ناى يأتيه من بعـيد.. فـرجع بخيالـه إلى عزبة «شـهد»، فسمع موالا حزينا كان قد غناه «**محمد قنديل**» من لحن «**سيد مصطفى**» فى برنامج غنائي من إخراج «**حافظ عبدالوهاب**»:

آه من زماني وآه من فرح عذّالى
سهران فى نور الأمل.. أبكي على حالى
من بعد طول الوفا.. بُعده شغل بالى
يمكن ياقلبى ناسينى لما غاب عنى

آه من زماني وآه من فرح عذالي

عندما استيقظ في الصباح، استقبله الصندوق السحري وهو يغني لمولاه الملك من كلمات «**أحمد عبدالمجيد**» ولحن «**موسى حلمي**» وغناء «**نور الهدى**»:

أطل على الكون عـيد الملك يبشر بمقدمـه الربيـع
وعمت هتافات «يحيا الملك» رحاباً تتيه بعرش منيع

أطمأن أن مولاه بخير، فالجميع يهتفون بحياته.. ولم يتأذ بعد من غضب صديقه «**إسماعيل**» وأفكاره، فشرب شايه في هدوء.. وبينما كان يرتدي ملابسه، فاجأه صوت قادم من صندوق «**فهيمة**» كأنما يحاول أن يذكره بها من كلمات «**حسين السيد**» ولحن وغناء «**محمد عبدالوهاب**»:

شبكوني ونسيوني قوام وفاتوني ولا حتى سلام
ياخسارة عشرة لايام شبكوني.. وفاتوني
شبكوني وحلفت يمين لاستني من يوم لتنين
عايز اشكي وحاقول يامين من غيرك ياحبيبي مين

وفي نفس الوقت، كان صندوق «**ليلى**» يكمل الأغنية:

ياحبيبي أنا محقوق ليك ولو إني مش عايب فيك
ماتقوللي إزاي أرضيك طوّل عشرة لايام

عندما تلصص من خلف شباكه، وجدها تشير إليه أن يستمع إلى الكلمات الصادرة من الصندوق السحري لكي يشاركها فيما تريد قوله:

شبكوني وهما الباديين وفاتولي أشواق وحنين

كانت «**ليلى**» ترمقه بنظرات حزينة من شباكها الخشبي، متأسية.. لا تملك القدرة على التصرف، وكان هو صامتاً يحاول احتواءها في عينيه، فأغمضهما على صورتها، ولكن صندوقها السحري أعلن عن أغنية جديدة للمطربة «**صباح**» من تأليف «**أحمد رامي**» وألحان «**فريد غصن**» ومن أغاني فيلم «**قلبي وسيفي**» الذي تعودت الإذاعة على بثها:

ياطيري ساكت ليه والحزن عاقد لسانك
صعبان عليك من إيه ياهلترى الحظ خانك

هون عليك ظلم الأيـــام دا كل شــيء بالصـبر يلين
واجـعل أنينك ده أنغــام تملا الوجـود ألحان ورنين

يرغب فى انقلاب يُغيّـر حياته.. شىء جديد يُخرجه من حالتـه التى تعوم دائما فى بحر من الوجع لا نهاية له..، يشعر أن كل ما حـوله ليس كافياً بصدق عواطفه التى كانت ودائما فى اتجاه معذبته «**شهد**»، ويخاف على حلمه من السرقة! ويخاف أيضا على «**مليكه**» صبوح الوجه، جميل الشارب من أي اعتداء عليه.

وفجأة تذكر «**مصطفى صادق الرافعي**» وعشقه للكاتبة «**مى**» حين قال:

وقـفت يومـا على شاطـىء البحـر، فـخـيل إلىّ أنه «عين» تبكى بهـا الكرة الأرضية بكاء على قدرها، وتأملت الجـبال فحسبتها همومـا ثقيلة مطبقة على صـدر الأرض، وفكرت في البراكين. فـقلت: لوعـة أحزانهـا تثـور وتهمـد.. ثم رجعت بهذا النظر إلى الإنسان، فإذا له على قـدره بحر وجبال.. وبراكين فعند الطبيعة لا ألم ولكنه نظام.. وعند الإنسان: لا نظام، ولكنه ألم»!!

عــاد للتفكيـر فى «**شهـد**» بينمـا كان الصندوق السـحـرى يتسلل منه صـوت «**أسمهان**»:

فرق ما بينّا ليــه الزمـــان دا العمـر، بعدك كله هـوان
فؤادى فى حـــبك مــجروح وقلـــبى من بعدك بينـــوح
تعالى شوف ياحبيب الروح دا العمر كله بعدك هــــوان

تخيلها ترد عليه:

إمـــــتى ح تعــرف إمــتى إنّـــــــى بحــــبك أنـت
بناجى طيفك واتمنى أشوفك

فى حسرة همس لنفسه:

لا يـــوم عطــفت عــليّا ولا انت سائل فيّا
ولإمــتى ح تحـيّر بالى وتـــزوّد همّـــى
ياللى غرامك فى خيالى

تخيلها تعتذر له وهى تدارى عنه وجهها:

فضلت أخــبى.. حبّك فى قلبى.. وأصـبّره وواسـيه..، أنا خفت أقـولك على

حالى.. واشرح لك حبى

أحسّ أنه فى «جنينة» وهى تناجيه مثل وليفة وهو البلبل الحيران الذى أفاق فلم يجد أى شىء:

طارت ما سألتش فيه وخلّفت له العذاب
مسكين ياروحى عليه قلبه من الوجد داب

يراها مثل فرخ اليمام الخائف اليتيم، الذي يبحث عن حضن يحتمى به، منادياً عليه:

ـ قلبى بيهواك ياحبيب الروح.. هايم وياك مطرح ماتروح!!

ـ ياريتك..؟! تكونى اللى ساكنه جوّايا.. دا الدنيا بتضحك حواليا.. من ساعة ما إيدك لمست إيدى!!

ـ لأ.. أنا مخاصماك.. مابكّلمشى؟!

ردّ الصندوق السحرى من كلمات «**مأمون الشناوى**» ولحن «**محمد القصبجى**» وغناء «**صباح**»:

«مش راح أصالحك .. ماتفكرّشى!»

ـ قول لى مخبّى فى قلبك إيه؟!.. أنا مخاصماك ماتكلمنى

ـ عارفه.. تعاندنى.. وترجع تحايلنى؟!

★★★

إنه يتألم بالفعل..

ولم ينقذه من آلامه حبه ولا حتى من أحب!

ولم تداويه من وجعه طيبته.. وبلاهته، وصموده الوهمى أمام تقلبات الطقس المتمرد داخل براكين قلبه الثائرة؟!

طارت ما سأليتش فيه
وخلفت له العذاب
مسكين ياروحى عليه
قلبه من الوجد داب

غناء :
أسمهان

هزائم متلاحقة!

و.. تمر الأيام والسنوات مثقلة، يحمل حلمه على كتفيه، حلم اقتحام قصر مولاه والبحث عن أسرار فى حجراته.. ويحمل وجعه الذى لا يعرف مصدره، بينما كانت جميع الصناديق السحرية تحاصره بما تبوح به من أغنيات..

وكانت الكلمات تساعده على تخطى لحظة الواقع إلى آفاق من الخيال، تماما مثلما يحدث له كثيرا وكما حدث له فى تلك الليلة المطرة التى كان يفكر فيها أن يجد أي زاوية للأمل لكي يزاه.. أو يلمسه.. أو يحس بوجوده ولو لحظات قليلة.. وكان جرامافونه متهللا فى كلمات «**بيرم التونسى**» ولحن «**زكريا أحمد**» وغناء «**أم كلثوم**»:

الأمل.. لولاه عليا.. كنت فى حبك ضحيّه

تخيل «**شهد**» ترد عليه:

بالأمـل أسـهر ليالى   فى الخيال ابنى علالى
واجعلك فيها نديمى   واملكك لِيلى ويومى

قال وهو يتمنى التشعلق بأي أمل.. ويتمنى الابتعاد عن الظنون، فهو لم يتغير:

ولو أطول.. دا اللى بقول يبقى المنى
ولو يكون وهم وظنون .. برضه أنا
أنا عندى أمل

لا يريد أن يفقد الأمل فى حبها له.. لأنه لمس هذا الحب فى عينيها مرات كثيرة.. وهى دائمـا كانت تحاول عـدم البوح!.. وربما يرجـع ذلك إلى جرحهـا الذى لاتزال تحمله مثل الخنجـر الذى يدمى قلبها دائما بعد مصـارحة حبيبها لهـا بأنها ليست المرأة التى يريد.. فـهو يفـضل الارتباط بامـرأة محـددة للفراش والخـدمة وتربـية الأولاد فقط.. ودائما كان يكرر لها أن النساء جميعهن ناقصات عقل ودين!

سمعها ترد عليه فى أسى:

من زمـان طال انتظـارى

قال :

ونا باحتمل ولا انت دارى
نار بعادك
واصطبارى
وكل ده.. علشـان عينيك

قالت:

ياما حطيت فى الجوانح
كل قول قاسـى وجـارح
أسمعه واصفح واسامح
والحـــنان يـزداد إليـــك

سمعها تناديه برقتها المعهودة:

- ياشبيه البدر وحده.. في ارتفاع بُرجه وسعدُه.. يشبهك هوّه فى جمالك.. إنت فى نوره وبُعدُه!

نظر من شباكه إلى المطر المتساقط، فأحس أن دموعه تقترب من خدوده، فهمس

ـ مالقيتش إليك وسيله.. غير سكوتى واصطبارى.. واعمل إيه.. مابيدّى حيله.. فى افتقادك وانكسارى!

رآها تغسل نفسها تحت المطر الذى بلل شعرها وهى تقول فى شموخ:

ـ أنا لو أروح .. عمرى ما أنوح.. دا مُحتمل.. ولا أعيش من غير أمل.

غيَّر الاسطوانة.. ثم انزعج.. ثم أعاد تشغيلها، فاستمع إلى «**لورد كاش**» فى لحن «**عبدالعزيز محمود**» ومن كلمات «**صالح على شرنوبى**»:

ياللى عرفتوا الحياه قولولى معناها إيه
مين منكو حقق مناه وبان جمالها عليه
سؤال مالوهش جواب إلاّ فى قلبى اللى داب
وف كل قلب كتاب وكتابى كله عذاب

أسكت **الجرامافون** وجلس يكتب.. كان يحاول التوصل لمعرفة لغة القلب.. هل هى لغة واحدة.. أم لكل قلب لغة خاصة.. وهل لكل قلب مفتاح.. ولماذا تقسو بعض القلوب على قلوب غيرها.. **وما معنى أن يعيش الإنسان عمره كله باحثاً عن السعادة، بينما العذاب بكل أسلحته يقف له فى كل شبر وكل خطوة على الأرض!!**

كان يحاول كل ليلة التصالح مع النوم، وعندما كان يستعصى عليه ذلك يستحضر طيف «**شهد**» لكى يؤانسه ويتبادل معه الحوار من خلال خزين المعانى التى كانت تغذيه به الصناديق السحرية والجرامافونات:

● **أنا.. آه من أنا.. حبيت وشفت الضنا فى الحب قبل الهنا.. وجيت أنول المنى.. حظى عليا جنى.**

ـ يافاكرنى فى النهار.. ياحلمى لما أنام.. النور فى عينى نار

● **لإمتى ح اتمناك.. واحمل عذابى معاك.. ياللى حياتى رضاك**

ـ قلت ياقلبى أصبر على حبى.. والذنب مش ذنبى.. الذنب ذنب الحياه.. ياللى عرفتوا الحياة!

كانت المغنية «**نادرة**» قد دخلت فى مونولوجه الوهمى الذى خطط له بموشحة من ألحان «**مصطفى رضا بك**»:

شـاقه ما شاقنى فبكى   كـلـنا يبــكى على ســكنه
يشتكى الآلام من زمـن   وهو يشكو الوجد من زمنه

عاد لمنولـوجه الذى تخيله مـن كلمات «**مأمـون الشناوى**» فى اللحن الذى غناه «**فريد الأطرش**»، فقال:

حــبيب العمـر حــبيتك   وأخلصت فى هواك عمرى
لا يوم خنتك ولا نسيتك   ولا يوم غـبت عـن فـكرك
حـبيب قلبى ووجـدانى   ماليش غيرك حبيب تانى

قالت :

- أشوف بعيونك الدنيا   واغنى الحب بلسانى

قال :

- حياتى معاك حاجه تانيه   أهيم واسبح فى أحضانك

أطل من شبـاكه.. كان القمـر بدرا يرقص بين السحاب.. وسـمع صوت الكروان وهو يتسلل إلى أذنيه.. وعاد إلى الكتـابة مرة أخرى ورأسه ملىء بهواجس وأفكار متـلاطمة كـالأمواج المجنونة فى شــتاء شـديد البرودة، فـتذكـر مولاه والقـصر.. والحجرات الكثيرة التى تخفى العديد من الأسرار!

★★★

كانـت السنوات تمر مســرعة، وهو لا يزال يتـذكر أنه فى هذا الصـباح، شــاهد «**فاطمة**» وكان لم يشاهدها منذ شـهور كثيـرة.. كانت قد كبرت.. ورآها تتقافز فى مشـيتهـا مثل العصــفور الصـغـير وعلى وجهـها ابتـسامة تشـبه الوردة فى أولى لحظات تفتحها. لم يهتم فى بادىء الأمر بها، ولكنه عندما شاهدها من الخلف كانت تغيرت فى تكوينها ومشيتهــا، وأحس بها قد دخلت إلى منطقة النضـج، فسار خلفها وهو يتأملها وهى تهتز من الخلف مثل بطة مغرورة تعرف جيدا كيف توقع بذكور البط.

انجـذب إليهـا وهرول خلفهـا وهو يحاول الـلحاق بهـا.. وأحست هى بلهـاثه.. واستنشقت رائحة الرغبة التى تنبعث منه، فبدأ جسدها يتفكك فى تخديرة مفاجئة، ولكنها كانت عاتبة عليه الانقطاع عنها فترة طويلة، فتصنعت الغضب وهى تواجهه:

- «إمتى ح تعرف إمتى»؟!

قال وهو يقترب منها متعطراً برائحتها البكرية:

ـ «منايا فى قربك فى ساعة رضا»!

قالت :

ـ «يهون عليك.. أنا اللى طول عمرى باحبك»!

قال :

ـ «لست ملاكا.. أنا بلبل حيران»!

قالت فى دلع وهى تحاول الإسراع فى مشيتها:

ـ «اعمل معروف.. أنا مش أدّك»!

قال فى حسم :

ـ «أنا فى انتظارك»

وأكد عليها أن تزوره بعد العشاء، فهزت رأسها بالموافقة.

عندما عاد عصر اليوم إلى منزله، كانت تعتصره هزيمة أوجعت قلبه الموجوع، فقد قابل «**إسماعيل**» بالصدفة وأخبره بضياع «**فلسطين**»، وكعادة «**إسماعيل**» فى تهويل الأمور، تحدث فى غضب عن تقاعس وخيانة بعض العرب للقضية.. وكان على رأسهم مولاه **الملك**.

جلس فى حجرته حزينا غير مصدق اتهام « **إسماعيل**» لمليكه بالخيانة، وتمدد على فراشه فى محاولة للفهم، بينما كان **الصندوق السحرى** قد تغيرت لهجته.. وأخذ يذيع كلمات جوفاء مليئة بحماسة خائبة عن الوطن.. والعرب.. والصمود،ثم أفاق على صوت أذان العشاء وتذكر موعده مع «**فاطمة**» التى كانت قد جاءت وهى ترتعد من الخوف، فأخذها إلى سطح منزله حيث عشة الدجاج الدافئة التى احتميا بها.

كان يبحث عن شىء ينسيه وجع الخيانة.

لمسها.. انتفضت.

اقترب من دفئها..

ابتعدت.

جذبها إليه.. تأوهت.

ثم وجد نفسه مغلقا بحزن يشبه القيود، فاكتفى وهى فى حضنه بأنفاسها..

وحاولت ملاطفته فلم يستجب.. وكان يثرثر معها دون أن تفهم شىء.. ثم قال لها

ـ ضاعت فلسطين يا «بطة»!!

فقالت له:

ـ كل حاجة بتضيع!!..

قال لها:

ـ ضاعت بفعل الخيانة!!..

قالت:

ـ مايجراش حاجة.. أنت ضعت منى.. وأنت أيضا خُنتنى!!.. عارف كده ولاّ.. لأ؟!!

أحس أنه فى حضنها مثل لوح الثلج الذى لا تستطيع بسخونتها أن تذيبه، فانفلتت من بين يديه غاضبة، وهرولت مثل أرنب مذعور.. ووجد نفسه تائها بمفرده فى عشة الدجاج الخشبية.. وحوله بعض الدجاجات التى أخذت تنقر ملابسه وتتحرك حوله وفوقه دون خوف، فأحس بهول الهزيمة التى اغتالت مشاعره، فأصابته بالبلادة وعدم القدرة على التفكير.

انتفض واقفا، وقرر الذهاب إلى منزل « **إسماعيل**».. وفى الطريق، تذكر كلمات أغنيات كان قد سمعها من قبل:

فها هو «**فريد الأطرش**» يغنى فى بلاهة عاشق خائب: «**توكلنا على الله**»..

وها هى «**أم كلثوم**» تغنى غير مصدقة: «**أكذب نفسى**»!!..

أما المنولوجيست «**ثريا حلمى**» فقد تذكر صراخها: «**بلدى يابلدى**»!!

وتذكر كلمات **بيرم التونسى** التى غناها «**محمود شكوكو**» وهو يحرك عصاه عاوجا طاقيته كأنه بائع ينادى على نوع من الفاكهة: «**الجلاء.. الجلاء**»!!..

أما «**فتحية أحمد**» فقد سألت نفسها فى لحن «**زكريا أحمد**» عن «**عيونها**»

فرد عليها «**محمد عبدالوهاب**» فى لا مبالاة: «**شبكونى ونسيونى**»..

وتذكر إزعاجات «**فريد الأطرش**» الذى مضع الألم فى ضعف شديد راكبا سفينة أحباطه: «**يالا توكلنا على الله**»..

بينما سمع من كل **الصناديق السحرية** أن جميع المدن العربية كانت غاضبة

من هول الفجيعة!..

ولكن شيئاً ما كان يجعله يستثنى مولاه من قائمة الخونة!

كان قد وصل إلى منزل « **إسماعيل** » .. وقبل أن يصعد إليه، استقبلته نسائم كانت قد مرت من فوق أمواج النيل، فنقلت رذاذ دموعه.. فتناثرت مثل مطر هزيل على خديه.

عند صعوده، كان صندوق أسطوانات « **شهد** » فى حالة من الشجن وهو يتأوه على نار كلمات «**بيرم التونسى**» ولحن «**زكريا أحمد**» وغناء «**أم كلثوم**»:

أنا فى انتظارك خلّيت ناري فى ضلوعى وحطيت
إيدى على خدّى وعّديت بالثانيه غيابك ولا جيت

قال لنفسه محاولا الاختفاء وراء حلمه الذى لا يريد إفساده:

- فعلاً.. «ياريتنى عمرى ماحبيت»!!

دق الجرس. فتحت « **شهد** »... كانت عيناها تفضحانه بينما كان صوت المغنية يقول:

عايز أعرف لتكون غضبان أو شاغل قلبك إنسان
خليتنى من يأسى أقول الغيبه.. دى غيبه على طول
واتفكّر إيه اللى جنيت من ذنب يسيئلك ما لقيت

عندما مدّ يده بالسلام.. احتضنت يده وقرأت فى قسمات وجهه وجعاً ينطق بالحيرة.. وكان **الجرامافون** يكمل غنائه:

أتقلب على جمر النار واتشرد ويا الأفكار
النسمه أحسبها خطاك والهمسه أحسبها لغاك
على كده أصبحت ومسّيت وشافونى وقالوا اتجنيت

وكالمعتاد، أخذته في الحضن المعبر عن الاشتياق عندما طبعت على خده قبلة، فهمس لنفسه يائساً:

- توعدنى !!

سأل عن «**إسماعيل**» فلم يجده، فجلسا يتحدثان.. كانت المرة الأولى التى يراها في اللون الأزرق الغامق الذي أضافوه إلى وجع اللون البنفسجى الحزين، وأحس

أنها حزينة لمذبحة العرب من فلسطين وقهر الحلم وطرده خارج بوابات التمنى.

قالت له:

ـ مثل كل الأزمان الكل يغنى لمصر فى وقت الخيبة وفى وقت النصر وكأنها عـروسة من القطن أو عـروسـة المولد.. كلمات مـذاقهـا منقـوع منذ دهور في الكذب.. ولكن ماذا نفعل.. إنها الحضن الباقى لنا!

كانت تتـحدث وهى دامـعة العينين عنـدما سكت الجرامـافون فقـامت بتشـغيل صندوقها السحرى الذي أعلن عن أغنية كتبها «**محمد فتح الباب**» في لحن «**زكريا أحمد**» وغناء «**فتحية أحمد**»:

ياعصافير الربيـــــع جئت باللحن البديع
مصرنا فوق الجمـيع مصرنا فوق الجميع
ياطيور غردى
يازهور رددى مصرنا فوق الجميع

انزعجت «**شهد**» قائلة:

ـ هذا سجع كـلامى سخيف والكل يتـاجر باسم مصـر.. ومصر غـارقة فى الفساد وتدوس عليها أقدام الإنجليز!

قال هو يحاول إخراجها من حالة الغضب:

ـ عارفه مين غنى فى فرح الشيخ «زكريا يا أحمد»؟ فأجابت بالنفى، فأخبرها أن العالمة المشهورة المسماة «**فلة**» هى التى أحيت حفل زفافه وغنت:

بنّى يا ســـمك بنـى يامنقـــوش ومـــحنـى
طول الليل ونا باموت وحاطه راسى على التابوت
باستنى حبيبى يفوت لاجل يروح الزعـل مـنّى

حاولت «**شهد**» الابتسام وهى تقول:

ـ وأنا أيضا ـ بمناسـبة «زكريا أحـمد» اتذكر كـلمات أول أغنية غنتـها «أم كلثوم» من ألحانه كانت تقول:

اللى حَبك ياهـــناه فى نعيمـــه وشـــقاه
نور عيونك في فؤاده يضوى فى ليل سهاده
وان رعيتـى له وداده فى بـعـــاده ياهـناه

ثم قامت بهدوء فى اتجاه **الجرامافون** لتشغيله فوضعت إحدى أغنيات فيلم «سلاّمة»:

عن العشاق ســـألونى
ونا في العشق لا أعلم
ســـــهاد فـــى الليـــل
وويل .. و .. ويل
وشىء منه العذاب أرحم
ومن أعلن هواه يتعب
قولولى مين من العاشقين
وهب عقله إلى حبه ولمْ يندم
عن العشاق لا نسأل
وخلينا بعيد .. أسلم

وأحس أنها تلاعبه .. أو ربما تحاول إقناعه بما تشعر، فالبعد عن منطقة العشق أفضل له ولها.. وهى تحاول تأكيد هذا المعنى باستمرار، **وفي الوقت نفسه لكى تجرب وتحس بأشواق الحب فى عينيه لأنها كانت تشعر بسعادة في تلك اللحظات كأنثى تفرح بالعيون المشتاقة عندما تقرأ معانى الحب فيها، فيغلفها الدفء وتتأكد أن قطار المحبة لم يفتها بعد.**

ورجـــعنا للأشـــغال
ما احناش حبة بلاليص   حطـــينها فوق الكراســـى
بكـــره المـــولى يعدلهـــا   وعمرك في الدنيا ماتقاسى

كانت أغانى «**سيد درويش**» لا تجذبه، ربما يرجعَ ذلك إلى أنه لم يستمع إلاّ لما ندر منها وهو في نفس الوقت يحترم ما يقدمه من فن يوجهه إلي بسطاء الناس.

قال كأنه يريد توصيل رسالة واضحة لها:

ـ على فكرة.. من يومين استمعت إلى بعض المواويل المغناة على أسطوانات كتبها «حسين طنطاوى» وعجبنى الموال اللى بيقول فيه:

عنيكى ياقادره.. بتخلف كل يوم عشاق
واقرا فيهم كُتب .. فى الحب والأشواق

وابقى جنبك وبرضه .. لكْ مشتاق
واحب من ربنا ابداعُه فى حُسنك
ونور جمالك يزيدني فى حب فى الخلاق

قالت «شهد»:

ـ إن له موال جميل يقول فيه:

من غير ما أشوفك. قضيت العمر أحلمْ بك
وارسم فى صورتك واحبها وافكر فيك
وكنت عارف تماما.. راح ييجى يوم ألاقيك
لما لقيتك.. لاقيتك فُقت كل خيال
فرحت .. وارتاح فؤادى .. ربنا يخليك

أحست أنها هى أيضاً قد بدأت تلاعبه وهى تعزف على أوتار حبه لها.. فكلما هبطت مشاعره، حاولت هى أشعالها من جديد. وكان هو بلا تفكير منجذبا للدخول إلى ملعبها فلا يحظى فى النهاية سوى الاقتتال مع نفسه.

ـ مثل كل الأزمان الكل يغنى لمصر فى وقت الخيبة وفى وقت النصر وكأنها عروسة من القطن أو عروسة المولد.. كلمات مذاقها منقوع منذ دهور في الكذب.. ولكن ماذا نفعل.. إنها الحضن الباقى لنا!

يامقضى عمرك شجن
فى غفلة الأوهام
اللى طواه الزمن
ماترجعه الأيام
مشغول وسارح ليه
شوف النهارده إيه
وعيش على نوره

غناء :

أحلام

كفاية «اللى حصل»!
وبلاش خيانة؟!

يتذكر وهو في صحبة «شهد» أنه يحمل على كتفيه أعواماً من القهر. وجمهرة من الوجع. وكان يعرف أن ذوبانه فى معاناته سوف يصنع منه شيئا جديداً ولكنه الآن يجلس مثل نخلة تحاول احتضان النجوم، فلا يتحقق حلمها.. نخلة ساكنة لا تهزها نسمة.. نخلة تحملت الشمس الحارقة والعطش.

يشعر بأن حبه لها حب بلا أمل، فلماذا لا ينساها ويكتفى بصداقتها، ولكنه يعود فيؤكد لنفسه أنها تحبه وهي تمارس القسوة على نفسها.. وتعذيب قلبها برفضها الإفراج عن مشاعرها.. فهى هاربة من حب لا تريده.. وواقعة فى حب لا يريدها.. وهو يسعى إلى شاطىء يستقر عليه قلبه فيفرغ حمولته التى تثقله

والمتمثلة في الضياع فى حدائق «ليلى» والتشتت في غابات « فهيمة» واللعب الصبيانى مع «فاطمة».

قطع الصندوق السحرى لحظات استغراقه. وفى نفس الوقت أخبرته « شهد» أن ما سيذاع هو برنامج جديد، حيث يتناول «قصة لحن» الذى يخرجه « سيد بدير» من ألحان «مدحت عاصم» وكلمات «حسن عبدالوهاب»:

ـ شفتك فى أول يوم .. هامت عينيكى فى عينىّ

ـ والقلب نادى .. سمعت نداه .. من قبل ماتنادى علىّ

ـ ولما جت عينى فى عينك .. زاد الهوى بينى وبينك

قالت «شهد» وكأنها قد سمعت البرنامج من قبل:

ـ أحبك وانت بتقوللى يامنى روحى أحبك وأنسى أحزانى وسهدى فى الدجى ونوحى وفى عينيك دليل حبك وفى عينى دليل حبى!

تذكر سطرا من احدى أغنيات « أحلام»: **«ياقلبى ليه الحنين دا الحب كله هوان!»**

أعلن الصندوق السحرى أن اليوم ذكرى «سيد درويش»، فهللت « شهد» فى فرح:

ـ **الله!**،

وبدأ الصندوق يخرج غناء مختلفاً تماماً عما كان يذيعه طوال سنوات عديدة، كلمات لها مذاق خاص وألحان قادرة على إقامة صداقة حميمة مع القلب:

يكفى اللى حصل
كان يوم.. ووصل
فى زرع بصل
عديت وهو راق الحال
ورجعنا للأشغال
ما احناش حبة بلاليص حطينها فوق الكراسى
بكره المولى يعدلها وعمرك في الدنيا ماتقاسى

كانت أغانى «سيد درويش» لا تجذبه، ربما يرجع ذلك إلى أنه لم يستمع إلاّ لما

ندر منها وهو في نفس الوقت يحترم ما يقدمه من فن يوجهه إلي بسطاء الناس.

عاد إلى منزله يجرجر حلمه المهزوم وأسئلته التائهة بلا إجابات، رافضاً صوت صندوقه الذي تحول إلى واعظ كاذب فى كلمات «**سالم حقى**» وغناء « **جلال حرب**»:

ابعثوها على الضفاف رعودا آن للنيل فى الربا أن يسودا
ياقيودى التى تحطم رسغى شرعة النيل أن يعاف القيودا

كلمات لا تُغنى ولا تسمن من جوع ولا تؤنسه في بحثه عن الحقيقة، كما أفزعه ماكتبه الشاعر «**محمود حسن إسماعيل**» وسمعه في صوت جماعى فى لحن «**عبدالحميد توفيق زكى**»:

نحن السيوف المشرعات للعدا أرواحنا للنيل وللعرش فدا
إذا دعت مصر، رفعنا العلما وللجهاد الحر سرنا أسدا

ياللخيبة وبؤس الشعراء، وأي علم هذا الذى نستطيع أن نرفعه.. وعلى أي بقعة يرفرف هذا العلم وكل الأراضى المصرية محتلة، ولذلك **أضحكته مرارة هذه المعانى العنترية الجوفاء، فأغلق صندوقه الذى أحس أنه تغير وبدأ يزعجه.. وكاد يحطمه لأنه يصر على السخرية من مشاعره.**

رقد على فراشه وهو يتمنى أن تزوره الأحلام لتبعده عن هذه المعانى التى لا تقدم.. ولكنها قادرة على أن تؤخر!!

أحس أنه مثل نسر دبت الشيخوخة في جناحيه، فأصبحا لا يحملانه للتحليق فى السماوات التى يريدها، تحاصره العيون التى ترصد تحركاته..

انتبه إلى إحدى المجلات الثقافية، فاستوقفته أبيات جميلة للشاعر «**أبى القاسم الشابى**»:

عذبة أنت كالطفولة كالأحلام، كاللحن، كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك، كالليلة القمراء، كالورد، كابتسام الوليد

قلب الصفحة، فقرأ فى صفحات من مذكرات «**قاسم أمين**»:

«**رأيت قلب مصر يخفق يوم تنفيذ الحكم بالإعدام فى قضية «دنشواى»، فقد رأيت فى كل شخص تقابلت معه قلبا مجروحا ودهشة عصبية بادية فى**

الأيدى وفى الأصـوات، وكأنما كانـت أرواح المشنوقين تطوف فى كل مكان من المدينة».

وعندما قلب صفحات الأخرى.. قرأ زجلا ركيكا يحاول كاتبه تطبيب جراح ناس الوطن وأهل قرية دنشواى:

لك يوم ياظالم مكتوب عليك
تبقى المظالم نارها في أيديك

ليه اللى كـان بسـلام	**عايش صـبح فى نواح**
والطـير ماعادش ينام	**ولا ييجـى يوم يرتـاح**
عشـه انهدم ياحـرام	**وجسـمه كله جـراح**
جايين تصـيدوا حمـام	**ولاّ لـصـيد أرواح**
وبالمظالم... فيه رب عالم	**لك يـوم لك يوم ياظالم**

اختلطت الأشيـاء الحلوة بالمعانى المرة بالذكريات الجمـيلة والذكريات الحزينة.. بالمظاليم الفقراء والأغنـياء الأقوياء، فحاول الهروب من كـل المطاردات المشتعلة في عقله بتشغيل جرامافونه، فاستمع إلى كلمات «**صالح جودت**» وغناء «**لوردكاش**»:

صون شبابك من دلالك يوم قبل ماتبكى عليه
والنبى لو ضاع جمالك تسـتفيد م العمـر إيه

العيون تفضل تغـازلك	**وانت ما عمرك تغازل**
قوللى خايف من عوازلك	**ولاّ قلبك ع العـوازل**
متع الأحـباب بوصـلك	**الشباب دا حلم زايل**
بكره يتمنـاه خـيالك	**مستحيل ترجع إليـه**
صون شـبابك من دلالك	**قبـل ما تـبكى عليه**

امتدت يده مرة أخرى إلى ما بجواره من كتب، فطالع موشحاً:

يابعيد الدار عن وطنه	**مغردا يبكى على شجنه**
كلمـا زاد الحـب به	**زادت الأسـقام في بدنه**
ولقد زاد الفؤاد جـوى	**هاتفاً يبـكى على فـنه**

لا يزال يتذكر هزيمة العرب في فلسطين هذا العام ١٩٤٨ ويتذكر هزيمتهم فى

الأندلس، وأصبحت الهزائم فقط هى التى يذكرها. ورغم الكلمات التى ترن فى أذنه منذ قرأها في جريدة «**البلاغ**» عن ترجمة قام بها «**سلامة موسى**»:

«إن العلم الحقيقى دخل أوروبا عن طريق العرب لا عن طريق الإغريق، فقد كان الرومان أمة حربية.. وكان الإغريق أمة ذهنية.. أما العرب فكانوا أمة علمية»،

لايزال مبتئسا من الخيبة التى تلف الوطن كله بثوب يشبه الكفن!

أكمل الموشح:

شاقهُ ماشاقنى فيكى   كلنا يبكى على سكنه
يشتكى الآلام من زمنٍ   وهو يشكو الوجد فى زمنه

تساءل فى كسل يائس :

ـ ياترى ياليل أحظى منك بالعطف عليا.. فأغنى وحبيبى، والمنى بين يديا!! ثم تعلق بصره إلى بعيد على قصر مولاه «**فاروق**» الذى يحلم باقتحامه والبحث فى حجراته عن سر لا يعرفه!!

ياغرامى
كل شىء ضاع منى
فنزعت الحب من قلبى وروحى

فى كلمات «**صالح جودت**» ولحن وغناء «**فريد الأطرش**»، أحس أنه محاصر بأوهام الحب وأوهام الوجع والمعاناة، وأن «**ليلى**» هى الوحيدة التى منحته صفاء روحها وأسكنته جسدها وغطته بلهفتها واشتياقها فى ليالى توهانه وحيرته، فغمره إحساس بالذنب وقرر الذهاب إليها..

وهو بجوارها، كان يحاول تخفيف همومها وإهماله لها، فبدأ يحدثها عن صديقه « **إسماعيل**» الغنى ابن البشاوات الذي يحب الفقراء ويدافع عنهم ويعشق مصر، فيقحم نفسه فى المهالك ثم حكى لها عن مغامراته النسائية وحبه للفوضى والمرح ولكن **الصندوق السحرى** قاطعه بكلمات «**مرسي جميل عزيز**» ولحن «**محمود الشريف**» ومن غناء «**أحلام**»:

يامقضى عمرك شجن   فى غفلة الأوهام

اللي طـــــواه الزمـــن ماترجعـــه الأيـــام
مشغول وســـــارح ليه شــوف النهارده إيه
وعيش على نـــــوره

قامت فى مواجهته وقالت:

ـ إنت جاى تحكيلى ذكرياتك عن أصحابك ولاّ إيه!!

قال :

ـ دا صاحبى الوحيد اللى بحبه.

قالت فى برود:

ـ خلاص حـبّه واشـرب ميـتهُ!.. وعمـوما تحكى .. أو تسكت، الدنـيا مش ناقصاك علشان تحليها.. وتجمع أو تطرح.. لانا ح أفرح.. ولا ح أزعل!!

رآها متمردة، بينما كان صندوقها السحرى يغنى بصوت مفلوت وحماس تافه:

نحن السيوف المشرعات للعدا أرواحـنا للنيل وللعرش فدا

قالت وهى تغيظه:

ـ اسمع ياسيدى.. كلام أصحابك اللي لا يودّى ولا يجيب غير الهم.. ووجع الدماغ!

كان معجباً بفطرتها وذكائها.. وبساطتها، فقال متوسلا:

ـ نفسي أعلمك.. وأحكيلك عن الدنيا اللي حواليكى.

ضحكت قائلة:

ـ الدنيا.. لا نارها تقدر تكوينى ولا مالها فى يوم راح يغرينى.. وعلى رأي البنت «صباح» اللي بتغنى وتقول:

ـ «الدنيا مسرح ونا باسرح.. أغنى وأضحك ع الدنيا!!»

كان يتمنى أن يستفز عقلها للتواصل معها فى الحديث.. ولكنها قالت:

ـ أنا بنت ساذجة وعلى أدّ حالى. وأنا لا أحب نصـايحك اللى انت حافضها من الكتب وجاى توجع بيها دماغى!

قال :

ـ أحاول أن أعلمك شيئا للزمن!

قالت :

ـ لا أحب الكلام . ولا أحب الزمن اللي بتتكلم عنه. ولا فاهمه كلامك اللي عامل زى السمك فى الميّه!!... وكل الحكاية.. أنا بحبك.. بس من غير دماغك المقرف ده!

كان قد وضع رأسه بين يديه، يائسا وهو يجلس على الكنبة الملونة وهى بقميص نومها تجلس على حافة السرير وهى تداعب عموده النحاسى في عصبية شديدة.. وفوجىء بنقرات خفيفة على باب حجرتها، فرفع رأسه المتعب ووجد صديقه «**إسماعيل**» وجها لوجه أمامه، فانتفاض واقفا وهو يقول فى لعثمة:

ـ ما الذي أتى بك هنا!!..

قال «**إسماعيل**» فى حسم:

ـ لا أسئلة الآن. ومكانك ليس هنا، فلترحل وسنتقابل غداً!

أصابه نوع من الانكسار.. وأحسن بقهر صديقه له. ألا يكفى عذاب أخته له! لابد أنها نهاية العالم، فتساءل فى عدم اقتناع:

ـ هل يجوز للكبير سرقة الصغير والسطو على ما يملكه!!

نظر إليهما فى عتاب، بينما كان الصندوق السحرى يغنى من كلمات «**أمين عزت الهجين**» ولحن وغناء «**محمد عبدالوهاب**»:

من عذبك بتخلصه منّى   وذنبى إيه بتعذب فيّا؟!

★★★

وهو يصعد سلالم منزله منكسرا، استقدم طيف «**شهد**» ليشكو لها:

ياطيف حبيبى اللى عشقته   تعالى شوف اللى جرالى

يكفى العذاب اللى أنا شفته   وتكفى فرحة عزالى

ويكفى ليلى اللى سهرته   من غير حبيب يبكى لحالى

تحدثها يائسة وهى تهمس له:

ـ يكفى عذابى اللى أنا عايشاه!

قال معترضا:

ـ أى عذاب.. أنت مثل أخيك «إسماعيل».. وأنا بينكما مثل الكرة الشراب!

قالت :

ـ شجانى نوحى بكيت.. ياريت بكايا شفانى!!

قال :

ـ ياماطالت عليا الليالى.. وكان طيفك دايما ضنين!!

قالت :

ـ لا تكذب .. أنا قدامك أهو!!

كان قد دخل حجرته، فأسرع إلي شباكه الخشبى متلصاً على حجرة «**ليلى**»، فسمع جرامافونها يتسرب منه شجن أتعبه وزاد من بؤسه وإحباطه. كانت كلمات «**أحمد رامى**» ولحن «**زكريا أحمد**» وغناء «**أم كلثوم**»:

قالوا إمتى قلبك يطيب   وازاى ياعالم أنسى الحبيب

همس لنفسه مع عصافير قلبه الموجوع:

ـ أول ما شفته لقيت خياله.. وقبل ما أشوفه أنسى خيالى..
وسمعت صوته يناجى روحى.. ينوح معاى ع اللى جرالى.. وحدّ ينسى صوت الحبيب!

قال الصندوق وكأنه يرد عليه:

ـ وشاف هيامه كتر دلاله.. فضلت صابر على جفاه.. ولما بان لك شدة هوانى.. بادلنى حبى وكان هواه.. وحد ينسى حب الحبيب!

كان النور خافتا فى حجرة «**ليلى**».. أمعن النظر، فرآها بمفردها وهى تضع رأسها بين يديها وكأنها تبكى، ولم يلمح أي ظل لصديقه «**إسماعيل**»، فتساءل فى دهشة:

ـ ماذا حدث!! هل اغتصبها بهذه السرعة؟!.. لو فعل هذا فهو صديق خائن ويجب أن يقطع علاقته به.

اقترب من جرامافونه ووضع إحدى الأسطوانات، فانطلقت عصافير الوجع تلفه بأجنحتها مع صوت «**أم كلثوم**» فى كلمات «**أحمد رامى**» ولحن « **محمد**

القصبجى»:

ســكت والدمـع اتكـلم عـلى هــواه والـقلب يامـا بيتألـم مـن قـولتى آه
تـنزل دموعى على خدودى ولا ترحميش وأقول لها دموعى شهودى ماتصدقيش

تخيل «**شهد**» أمامه وهو يغالب تعبه، متمنيا أن يزوره النوم، فقال لها:

ـ دايماً تكذبنى فى حـبى وتقـول خـدّاع.. والوجـد راح ياكل قلبى من دى الأوجاع!

بوهمه رآها تمد له يدها وهى تقول:

ـ تعالى نشرح هوانا.. وأوصف لك اللى ضنانى!

فجأة ساد السكـون حجرته وسكت الجرامافون، وكان وهو يـروح فى غيبوبة النوم يرى قصر عـابدين يهتز بشدة ويتمـايل مثل رأسه المثقل، فاحتـضن مخدته كأنها حلمه الذي يعيش من أجله، **على أمل اقتحام القصـر واكتشاف السر داخل حجراته الكثيرة!**

أيقظه من نومه في الصباح صديقه «**إسماعيل**». رآه أمامه يضحك فى صمت. وتعابير وجـهه مليئة بالسخرية وهو يلـقى عليه تحية الصباح.. فـتأمله فى دهشة وهو يراه مبتسما وكأن شيئا لم يكن..

قال لنفسه:

ـ ألا يخجل من نفسه!! إنه بالفعل شخص لا يستحق صداقته.

كان «**إسماعيل**» يستفزه للنهوض من فراشه، فانتفض معتدلا لمواجهته:

ـ أنت وغد ولا تعمل حساباً لصداقتنا!

نهره «**إسماعيل**»:

ـ يا ابنى سـيـبك من وهم الأغـانى اللى انت عـايش فـيه.. إنت بتـعـيش بالأغـانى.. وتاكل بالأغـانى وتحب بـالأغـانى.. وتمارس الجنس بالأغـانى.. وتذاكر بالأغـانى. وسوف تضيع بهذه الأغـانى.. فأنت بهذه الطريقـة تعيش حب غيرك.. وتحيـا مشاعر غير مشاعـرك.. أنت ياصديقى المجنون في منتهى الغباء، وكنت أتصورك أكبر من هذا الوهم الذى تعيشه.

قال فى أسى:

ـ أنا ما وصفت. فماذا تريد منى!.. وهل جئت لتخبرنى بأنى شخص تافه بلا شخصية!

قاطعه «**إسماعيل**» قبل الاسترسال فى حزنه الغاضب:

ـ لا أقصد ما توصلت إليه... فقط أقول لك إنك تلغب فى الممنوع.. ويجب أن تعيش حياتك بعيدا عن الشعارات الخادعة والاستغراق فى أحلام طائشة، فارغة!

أحس أن كلمات صديقه تحاصره وأطبقت عليه فى محاولة لإظهار صورته لكى يتمكن من رؤيتها فى لحظة مواجهة وبشكل موضوعى، فاستمر فى صمته وهو يتذكر حمام الغية الذى كان يربيه منذ سنوات وكان يسرقه منه جميع من يكبرونه سنا.، وها هو صديقه ـ لأنه أكبر منه ـ يخونه ويسرقه ويستولي على «**ليلى**»!

حاول « **إسماعيل**» مرة أخرى أن يخرجه من صمته ومن لحظات الرومانسية المغرقة التى يعيشها، فهزه ملاطفا!:

ـ الحياة لها أشكال ووجوه متعددة. فلماذا تختار أخيب أشكالها لتعذب نفسك بالوهم.. حاول أن تكون موضوعيا.. وانس قلبك ومشاعرك.. ضعها على أول رصيف يقابلك!

رد عليه فى جفاء:

ـ أنت تريدنى إنساناً بلا قلب أو مشاعر. وهذا مستحيل!

قال «**إسماعيل**»:

ـ بالطبع لا أقصد هذا وإنما أوضح لك الصورة، فأنت تحب العذاب وتعشق الوهم.. وتحلق في خيالات بلا نهاية مثل الشعراء الذين يستعذبون الحزن!

رد عليه وهو ينظر إليه فى ريبة:

ـ لا أصدقك.، فأنت تريدنى أن أكون مثلك.

ـ وما العيب فى ذلك!

قال فى غضب:

ـ أنت خائن!

انفجر «**إسماعيل**» وامتدت يده لتصفعه صفعة قوية، فأمسك خده متألما وهو يبتعد عنه قائلا:

ـ اضربنى.. اقتلنى.. فهذا لن يلغى رأيى فيك!

ـ أنت تعرف أننى لست خائناً.. أنا أضحى بنفسى من أجل هذا الوطن رغم أننى لست مضطرا إلى ذلك.. وما أفعله هو من أجل الفقراء أمثالك ياغبى!

رد عليه فى هدوء:

ـ لا أقصد خيانتك للوطن!

هزه «**إسماعيل**» وهو لايزال غاضبا:

ـ إذن ماذا تقصد!

ـ أقصد أنك خنتنى أنا شخصيا!

ـ كيف ؟!

ـ خنتنى باغتصابك «ليلى»، ألا تسمى هذه خيانة!

كاد «**إسماعيل**» يستلقى على قفاه وهو يقهقه قائلا:

ـ أيها المغفل.. كان هذا لمصلحتك!

ـ مصلحتى لا تجعلك تغتصبها وأنت تعرف مدى علاقتى بها!

قال «**إسماعيل**» فى هدوء، موضحاً له الموقف:

ـ الحكاية باختصار أننى كنت أحاول إقناعها ـ على انفراد ـ بأن تنساك وأن لا تقترب منك لأننى أخاف عليك منها، فحاولت إنقاذك!

ـ تنقذنى من شىء أحبه!

ـ أنت لا تعرف الحب ياصديقى المراهق.. أنت تهرول وراء نداء غرائزك متوهما الحب وللأسف صدقت نفسك. وأنا أشفق عليك.

وجد فى كلماته معان لم يكن يدركها، فبدأ يفكر لإعطاء نفسه فرصة للتفكير وإعادة ترتيب أوراقه وودعه «**إسماعيل**» بعد أن أخبره بأنه سيمز عليه فى المساء ليأخذه إلى السهرة التى كان قد وعده بها أثناء زيارته له فى العزبة.

★★★

بعد رحيل صديقه، فتح **صندوقه السحرى** وهو يستحضر صورة «**شهد**»..

كانت الشكوى فى كلمات «**بيرم التونسى**» ولحن «**زكريا أحمد**»:

كل المحبين فى هنا.. إلاّ أنا	**أنا فى الحب مالى نصيب**
نصيبى جرح من الهوى	**مالوش دوا يبرأ عليه ويطيب**
قلبى لعينى اشتكى	**ولا البكا يطفى لقلبى لهيب**

فى حجرته يتجول بمشاعره مع ما يبثه الصندوق. لا يستطيع الاستقلال بنفسه بعيدا عن معانيه التى تلاوعه.. فأرسل خياله للاستغراق فى مونولوج مع الاسطوانة التى كانت متفجرة بالآهات فى مواويل مليئة بالشجن:

الحب إيه مرادك.. قلت بشاهدْ

ألحاظ عيونك ووردات الخديد شاهد

أهل المحبه عليهم ربنا شاهد

ترد عليه:

حاكم اللى غدر بك .. وانت لُهْ داعى

ياناس هوه الجفا يحكم بغير داعى

سلمت روحى لقلبى بحسبُه ينصف

كل المجاريح طابوا بس عادانى

ومن أحبه كتر هجره. وعادانى

فيا زمان الجفا ياكُتر مامرّيت

واللى ادّعى النصح ياريت مامريت

قال :

مُحبكم داب . وانتم لمْ دريتُو بُه

والنار بترعى فؤاده لمْ درى توبه

شيع لكم مع نسيم الصبح مكتوبُه

لا انتم بتيجو .. ولا قلبه بيسلاكم

هوه عمل إيه في وعده ومكتوبه

قالت وهى تتنهد عندما تذكرت حبيبها الذى رفضها:

ياللى عليك الليالى نبكى ونناهد
خلفت لي جرح.. بين القلب والناهد
إلى متى نسألك.. بالوصل ونناهد
من يملك الحسن مثلك .. يسترحم العشاق
العفو لله .. سبيت القلب والناهد

كانت «ليلى» قد سمعت **جراماقونه**، فأحبت أن ترسل له شكواها من جرامافونها الخاص:

ياللى القمر طلعتك.. يابو القوام عادل
لك قلب قاسى وعن وصل الشجى عادل
يابهجة الروح .. ياغصن النقا .. عادل

كان يعذرها فى شكواها. فقال فى استسلام دون أن يقترب من شباكه لرؤتها:

الله أكبر.. دعانى الحب للتعذيب
وكل مازاد ألقي فى الغرام تعذيب

كان يعتقد أن هذا قدره.. وأنه مثل كل الأغبياء فى الحياة، الذين استسلموا للأحباط المغلف بالهزيمة، فماتت أحلامهم؟!

★★★



ليه عزيز دمعي تذله
كل ساعه بين إيديك
بعد صبر العمر كله
وانشغال قلبي عليك
مش حرام.. والله حرام

غناء :

أم كلثوم

عيد الميلاد

في المساءَ مر عليه «**إسماعيل**» كان بشوشاً كعادته وابتدره قائلا بعد أن ملس على قفاه:

ـ كيف حال العاشق المجنون!!

لم يرد عليه واكتفى بالنزول معه والسير بجواره في انكسار وكأنه قد صار عبدا له، وقد ضايقه هذا الإحساس

ركبا أحد الحناطير ووصلا إلى منطقة **جاردن سيتي**، ودخلا إحدى الفيللات الفخمة، ولأول مرة يشاهد أنواعاً عجيبة من البشر حيث الأناقة في الملبس والحركة وكأنهم من كوكب آخر، وفوجىء بعدم وجود نساء.. **وكان الجميع يتحدثون في السياسة، وأكد بعضهم اقتراب نهاية الملك، كما أكد بعضهم**

الاحتمالات بتشكيل وزارة جديدة.. وكانوا في أحاديثهم يخرجون من السياسة والسياسيين والسلطة بنوع من الإحباط، فيعرجون على الفن وأهله.

عرف أن أغلب المتواجدين باشاوات وبكوات ورجال إقطاع وأنه فى الفيلا الخاصة بالباشا عم صديقه « **إسماعيل**» الذي يشرف على تربيته هو وأخته بعد وفاة والديهما..

كانت زجاجات الخمر كثيرة ومتنوعة، وما عليك سوى أن تقوم بخدمة نفسك وأن تتجول بحرية وتتدخل في أي نقاش، وكانت الطرابيش تزين رؤوس الجميع.

هذه هى المرة الأولى التى يتعرف فيها على الفخامة وعلى البكوات والباشوات التى كان يرى بعض صورهم المنشورة فى بعض الصحف فى المناسبات.

الوقت يمر مسرعاً.. وبدأت الألسنة تفلت منها كلمات غريبة من فرط الشراب.. وفهم من بعض ما كان يدور بينهم.. أن كل واحد منهم يلعب لحسابه الشخصى أولاً. ثم ثانياً للحزب الذى ينتمى إليه، فلا شىء من أجل عيون الوطن، فأغلب الحسابات من أجل التقرب للسلطة والديوان للحصول على المكاسب.

علاقات غريبة مشوهة، وأصابه الحزن لأنه عرف أن كل شىء يمكن شراؤه بالمال.، وظل لساعات مكتفياً بتناول عصير البرتقال ليكون مستيقظا لما يدور من حوله.. أما صديقه « **إسماعيل**» فرآه يعامل الجميع بجفاء، وربما يرجع ذلك لمعرفتهم على حقيقتهم، وقد حذره عمه الباشا أن يخف من حواراته المتهورة واللاذعة لكى لا يعكر صفو الليلة.

لحظات من اللخبطة والدوشة المتداخلة كانت تتمايل فيها الطرابيش بفعل عدم القدرة على التوازن وعدم ضبط الكلمات والمسافات، وكان سعيدا لأن مولاه **الملك** كان هو المحور المهم الذى أخذ النصيب الأكبر من اهتمام المثرثرين، وزادت اللخبطة عندما بدأ بعض النسوة يتوافدن تسبقهن ضحكاتهن العالية، **فأخذت الطرابيش تتأرجح على الرؤوس كأن زلزالاً حدث داخل أجسادهم، وبعضهم ألقوا بوقارهم فى لامبالاة مع إلقاء طرابيشهم فى كل اتجاه وكأنهم رهط من المراهقين**، وبدأ هو فى تناول أول كأس له لكى ينسجم مع الجميع الذين هللوا فجأة لمجموعة أخرى من النساء القادمات.

كانت عـيون الرجال تدور كالمروحـة السريعة فى المكان، وعلى الأخص بعـدما حضر أفراد فرقة موسيقية مع عدد آخر من النساء وأخذوا أماكنهم استعداداً لأداء دورهم في إدخال السرور على أصحـاب السعادة بمناسبة **عيد ميلاد** عم صديقه **«إسماعيل»**.

بدأت الفرقة فى العـزف وسط صخب المتواجدين، بينما كـانت آلة العود تحاول إسكاتهم دون جـدوى، ولذلك قامت امـرأة من الفرقة لتـغنى بنهديهـا وهى تمسك بالصاجات وفى صوت مذعور، بدأت فى الغناء:

إن جـاتنى أمــك تســأل عليك لاحُطّك فى خدى واتحفف عليك
ياخوفى مـن أمك لتســأل عليك لاحُطك فى بقىّ .. وأطبق عليك
ياخوفى مــن أمك لتسأل عـليك لاحُطك فى بطنى واتحزّم عليك
ياخوفى من آمك لتســأل عـليك لاحطك فى بطنى والطيأت عليك
لاحطك في الزبده واتصور عليك وأن جـاتنى أمك لتســأل عليك
لاحطك بين فخداى واتكّى عــليك

ثم دارت التعليقات كلها عن الزبدة والأفخاذ.. وبدأت دورة الهمس تلف الجميع، بينما قال لنفسه:

ـ تانى ح نرجع لشغل العوالم!،

بينما سقطت الطرابيش الباقية على الرؤوس، وفجأة هتف أحدهم:

ـ «يسقط الملك»!

امتدت بعـض الرقاب وهى تحمل فوقـها رؤوساً تتحرك في خـوف لاستطلاع الأمر، كان الذى هتف صديقه **«إسماعيل»** فهرول إليه عمه لإسكاته وتهدئته، ولكنه سمع الجميع يقولون:

ـ عمو. ياعمه... سيبه سوف يسقط الملك!

كان سقـوط مليكه يفزعه جـداً لأنه يحبه، فهـو الرمز الذي يعشقـه وحلمه منذ صباه فى حفلات التـشريفة وأمنية عمره بأن يقتحم قصـره لاكتشاف السر خلف حجراته الكثيرة، فإذا سقط **الملك**، سقط حلمه معه.. وغاب القمر.

اعتدل أحـد الرجال الذين ضمن الفرقـة الموسيقية وهـو يمسك عوده وأخذ يدق

عليه، كان الرجل ضعيف الجسم ويرتدي جاكتة مكرمشة ذات ياقة متسخة، ولكنه عندما بدأت التقاسيم تملأ المكان بعزفه، نسى الجميع هيئته وحط طائر الصمت وأرهفت الآذان وفتحت المشاعر والشجن أبوابها، ثم بدأت الرجل فى غناء أحد الموشحات التى غناها «**عبده الحامولى**»:

مين فى المحبه يرسى غير اللى جربْ وشاف عذاب
الله يطمن لى قلبى على اللى أحبه دا قلبى داب

عادت الرءوس إلى وقارها، **بينما كان صدر المغنية يمتص رطوبة المكان فى الداخل.. أما فى الخارج.. فقد كان الوطن يغلى بناسه غاضبا على الملك لتهادنه مع الإنجليز!**

هاجمه حبه.. والتصق به عذابه على شاطىء وجعه، فتراءت أمامه «**شهد**» وردد الكلمات لنفسه، فكانت مثل السكين فى ذبحه:

- ياقلبى كان مالك ومال الغرام .. ماكنت عنّه فى غنا من زمان.. إن كان صحيح جه الغرام ع المرام.. إعشق وحب وميل وشوف إيه كمان!

تخيلها تجاوبه على شجنه:

- إن كان غرامك أوهام وذل وخصام.. خليك بعيد عنّه وعيش في أمان!

تسلل إلى البار القريب منه واستولي على زجاجة من الويسكى، وأخذ يشرب من عنقها وهو يشعر بأسى لحال هذا الوطن اليتيم الذي يلهو الجميع فوق أرضه، واندهش كيف أن العمل السياسى والعمل بالسياسة، يمارسه الطلبة والعمال والفلاحون بمجهوداتهم حسب انتماءاتهم ويتعرضون للسجن والموت والتشريد، ومنابرهم ليست مؤثرة بقدر كاف فى الناس. **وهاهو أيضاً يرقص على مواجع الوطن فى رومانسية قاتلة مع شجنه الخاص. وسجنه الخاص وحبه الخاص وأحلامه الخاصة، وأحس بغربته وهو وسط مجتمع البكوات والباشوات الذين يملكون بأيديهم صناعة القرارات ويشاركون فى صياغة أوضاع وقدر الوطن، فهاهو يراهم رجالاً مثل ألواح الخشب حول جثة الوطن المحنط الذي يأكله الفساد وتدوسه أقدام الإنجليز.**

أطل من نافذة الفيللا.. كان القمر يتربع على عرش انسجامه بعيداً عن المشاعر

المخنوقة التى تضغط على الجميع والخوف من سقوط الملك.. وسقوط أحلامهم مع سقوطـه، وأيضاً سقوط حلمـه فى اقتحام قـصره للبحث فى حجـراته عن سر لا يعرفه!!

استمـرت السهرة وكأنهـا قد بدأت منذ لحظة.. وخصوصـا مع توافد طرابيش كثيرة. ورؤوس عـارية ونساء متخشبـات ونساء لهن رائحة وملمس الملبن الطرى المرشوش بالبودرة. فى ركن المراقبة الذى اختاره لكى لايزعجه أحد، أحس أنه مثل خيال المآتة عندما لا تخافه الطيور بعد اكتـشاف الخدعة، فتهجم عليه بمناقيرها فى قسـوة، وشاهد جمـيع العيون تراقب بعـضـها وهى تفـتش عن تفاصيل خـبر.. أو نميمة!!

ضرب الزجاجة بيده وهبّ واقفاً، هائجا، محركاً يديه فى كل اتجاه كأنه يحارب شيئا خفـيا أو يبعده عنه ثم نظر فى مرآة البار القريب منه فرأي نـفسه غير شكله الذى يعرفه ويألفه.. وكانت عيناه على وشك الانفجار والخروج من مكانهما، فأخذ يصرخ فى شكله اللى يراه كالمجنون فى المرآة:

وفى لحظة جنونية، قرر أن تكون «شهد» له في هذه اللحظة. مؤكدا لنفسه أن الحيـاة ليست أكثر من لُعـبة.. والناس لُعب.. و«شهـد» لُعبة. والسيـاسة لعبة وأصـحاب الطرابيش لعبه. وصديقـه «إسماعيل» أيضا لعـبة.. فلماذا لا يختـار اللعبة التى يحـبها ويفعل بهـا ما يريد.. يحطمهـا. يأكلها.. يحبـها أو يكرهها. أو يدوسها بقدميه.

★★★

فى ظهـيرة اليوم الـتالى سمـع من صوتا لأول مـرة يسمعـه قادمـاً من منزل «**فهيمـة**» كان صـوت مغنيـة أسمـها «**سوسـن فؤاد**» تغنى من كلمات «**أحمـد منصور**» ولحن «**محمد قاسم**» أغنية اسمها «**تاجر الإخلاص**»:

ياتاجـــــر الإخـــلاص عمّـــال تنادى عليه
والسوق مـعاده خــلاص وانت مابعتش ليه
هـــوّه التـــمن غــــالى خــلاّك مابتبعشــى
ولاّ الزبـــون ســـــالى بيفوت مايسـألشى
ولاّ خـــــــلاص الناس مابقيتش تعمل بيه

ومع ذلك ظن أن الأغنيـة قادمة من حـجرة «**ليلى**».. فتح شيش شـباكه ببطء، فشاهدهـا جالسة على سريرها النحـاس تبكى فى حرقة، وكأنهـا تبكى حظها في الحياة.

في المساء.. من السـرادق المنصوب وصوت القـرآن، عرف أن زوجها قـد مات.. قتله بعض لصوص الماشية في قرية اسمها **البدرشين**.

وفى اليوم التـالى كانت تلملم أشـياءها وهى دامعـة العينين، فـقد أرغمـها أهل زوجـهـا على الرحـيل ولم يعـرف أين ذهبت، فتـقلصت عـضـلات قلبـه.. وأحس بالاختناق.. وغرق في لوعته:

ياتاجر الإخـــلاص عمـــال تنـــادى عـليه
لو فات حبيبى عليك هاوده وبيـــع وهـاديه
ونا وحـــق عـنيك دينـــه عليـــا أوْفيـــه
منك شـربت الكاس وان فات حبيبى اسقيه

بدأ رأسه يدور ويعـود به للخلف فى صور وأحـداث متلاحقـة، فتتـذكر **حرب فلسطين** وهزيمة العـرب والأسلحـة الفـاسدة، فـألقى به على الـعمـود النحـاسى لسريره، وتذكر الشهداء من الطلبة عندمـا فتحت الحكومة عليهم الكوبرى وأطلقت عليهم الرصاص فتـذكر ما قرأه فى كراساتهم. ودموعـه التى سقطت على دمائهم حيث عاد يومها وفى ـــرزته الأوراق المختلطة بالدماء والكلمات ودرجات تفوقهم.

اعتدل فى جلسته.. وأحس بحريق يلتهم كل الأشياء التى يحبها من خلال تخيله للقاهـرة وهى تحترق، ويقـال إن مليكه هو السـبب فى كل هذه الكوارث كمـا كان يقول الناس عنه، والآن اقتربت اللحظة الحاسمة حيث شاهد صورة لصاحب المقام الرفيع «**على ماهر**» ـ ـما وصفته الصحيفة ـ وبجواره أركان حرب «**محمد نجيب بك**» الذى قام بتشكيل وزارته في **٢٤ يوليو ١٩٥٢** بعد أن قام «**محمـد نجيب**» ورفاقـه بثورة بيـضـاء دون أن يقـتلوا مليكه« **فاروق**» أو يسبـبـوا له الأذي.. فهل انتهي عرش مـليكه وأصبحت« **الملكية**» في طريقها إلى الزوال، هذا مـا عرفه من البـيان الذي سمـعه من صـندوقه السـحري، **أن الجيش المصـري.. قام بحـركة عسكرية هدفها إعـادة الحياة الدستورية للبلاد وتطهـير الجيش من العناصر**

الفاسدة.

أحس بنهاية مولاه «**فاروق**» .. وأن كل شئ يتخلي عنه.. واحس بفقدان «**ليلى**» وعدم رغبته في رؤية «**شهد**» التي كان لا يرغب في تلويث صورتها.. وكره صديقه «**إسماعيل**» وأصدقاء عمه الباشوات والبكوات.. وجاءه من الصندوق السحري صوت «**فريد الأطرش**» وهو يتأوه بكلمات «**عبد العزيز سلام**»:

عينيّ بتضحك وقلبي بيبكي — وإيه بس آخرة بكايا وضحكي
يا ناس ارحموني ما تجنوش عليّا — وغصب عني رضيت بالأسية
وفاضت دموعي بنار في ضلوعي — وإيه بس آخرة بكايا وضحكي
زماني سقاني موالي كاس وأنا — أسقي حناني لغيري وأسي
وأساير ودادي وأغالط فؤادي — وإيه أخرة بكايا وضحكي

كان **الصندوق السحري** بعيدا عما يحدث علي أرض الوطن.. وكأنه يبث برامجه وأغنياته من وطن آخر.. وطن لا يعاني ولم يحرقوه.. أو يعذبوا ناسه، بينما كانت مصر كلها تعيش حدثاً لا يحدث كل يوم ولا كل عام.!

أفاق علي صوت «**إسماعيل**» وهو يهلل بورقة في يديه، قائلا له:

- أنت كالمعتاد تعيش في عالمك المغلق ولا تدري ما يحدث في البلد!..

وأخذ يقرأ إنذار قائد عام القوات المسلحة إلي الملك **فاروق** الذى أصبح «**سابقاً**» والذى أذاعته القيادة العامة للقوات المسلحة يوم لخميس الماضي الإنذار الذى وجهه القائد العام **للملك**، وأخذ «**إسماعيل**» يقرأ:

من الفريق أركان حرب محمد نجيب باسم ضباط الجيش ورجاله إلى جلالة الملك..

إنه نظراً لما لاقته البلاد فى العهد الأخير من فوضى شاملة عمت جميع المرافق نتيجة سوء تصرفكم وعبثكم بالدستور وامتهانكم لإرادة الشعب حتى أصبح كل فرد من أفراده لا يطمئن على حياته أو ماله أو كرامته. ولقد ساءت سمعة مصر بين شعوب العالم من تماديكم في هذا المسلك حتى أصبح الخونة والمرتشون يجدون في ظلكم الحماية والأمن والثراء الفاحش والاسراف الماجن على حساب الشعب الجائع الفقير.

ولقد تجلت آية ذلك فى حرب فلسطين وماتبعها من فضائح الأسلحة الفاسدة وما ترتب عليها من محاكمات تعرضت لتدخلكم السافر مما أفسد الحقائق وزعزع الثقة فى العدالة وساعد الخونة على ترسم هذه الخطى فأثرى من أثرى وفجر من فجر وكيف لا والناس على دين ملوكهم. لذلك فوضنى الجيش الممثل لقوة الشعب أن أطلب من جلالتكم التنازل عن العرش لسمو ولى عهدكم الأمير أحمد فؤاد، على أن يتم ذلك فى موعد غايته الثانية عشرة من ظهر اليوم السبت الموافق ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ والرابع من ذى القعدة سنة ١٣٧١ ومغادرة البلاد قبل الساعة السادسة من مساء اليوم نفسه.

والجيش يحمل جلالتكم كل مايترتب على عدم النزول على رغبة الشعب من نتائج»

فريق أركان حرب
محمد نجيب
الإسكندرية فى ٢٦ يوليو ١٩٥٢
٤ ذى القعدة ١٣٧١

جلس حزينا.. بينما كان صديقه «**إسماعيل**» مثل القرد يهلل قافزاً فى كل تجاه من الحجرة وهو يردد كلمات «**بيرم التونسى**» وغناء «**محمد الكحلاوى**»:

خلّى السيف يجول	خلى السيف يجول
لما العيب يمس العرض	الجتل يحلّ ويصبح فرض
نخلّى الدم يروى الأرض	ويجرى عرض وطول
خلّى السيف يشن يرن	اليوم العِرج ماعدش يحن
إن كانوا عفارته.. نحنا جن	واللي نجوله.. نطول
هاتوا السيف لولاد العم	وهاتوا دوايه وهات جلم
ونكتب كممتهم بالدم	خلى العار يزول

هبطت ثورة « **إسماعيل**» بعد ترديد أغنيته المتباهية بالسيف الذي سيقول. ثم دعاه للذهاب معه إلي منزله، فسار خلفه دون مقاومة ودون رغبة منه في الذهاب،

فقد كان يحسّ بأن حلمه يختنق في هتافات الثورة وكراهية **الملك**..

في الشرفة الخشبية التي تواجه النيل مباشرة جلس ثلاثتهم يحتسون الشاي « **شهد**» وأخيها « **إسماعيل**» وهو.. الذي كان قد تقمص شخصية **أبي الهول في** صمته ونظرته التي لا تعبر عن شيء محدد وسط الصحراء، **لا يهتم بالرياح عندما تحرك الرمال. ولا بالأهرامات من حوله.. ولا يخاف عفاريت الموتى من الفراعنة. ويتأمل اللصوص وهم يسرقون الآثار وكأنه لا يسمع ولا يرى.. ولا يتكلم**!!. كان هذا بينما «**أم كلثوم**» تشدو برائعة الشاعر «**حافظ إبراهيم**» **مصر تتحدث عن نفسها** من لحن «**رياض السنباطي**» كان الصوت يأتي من بعيد. وكأنه قادم من الضفة الأخرى للنهر.

قامت « **شهد**» وأدارت زر الصندوق السحري الذي انطلق بغناء « **محمد عبدالوهاب**» ومن كلمات «**أمين عزت الهجين**»:

حب الوطن فرض عليّا   أفديه بروحي وعنيّاً
ليه بس ناح البلبل ليه   فكرني بالوطن الغالي
قضيت أعز شبابي فيه   وفيه حبايبي وعزالي
وان شاف هوان ولاّ أسيه   أفديه بروحي وعنيا

جلجل صوت «**إسماعيل**»:

- الله.. أصبح لنا وطن نشعر فيه بالحرية...

ثم نظر مستفزا من صمت صاحبه الذي أصابه الخرس، فزجره بشدة وكاد يوقعه من على كرسيه قائلاً:

- مالك.. كأنك جالس في جنازة .. البلد كلها في فرح.. وانت الوحيد الحزين، وكأن الملك جدك.. أو من بقية أهلك!!

هزّ رأسه ونظر إلى « **إسماعيل**» دون أن يقول شيئا، بينما كان الصندوق السحري يوجه عتابا على لسانه من كلمات «**حسين السيد**» وغناء «**عبدالوهاب**».. كان العتاب موجها إلى «**شهد**» الذي نظر إليها، فقرأ في عينيها معنى لم يعرفه.. وإنما كان يشاهده لأول مرة:

على إيه بتلومني على إيه   كان ليه تهجرني كان ليه

ياماا قلــــبى شــكى   ياما دمـــعى بكـــــى
مارحمـــتنيش لينـــه

تأكد أنها ترد عليه:

ـ خطرش يوم حالى على بالك   ونا اللى ياما قسيت أحوالك

قال في صوت سمعته «**شهد**» وسمعه صديقه «**إسماعيل**» دون أن يشعر بدندنة مع صوت «**عبدالوهاب**»:

جــالكش يــوم حد حــكى لــك   ع اللى قاســيتهُ أنا بعدك
لو كان لى حتى نصيب فى خيالك   ماكانش دا حالى فى حبك
وماكانشـــي كــل اللى جـــرى   دا كان جرى
على إيه بتلومنى

هتف «**إسماعيل**»:

ـ ياخبر إيه جرالك!! دا انت ميت من الحب!!

التفت إليه قائلا:

ـ آه!!

ونظر إلى «**شهد**» واستطرد:

ـ هوه حتى الحب فى نظرك حرام!!

قالت «**شهد**» فى هدوء شعاع القمر الذي كان يحتضن مياه النهر:

ـ لا أعتقد الحب حرام!!

ضجر «**إسماعيل**» من الاثنين، فوقف معلناً عن موعد هام قد نسيه.. وتركهما قال لها:

ـ ماذا حدث لقصر عابدين.. قصر الملك السابق فاروق؟!

قالت :

ـ أصبح الآن بدون ملـك.. وقد توجه بالأمس إليــه الأوصيــاء على العرش كمـا ذهب لتهنـئتهم الـلواء «محمـد نجيب». كـما ذهب من قـبلهم إلى القـصر الوزراء لشهود حلف اليمين من الأوصياء.

قال :

ـ هل فتحوا حجرات القصر!!

قالت :

ـ لا أعتقد. لأن هذا سيحتاج إلى لجان لجرد ما في تلك الحجرات!

جلس منكسرا. هاهو حلمه يسرقونه أمام عينيه بعد إجلاء صاحب القصر عنه!!

قالت «شهد»:

ـ لا يعجبنى حالك. ماذا حدث لك!!

وهو يحاول عدم الإفصاح عن حلمه فى اكتشاف الأسرار فى حجرات مولاه الملك فى قصر عابدين، قال:

ـ أبداً أنا فى حالة لخبطة لا أعرف سببها!!

قالت :

ـ سأصنع لك كوبا من الشاى فلا تبتئس.. لا أحب أن أراك في هذه الحالة. أنا أحبك على طبيعتك.. ضاحك.. تحب الحياة.. تحلم دائما.. وتفكر بشكل جيد!!

تساءل مع نفسه:

ـ تقول تحبنى على طبيعتى و.. و.. و..!!.. فكيف أترجم حبها هذا..هل هو نوع من الإعجاب!!.. ربما.. ولكنه بالتأكيد ليس الحب الذى يريده!

جاءت بالشاى.. بينما كان **الصندوق السحرى** قد تغير تماماً فإنه يذيع أغنيات وطنية كثيرة. كلها كلمات مرصوصة لا معنى لها وليست مقنعة..

«**عبدالحليم حافظ**» يغنى: «**موكب النصر**» مع «**حفصة حلمى**» والمجموعة.. أغنية لا معنى لها.

و«**جلال حرب**» يغنى للجيش: «**بلادنا غاليه نموت وتعيش هيا اهتفوا فليحيا الجيش**».

و«**شهر زاد**» تغنى: «**ياساكن أراضى النيل طول عمرك شجاع وأصيل**»

و«**محمد عبدالوهاب**» **يغنى**: «**نشيد الجهاد**»....

كلها كلمات ضارة.. وسامة لمشاعر المواطنين وقادرة على إفساد ذوق الناس ومضيعة للوقت من أجل مجاملة الثورة، باستثناء الأغنية الوحيدة التى كانت لا

تذاع والذى حكمت بهذا الرقابة قبل الثورة بشهرين تقريبا لأنها مثيرة للشعور وهى «**البعث**» التى كتبها الشاعر «**كامل الشناوى**» وغناها «**محمد عبدالوهاب**»:

كنت في صمتك مُرغم كنت في صبرك مُكره
فتكلّم .. وتألم وتعلم كيف تكره

لكى تخرجه من حالته، أدارت جهاز الجرامافون فى لحن «**محمد القصبجى**» وكلمات «**أحمد رامى**» وغناء «**أم كلثوم**»:

ليه تلاوعينى وأنت نور عينى إيه جرى بينك في الهوى وبينى
لما حبيتك وانضنى حالى انعدم نومى وانشغل بالى
وان شكيت وجدى ينظلم حالى إيه جرى بينك فى الهوى وبينى

نظر إليها فوجدها تركز مدفعية عينيها عليه وكأنها تستعد لإطلاق صواريخها على قلبه الذى يعذبه فقال لها:

ـ ليه تكايدينى كل ما أتكلم!.. ليه تحاورينى والفؤاد سلّم!

تخيلها ترد عليه:

ـ ياما ناديت من أساى / فى وحدتى ياحبيبى / طال الندا ولا ردّ حبيب / ولا الخيال عن عينى يغيب / فضلت أنادى / فى كل وادى / ويطوف نداى / أسأل فؤادى / ياهلترى يرد الحبيب ولاّ المنادى هوّه المجيب!!

جلسا صامتين لفترة،

قطعت «**شهد**» مسافة الصمت وقالت:

ـ هل سمعت عن حوادث «كفر الدوار» وثورة العمال!.. والمتهم الأول الذى يدعى «مصطفى خميس» ؟

قال :

ـ لا!!

قالت :

ـ كُلف النائب العام ورجاله بالتحقيق وأعتقد أن المسألة لن تمر على خير فقد قدموا المتهمين لمجلس عسكرى عقد بكفر الدوار

نـظر إليها صـامتا.

قالت:

ـ أعرف مـا تفكر فيه أنـت تحبنى. ولكننى لا أصلح لك حـاول أن تنسانى. فالحيـاة أمامك طويلة وأنت لازلت صغيـراً وسوف تتعلم أشيـاء من الحياة.. وأنا مـتـأكـدة أننى «حلم» واحـد من أحـلامك الكثـيـرة.. وبعض الأحـلام لا يتحقق..

ثم أخفت وجهها بيديها كانت تدارى دموعها عنه، فتركها مغادرا.

★★★

فى الطريق.. أخذ يردد لنفسه كلمات الشاعر «**إليا أبوماضى** التى غناها «**محمد عبدالوهاب**»:

«جئت لا أعلم من أين ولكنى أتيت / ولقد أبصرت أمـامى طريقاً فمشيتُ / وسأبقى سـائراً إن شئت هذا أم أبيتُ / كيف جئت / كـيف أبصرتِ طريقى / لست أدرى»

لم يتوجه إلى منزله، فقد ظل هائما في الشوارع، يقرأ أسماء المحلات في بلاهة ويطالع نظرات لا يفهـمها فى عيـون الناس، فجلس على أحد المقاهى.. شـرب شايا بلا طعم، وسـمع بعضـهم يتحدثـون عن إعدام « **خميس**» و« **البقرى**» الذين أثارا العمال فى «**كفر الدوار**». وكان الصندوق السحرى قـد تحول إلى نداءات لا معنى لها عن الحرية وتمجـيد الضباط والغزل فى مـصـر والنيل وسمع «**محمد قنديل**» **يغنـى: ع الدوّار ع الدوّار / راديو بلدنـا يذيع أخـبـار / ارفـع رأسك إوعى تطاطى \ ولا تنذل لغـيـر العـاطى / واجلب أرضك عـالى فى واطى / خلى البـور في بلادنا جناين / خلي الـصحـرا تبـقى مـداين / لاجل نعـيش دايما أحرار..**

أخذته قدميـه إلى ميدان **قصر عابدين**، فوجده قد فـقد بريقه وأنواره، وهربت أسراب الحـمام التى كانـت تمرح دائماً وبلا توقف على أسوار الـقصر وشـرفاته، وعلى أرض الميـدان الفسيح، وجـد الدبابات فى أركانه تقف مـتحـفزة.. وأحس أن حلمه قد ضـاع.. وأنه لا توجد أي أسرار.. وتذكر مـا قالته « **شهد**» عن أن «**بعض**

الأحلام لا تتحقق»!

وانزعج عندما سمع أحدهم يؤكد أن حجرات القصر كانت بها ٣٦٧ **عروسة** جميلة من مختلف بلاد العالم.. وكان **الملك** يحبها كلها، وهى «**دُمى**» طالما لعب بها عندما كان صغيرا.. وكان يحتضنها عندما صار صبيا.. وربما كان يحبها كأنها من لحم ودم عندما كبر.

كان يستمع من بعيد إلي صوت «**أم كلثوم**» وهي تغني من كلمات«**أحمد رامي**» ولحن «**السنباطي**» :

مصر التي في خاطري وفي دمي أحبها من كل روحي ودمي
يا ليت كل مؤمن
يعزها.. يحبها .. مثلي أنا

عاد إلي منزله متكرراً.. ، فأمسك بالجريدة وقرأ حظه:

لا تندفع وراء عواطفك..
وتعلم الصبر..
مشكلة عاطفية تشغلك..
ستنجو من مكيدة..
وسيزول ما بينك بين صديق.. أو صديقة من خلاف ولن يستمر طويلا
أنت من التعساء هذا الأسبوع

أدار أسطوانة«**الحبيب المجهول**» :

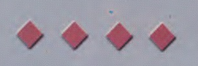
حبيبي يا للي خيالي فيك
يا للي حياتي حتكمل بيك
مــــين أنت
ما أعــرفش
فـــين إنت
ما اعرفشى!!

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٩٥ ١١٠٠/٢٠٠٠

I.S.B.N 977 - 01 - 6827 - 0





هذا هـو العـام السابع من عمـر «مكتبـة الأسـرة» .. ومنذ سنوات طـوال لم يلتف النـاس حـول مشـروع ثقافى كبير كما التفوا حول هذا المشروع الثقـافى الضخـم حتى أصبح مشروعهم الخاص، وطالبوا باستمراره طوال العام. واستجبنـا لهـذا المطلب الجماهيرى العزيز إيمانًا منا بأهمية الكتاب؛ وبالكلمة الجادة العميقة التى يحتويها؛ فى إعـادة صيـاغة وتشكيـل وجدان الأمـة واستعـادة دورهـا الحضارى العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت «مكتبـة الأسـرة» .. أن تعيـد الـروح إلى الكتاب مصدرًا هامًا وخالـدًا للثقـافـة فى زمـن الإبهـارات التكنولوچيـة المعـاصـرة.. وهـا نحـن نحتفـل ببـدء العـام السابـع من عُمـر هـذه المكتبـة التـى أصـدرت (١٧٠٠) عنوانًا فى أكثر من «٣٠ مليون نسخة» تحتضنهـا الأسـرة المصرية فى عيونها وعقولها زادًا وتـراثًا لايبلى من أجـل حياة أفضل لهذه الأمة.. ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطـن ومكتبة فى كل بيت.

سوزان مبارك

